



مركز دراسات الوحدة العربية

صفة الجمال في وعي الإنسان (سوسيولوجية الاستيطانية)

رفعة الجادري



صفة الجمال

في وعي الإنسان

(سوسيولوجية الاستيعابية)



مركز دراسات الوحدة العربية

صفة الجمال في وعي الإنسان (سوسيولوجية الاستطبيقية)

رفعة الجادجي

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
الجادرجي، رفعة

صفة الجمال في وعي الإنسان (سوسيولوجية الاستيقية)/ رفعة الجادرجي.
٢٠٨ ص.

ببليوغرافية: ص ٢٠١
يشتمل على فهرس.

ISBN: 978-9953-82-599-1

١. علم الجمال - البلدان العربية. ٢. الجمالية. أ. العنوان

111.85

العنوان بالإنكليزية

**Beauty Attribute in Man's Awareness
(The Sociology of Aesthetics)**

by Rifa'at Chadirji

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعبي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

email: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى: بيروت، نيسان/أبريل ٢٠١٣

كتب نص هذا البحث عام ٢٠٠٤، حررت بلقيس شرارة صيغته الأولى، وساهمت الطالبة إيمان ديسي في التحرير عام ٢٠١٣. راجع النص حبيب إبراهيم صادق. لقد صممت المخططات البيانية خلال الثمانينيات من القرن العشرين، فأعاد حبيب صادق رسمها، وأضاف المراجع والصور.

المحتويات

١١	قائمة الصور
١٣	استهلال
١٨	١ - اليوسوسيولوجية
٢٠	٢ - مرض قدرات الابتكار
٢١	٣ - المصنّعات الخرقاء
٢٣	مقدمة
٢٣	أولاً: الحاجة عند الإنسان
٢٩	ثانياً: المعرفة المكتسبة وتأمين البقاء
٣٠	ثالثاً: تجاوز الملل وحصول السرور
٣١	رابعاً: منحى التعامل مع متنوعات
٣٢	خامساً: الفائض في الإنتاج
٣٥	سادساً: ظهور المكنته وتلوث البيئة المعتمرة
٣٧	سابعاً: المصنّعات أداة استمتاع
٣٨	ثامناً: خلاصة المقدمة
٣٩	تاسعاً: الاستطبيقية والدورة الإنتاجية
٤٣	الفصل الأول: حركة إرضاء الحاجة الاستطبيقية
٤٥	أولاً: آليات إرضاء الحاجة الاستطبيقية
٤٧	ثانياً: ظهور المصنّع المتنوع
٤٩	ثالثاً: تنوع التعامل مع السمات

٥٠	رابعاً: استحداث التنوع و حالة الأبتمال
٥١	خامساً: التعامل المتوافق مع تنوع السمات
٥٣	الفصل الثاني: تنظيم وضبط رؤية التنوع
٦٠	أولاً: طمأنة تفاعل الدماغ مع عالمه الخارجي
٦٢	ثانياً: الاطراد و التشابه في الطبيعة و المصنّعات
٦٤	ثالثاً: الأنماط و الاتساق في الطبيعة
٦٧	رابعاً: العادة و النظام و الاستقرار
٦٩	خامساً: التكوين الشكلي المركب
٧٢	سادساً: ضبط التكوين الشكلي
٧٣	سابعاً: التنميط
٧٥	١ - التنميط التفعلي
٧٥	٢ - التنميط الرمزي
٧٦	٣ - التنميط الاستطيفي
٧٦	ثامناً: الازدواجية
٧٩	تاسعاً: الالتباس و الغموض
٧٩	١ - الالتباس
٨١	٢ - الغموض
٨٥	عاشراً: اللعب
٨٨	حادي عشر: التجريد
٩١	ثاني عشر: تعدد التنوع
٩١	١ - تنوع سمات المصنّعات
٩٢	٢ - تنوع سلوكية الجمّاع (collector)
٩٣	٣ - التنوع في مخيلة الإدمان و الولع
٩٣	٤ - التنوع خارج الوجود الدنيوي
٩٦	٥ - تنوع الطقوس خارج معيش الإنتاج
١١٦	ثالث عشر: الخلل في رؤية الوجود

١٢١ الفصل الثالث: الأبتمال

١٢٣ أولاً: خصائص وصفات المادة و الظواهر

١٢٦ ١- الظواهر الجامدة

١٢٦ ٢- الكيانات الحية

١٢٨ ٣- الإنسان

١٣٢ ثانياً: الأبتمال والأمثل

١٣٣ ثالثاً: ظهور مفهوم الأبتمال في المجال الحياتي

١٣٥ رابعاً: الملاءمة والأبتمال

١٣٨ خامساً: الدورة الإنتاجية وتحقيق الصفة الأبتمالية

١٣٨ ١- الحركة المبتملة واستنفاد الطاقة

١٣٨ ٢- ظهور المصنّع إلى الوجود

١٤٠ ٣- الدورة الإنتاجية

١٤١ ٤- الاستراتيجية المستقرة

١٤٢ سادساً: أطوار الإنتاج

١٤٤ ١- طور إنتاج المجتمع البدائي

١٤٦ ٢- طور إنتاج المجتمع الزراعي

١٥٠ ٣- طور إنتاج المجتمع النهضوي

١٥٥ سابعاً: طور الإنتاج الممكن

١٥٥ ١- ظهور المكننة

١٥٧ ٢- التلقي في طور الإنتاج الممكن

١٥٩ ٣- التغذية الاسترجاعية في الإنتاج الممكن

الفصل الرابع: القدرات الفكرية والحسية التي تحرّك المرحلة الرؤيوية

١٦١ في الدورة الإنتاجية

١٧١ الفصل الخامس: السرور والاستمتاع

١٧٤ أولاً: الاكتفاء والمتعة

١٧٦ ثانياً: الجمال

١٨٠ ثالثاً: تباين قيم الجمال وإفسادها

رابعاً: الوفرة والفائض في الإنتاج، وإخفاق تحقيق صفة	
الأبتمال	١٨١
١- القيادة الفاسدة	١٨٣
٢- التقنيات المتأخرة	١٨٣
٣- حصول تقدم أسرع من قدرات استيعابه	١٨٣
٤- استيراد الطرز	١٨٣
خامساً: المنافسة	١٨٥
سادساً: ظهور التلوّث والفوضى	١٨٦
سابعاً: العتق/الباتينا	١٨٩
خلاصة	١٩٧
المراجع	٢٠١
فهرس	٢٠٣

قائمة الصور

الرقم	الموضوع	الصفحة
م-١	كلكامش	٢٦
م-٢	تطور حجم الدماغ	٢٨
١-٢	بنية الجناح الألماني في معرض برشلونة، تصميم ميز فان دي روي	
	سنة ١٩٢٦	٥٦
٢-٢	فنّ وزخرفة الأرابيسك	٥٧
٢-٣	بازيليكا فيسيتزا	٥٨
٢-٤	كاتدرائية القديس بولس في لندن	٥٩
٢-٥	الثور المجتّح الأشوري	٦٠
٢-٦	كنيسة كاتدرائية ميلانو في لومبارديا في شمال إيطاليا - عمارة قوطية	٦٢
٢-٧	أهرامات الجيزة في مصر	٦٥
٢-٨	تمثال فينوس دي ميلو - براكسيتيليس (Praxiteles)	٦٦
٢-٩	حدائق قصر الحمراء	٦٧
٢-١٠	رودان Auguste Rodin، القبلة	٦٨
٢-١١	الكالدسكوب	٧٢
٢-١٢	سقف كاتدرائية كلوستر (Gloucester) في إنكلترا	٧٤
٢-١٣	Carlo Scarpa - Brion - Vega Cemetery	٧٨
٢-١٤	الكوربوزية كنيسة رونشون	٨٠
٢-١٥	معبد البارثينون (Parthenon)، أثينا	٨٣
٢-١٦	Kandinsky; Joyful Arising (1923)	٨٧
٣-١	كاميرا أبسكورا	١٥٣



استهلال

عندما نبحث في مجتمع الإنسان، من المفيد أن نبدأ من نقطة انطلاق هذا المجتمع وظهوره إلى الوجود. وهي نقطة تجاوز الإنسانية المتصلة الطبيعية (natural continuum)، حيث يبدأ اكتساب الوعي و سيكولوجية و سلوكيات الإنسان العاقل. يقدر حصول ذلك قبل نحو ٢٠٠ ألف عام.

مع تطور دماغ الإنسان العاقل، وبقدر ما أصبح الفكر يتجاسر و يطلق قدرات التفكير و المساءلة، و يتأمل في واقع وجود الذات، بات يعي الإنسان أنه وجود ممل عبثي لا معنى له، لأنه يعي أنه عندما يولد في الوجود، عليه أن يجهد لتأمين البقاء، و يتكاثر، من ثم يزول، و يترك المجال للجيل اللاحق لإملاء حيّز الوجود. و هو في واقعه ليس أكثر من عنصر ضمن آلية تسخّرها الجينات، بمختلف صيغ وجودها، لإدامة هذا الوجود، بصيغ كائنات حيّة. و قد ظهر الإنسان كغيره من هذه الكائنات الحيّة، ضمن هذه الآلية. و لكي يتمكن الإنسان ككائن حي واع بذاته من إدامة وجوده و راحة سيكولوجية بال الذات، عليه أن يرضي مركّب الحاجة الذي يتألف من ثلاث مقولات (categories): النفعية و الرمزية و الاستيطيقية.

ترضي المقولة النفعية حاجة إدامة البدن، كتأمين الملجأ و الطعام و الحماية و التكاثر. في حين ترضي الثانية، الرمزية، متطلبات هوية الذات و راحة البال، متمثلة بالمقام الاجتماعي و هموم سيكولوجية البقاء. و تؤلف هاتان المقولتان الحاجة القاعدية لتأمين البقاء، التي لا بد من إرضائها، و إلا عجز الفرد عن إدامة وجوده. و ما إن يتحقق إرضاء قدرة البقاء بعض الوقت، سيملّ الفرد من تكراره، و سيعي أن هذا الوجود و إدامته ليس إلا وجوداً عبثياً. فتتقدم قدرات الابتكار التي يتمتع بها الفكر، و تتفاعل القدرات المعرفية و الحسية، لتبتكر أداة الاستمتاع بالوجود، مما يؤلف قدرة إرضاء الحاجة الاستيطيقية.

لقد ظهرت قدرة إرضاء هذه الحاجة لدى بيولوجية الإنسان، وبدرجة أقل عند بعض الحيوانات الأخرى، كحاجة تأصلت في سيكولوجيته، ذلك عن طريق ابتكار آلية تجاوز ملل وعبث الوجود، فقدرة الاستمتاع به. تحقق ممارسة هذه القدرة منح قيمة إلى وعي الذات بذاتها. فيحرك الوعي بدوره قدرات الفكر الذي يقوم بابتكار سلوكيات وأدوات استمتاع الذات لذاتها. والتي تتمثل بمصنعات وسلوكيات كالرقص والنحت والرسم والغناء والطعام الشهوي والنبذ والحب والجنس المهذب وتجميل البدن، وغيرها كثيرة.

إذاً، الحاجة الاستيطانية هي الوعي بالملل وعبث الوجود، وابتكار وممارسة قدرات الاستمتاع بوعي الوجود. ولا يكون إرضاء هذه الحاجة امتداداً إلى الحاجتين الأوليين، وإنما هي مضافة إليهما. إذاً، عندما يؤمن الفرد إرضاء الحاجة القاعدية، النفعية والرمزية، يؤمن سعادة الذات. وعندما يؤمن إرضاء الحاجة الاستيطانية تكون الذات قد حققت تجاوز واقعية ملل الوجود، وابتكرت ظرف الاستمتاع كبديل يغني الوعي بالوجود، ويمنحها قيمة ذاتية لذاتها. فالفكر هو الذي بدأ يبتكر مصنعات الاستمتاع، وصيغ التعامل معها وتنوعها، وهو الذي يمنحها قيمة وأفضليات، ذلك أن قدرات الفكر تعي أهمية ابتكار الوجود في المخيلة، وتمنحه القيمة المناسبة. فيستفد الفكر طاقات جمّة في تهيئة المصنعات التي يسخرها في استمتاع سيكولوجية الذات، التي تستمتع الذات بوجودها، بقدر ما يتجاوز الفكر ضروريات الوجود البيولوجي. ويكون هذا الوجود وجوداً مبتكراً، بقدر ما يمنح قيمة لوجود الذات. غير أن هذا الوجود المبتكر، هو في محض المخيلة التي تتفرّد بها الذات، وإن تكمن أدوات ومصنعات إرضائه خارجها في واقع التفاعل بين مادية أداة الاستمتاع المبتكرة، والقدرات الحسية والمعرفية التي تحقق تفعيل إرضاء الحاجة الاستيطانية.

وما إن ترتبك هوية الذات، تقدم إحدى مقولتي الحاجة القاعدية، أو كليهما، وتعطل تفعيل قدرات إرضاء الحاجة الاستيطانية، كما تعطل قدرة الاستمتاع بالوجود، فتنتج حالات اجتماعية سيكولوجية مريضة؛ تعجز عن إحداث التطور المعرفي والاجتماعي والتكنولوجي، فتجمد تطور المصنعات وتلتزم بأشكال ونصوص معينة، بعد أن تعتبرها مقومات في هويتها، وتقدها، لتصبح غير قابلة للتغيير. نذكر منها أشكال المعابد والملابس ونوع الطعام، وغيرها من المقدسات التي تجمد تطور الفكر، وتعجز عن إحداث توافق مع التطور التكنولوجي، وابتكار التطور نفسه.

إنها، بمعنى آخر، حالات تنصف بانهياء الذوق، والرجوع إلى أشكال الماضي وأيديولوجيات أصولية، وهوس هموم البقاء. فتبتكر لنفسها قوى متخيلة تحتمي بها

كالآلهة، والعوالم السرمدية القائمة تحت الأرض أو فوق الغيوم. تلك هي الحالات الأيديولوجية التي تظهر عندما يتغلب إرضاء الحاجة الرمزية على إرضاء الحاجة الاستيطيقية.

وبالعودة إلى الاستيطيقية كمصطلح، نشير إلى أن الكسندر غوتليب بومغارتن (Alexander Gottlieb Baumgarten) (١٧١٤ - ١٧٦٢)، ابتكره وسخره كدلالة على الإدراك والحس بالجمال، كما لو كان مرادفاً لظاهرة الجمال في سيكولوجية الإنسان. وقد اتبعه فيما بعد عدد كبير من الباحثين، في تسخير المصطلحين: الاستيطيقية والجمال، كما لو كانا مرادفين الواحد للآخر. بينما يسخر هنا المصطلح الأول كدلالة على حاجة الاستمتاع بالوجود، التي تأصلت في سيكولوجية الإنسان ووعيه لهماوم الوجود. في حين يسخر الثاني، الجمال، بكونه قدرة الحسي والمعرفة التي تتمتع بها قدرات سيكولوجية الذات، من خلال وعي التمتع بصفة الأبتمال (optimality) في الشكل المتعامل معه، من جهة، و قدرة القدرات المعرفية والحسية للذات على ترجمة هذا الشكل والاستمتاع به، من جهة أخرى.

إذاً نستطيع أن نفهم مصطلح الاستيطيقية هنا بأنه وعي سيكولوجية الذات بضرورة تجاوز ملل و عبث الوجود، و ابتكار أداة إرضاء هذه الحاجة، بينما الجمال هو الحس والاستمتاع بالشكل المبتكر الذي يحمل صفة الأبتمال التي تنسب إلى شكل المصنع، بقدر ما يحمل من توازن للتفاعل بين إرضاء الحاجة و جهد تفعيل التكنولوجيا المسخرة في تصنيع الشكل، والتعامل معه.

يولد الإنسان مع جينات تتمتع بقدرات الوعي بصفة الأبتمال، و قدرة تحقيق هذه الصفة في المصنعات التي يصنعها ويسخرها في معيشه. إلا أنها قدرة، يتعين تربيتها وترويضها وتهذيبها، وفي الوقت نفسه، حمايتها من متطلبات الحاجتين الآخرين، و قدرة هيمتهما عليها، وبالتالي تعطيلها أو إفسادها. فإرضاء الحاجة الاستيطيقية يفسد بقدر ما تسخر أشكال لا تتمتع بصفة الأبتمال، و تكون مبتذلة و ملهوجة.

إن استقلال القدرات الاستيطيقية، والاستمتاع بالوجود، ليس ضرورة وجودية فحسب، بل، إن تطور حضارة الإنسان ما هو إلا تربية و تطوير القدرات الحسية الاستيطيقية، بهدف الاستمتاع بالوجود. لأن قصور هذه القدرات يؤلف حالة عجز وجودي، و وعي مأساوي خائق. و إذا عجز المجتمع عن وعي عبثية هذا الوجود، يصبح وجوداً بائولوجياً، مريضاً.

يعتبر إرضاء الحاجة الرمزية، العدو الأول والمثابر والأناني ضد إرضاء الحاجة الاستطيقية. كذلك يؤلف إرضاء الحاجة النفعية بلهوجتها وابتذالها وسوقيتها عدواً آخر ضد إرضاء الحاجة الاستطيقية. غير أنه لا يعم ولا يصبر، وحتى إن فعل ذلك، فهناك دائماً فجوات في الحاجة النفعية، تلتجئ إليها الاستطيقية، وتستمتع ضمن ساحتها، فترضي ذاتها. إذ إن المصنّعات التي ترضي الحاجة النفعية، مثل صحن الطعام والعربة واللباس، لا تنصّر على الاكتفاء حصراً بأداء وظيفتها النفعية. ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الحاجة الرمزية، لأنها إن فسدت وعمّت وهيمنت، لا تمنح فرصة أو مجالاً لغيرها في ساحة إرضاء مركب الحاجة. فمثلاً لا يجد المؤمن المعابد التي تتصف بأشكال خرقاء، كغالب الجوامع التي شيدت منذ العشرينيات من القرن الماضي، أشكالاً ملهوجة، وإنما مقدسة. وتمثل هذه الحالة بالمجتمعات التي تقودها كلجريات (Cultures) أصولية، وفي مراحل الموجات الدينية المتشددة، ومجابهة هموم واستبداد السلطة الفاسدة، وغيرها من مآسي هموم الجماعة. فهيمن متطلبات هموم هوية الذات على إدارة المعيش، وتختزل هموم الوجود برهبة الوجود نفسه، من حيث إدامته وزواله. فتصبح هوية مهزوزة عاجزة، تبتكر قوى لأشباح تحتمي بها، وتنزلق، بالتالي، في متاهات عالم الأرواح والجن والألّهة والمعجزات، وغيرها من الأوهام المبتكرة. إن واقع الحياة يصبح عبثاً وتعباً إذا هيمنت النفعية، والحياة كلها تصبح عبثاً إذا ما هيمنت الرمزية، ذلك بقدر ما يكبت ويسكت إرضاء الحاجة الاستطيقية.

وتجدر الإشارة إلى أن وجود الفرد الإنسان لا بد من أن يكون ضمن مجتمع، فهو فرد يتمتع بالتفرد، ويعي تفرده و وحدته. ومن الضروري أن يكون ضمن الجماعة، وإلا عجز عن إدامة الوجود.

وعليه، سيكون من المفيد أن نبيّن بعض المبادئ السوسولوجية التي تهمنا ضمن سياق هذا البحث، بصيغ مختزلة، وبالمفهوم والصيغة المعتادة الأكاديمية، حيث أصبح مصطلح السوسولوجيا، مع الاستعمال الأكاديمي، يشير إلى دراسة الصيغ والمعاهد والوظائف والعلاقات المتداخلة بين الجماعات ضمن مجتمع الإنسان.

تتألف العلوم الاجتماعية من الملكات المعرفية التي تسعى، بدرجة ما عن طريق المنظومات والصيغ الموضوعية، إلى دراسة علاقات وحركات البنى الاجتماعية. بهدف تأسيس معرفة يمكن فحصها. تتمثل هذه الدراسات بالعلوم الأنثروبولوجية والسوسولوجية الاجتماعية، والاقتصاد والعلوم السياسية وبعض النواحي اللغوية والمعرفية الأخرى.

تهدف هذه العلوم إلى تعزيز التفهم الذاتي للعلاقات الاجتماعية و دور الفرد في الدورة الإنتاجية، وغيرها من فعاليات ضمن إدامة المجتمع. كما يؤلف علم الاجتماع (Social Science) عنواناً عاماً لدراسة المجتمع والعلاقات الإنسانية. ومصطلح المجتمع (Society)، ترجمة إلى اللاتينية (Societas)، من «socio»، وهو يعني الاشتراك أو الاتحاد. وتتألف الجماعة من المجموع العام للأفراد، وهو التجمع الطوعي لمجموعة هؤلاء الأفراد، الذين يشتركون بهدف موحد. وهو مركب غالباً معطى مع الولادة.

أما هنا، فنحن نعرّف المجتمع بكونه مجموعة من الناس تشترك بمجموعة من الكلجريات، التي تؤلف مجتمعةً أيديولوجية المجتمع، حيث تستوطن مجموعة ما منطقة معينة، ويشعر أفرادها بأنهم يكونون كياناً متحداً ومتميزاً. ويشير المصطلح أحياناً بصيغته الأقل شمولاً، إلى ترابط اجتماعي أو تبادل متداخل عام، كمجتمع من الأصدقاء مثلاً. ويقترح ألتوسير (Althusser)، أن استعمال مصطلح المجتمع يتألف من ثلاثة مستويات من العلاقات الاجتماعية: اقتصادية، و أيديولوجية و سياسية.

لقد أدخل هذا المصطلح في المعجم السوسيولوجي من قبل بيتر برغر (Peter Berger) و توماس لوكمان (Thomas Luckmann)، اللذين جمعاً بين تنظير دوركهايم و جورج ميد (George Mead). ويفترض المبدأ الذي جاء به، بأن النظام الاجتماعي هو ابتكار إنساني، وفي المفهوم نفسه، أن الفرد الإنسان هو حصيللة اجتماعية. وقد تطورت السيكولوجية الاجتماعية بدرجة كبيرة، بعد ذلك، وركزت أعمال جورج ميد الطليعية، على أهمية دور سيكولوجية الفرد المتفاعلة ضمن التكوين الاجتماعي.

يرقد موضع السيكولوجية الاجتماعية في حيز بين البيولوجيا والعلوم الاجتماعية. وتسهم كل من رؤى النشوء، الجينية والفيزيويولوجية (physiobiological)، في فهم كيف أصبح الإنسان، الإنسان العاقل، كما هو، نوعاً من الحيوان الاجتماعي. كما تقرر تحدياته إلى أي مدى، تتأثر بقوانين النمو البيولوجية بكون الإنسان جنساً وفرداً اجتماعياً. ولكي يستطيع أن يتكيف، و يبتكر الكثير من معالم و مصنعات البيئة المعمّرة التي يعيشها، والتي تشمل ليس فقط الاجتماعية منها، بل كذلك البيئية، السيكولوجية والمادية، بما في ذلك مختلف المصنّعات المادية، وقدرات الابتكار التي يتمتع بها الفكر مع تفاعل الجينات التي يحملها. يبتكر الإنسان الكلجر المعينة، لمجابهة الحالة المعينة، في ظرف المجابهة. ويتمكن عند ذاك، من تحقيق البقاء، وتطوير المجتمع، وتطوير قدرات الذات كفرد حر، قائم بذاته ولذاته. فيكون قد سخر قدرات الابتكار، وابتكر صيغ لكلجريات (cultures) جديدة، تقود لكلجريات الدورة الإنتاجية، وما

تتضمنه من حركات وعلاقات إدارة بيئة المعيش. إنها مجالات لخيارات كلجيرية اجتماعية، تبتكرها قدرات الابتكار التي تتمتع بها، وقدرات السيكلوجية التي تقبلها وتتعايش معها.

لذا، يتعين على السوسيولوجيين أن يبحثوا عن صيغ وعي الأفراد للأحداث الاجتماعية والمادية، وصيغ تفعيل الدورة الإنتاجية. وكيف تسبب مسبباتها وتبتكر أهدافها، وقيمها، ومعاييرها التي تتطور، في تفاعل مع خصوصية رؤى ذاتية الفرد المبتكر وذلك المتلقي، ضمن تفعيل الدورة الإنتاجية للمجتمع نفسه.

هنالك مؤشرات اجتماعية (social indicators) كثيرة يمكن رصدها وقياسها، تعبر عن قدرات الابتكار والتغير الذي تسببه، لعل أهمها، أشكال المصنعات وظائفها بعامتها. من بينها معالم المدينة، حيث تفصح عن كفاءة الحرف والقيم التي يمنحها أفراد المجتمع الذين يقدرون الدورة الإنتاجية، والتي يسخرونها في إرضاء مركب الحاجة. فتمتع أشكال المصنعات، ضمن صيغ الإنتاج الحرفي، سواء في المجتمعات المتقدمة أو تلك البدائية، بقدر مناسب من صفة الأبتمال. وذلك بسبب آلية التصحيح الذاتي الذي تتمتع به مختلف صيغ الإنتاج الحرفي.

إلا أنه مع الثورة الصناعية، وابتكار المكننة، ومع المعاصرة حيث ظهر الفرد المتشخص (individuated)، وظهرت معه صيغ من الإنتاج تفتقد آلية التصحيح الذاتي. أصبح الإنتاج، بسبب هذا العوز، يعجز أحياناً عن تحقيق صفة الأبتمال. فظهر الشكل الأخرق للمصنعات، وملا البيئة. وتلوثت معه الرؤى البصرية لمعالم البيئة المعمرة.

ولا تؤلف قدرة ابتكار الأشكال الخرقاء، لمعالم البيئة المعمرة، وقدرة إدامة المعيش مع هذا التلوث البصري، دلالة واضحة على تدني قدرات الابتكار فحسب، بل تعدى ذلك إلى ما هو أهم، لتدل على عجز سيكلوجية ذات الفرد وقيادة المجتمع عن مقاومة ورد مسببات التلوث البيئي. وعليه، يعبر ابتكار الكلجريات الصالحة منها أو الفاسدة، عن كفاءة أو تدني وفساد قيادة المجتمع التي تقود وتبتكر الكلجريات. كما يعبر تباین هذه الحالات عن صيغة دور هذه القيادة في إدامة وتطور حضارة الإنسان.

١ - البيوسوسيولوجية

استحدثت مؤخراً ملكة (faculty) أكاديمية، اثبتت على مبدأ يقول إن كل سلوكيات الحيوان والإنسان تستند جوهرياً إلى أنظمة/شفرات جينية تكيّمت ضمن تاريخ تطور

آلية الاصطفاء الطبيعي. وقد نظّر وعمم هذه النظريات، العالم البيولوجي إدوارد ولسن (Edward Wilson)، الذي ابتكر مصطلح البيوسوسيولوجية (Biosociology)، في كتابه *The New Synthesis* الصادر عام ١٩٧٥، واعتقد أن كل العلوم البيولوجية ستعتبر في الحصلة فروعاً في البيوسوسيولوجية. ومن ثم طور رنشارد دوكنس (Richard Dawkins)، هذه الرؤية في كتابه الجينات الأنانية (*Selfish Genes*) عام ١٩٧٦.

لقد بينا سابقاً أن مختلف سلوكيات الإنسان انبنت، بعد أن تجاوز الإنسان العاقل المتصلة الطبيعية، بتفاعل الفكر مع الجينات. ولذا أصطلح على هذه السلوكيات بـ «كلجر» (culture)، فهذا المبتكر الذي يحققه فكر الإنسان هو الذي يقود سلوكيات مجتمع الإنسان. ويؤلف مجموع الكلجريات المبتكرة أيديولوجية المجتمع، أو الجماعة.

تأسس مصطلح «السوسيولوجيا» (sociology) من أصل لاتيني، من «socio»، التي تعني المزاملة، التصادق، و الترافق، مرفقة بـ «logos»، التي تعني المعرفة. وقد ابتكر أوغست كونت (August Comte) (١٧٩٨ - ١٨٥٧) علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، وهو رياضي وفيلسوف ومؤسس الفلسفة الوضعية (positivism)^(١). تعتبر السوسيولوجية علماً جديداً، يعالج الظواهر الاجتماعية، ويؤكد العلاقات والحركات ضمن الدورة الإنتاجية، إضافة إلى مجموع الكلجريات التي تقود إدارة سلوكيات المجتمع، أفراداً وجماعات.

لقد تحررت السوسيولوجيا كثيراً من قيودها الأيديولوجية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وظهرت في دراسات ماكس فيبر (Max Weber) (١٨٨١ - ١٩٦١)، وإميل دوركهايم (١٨٥٨ - ١٩١٧). إلى جانب هربرت ميد (Herbert Mead)، الذي وضع الأسس النظرية للقواعد السيكلوجية ضمن العلوم السوسيولوجية.

يمكننا القول، إذاً، إن هؤلاء العلماء الثلاثة، هم الذين وضعوا المبادئ العامة لدراسة السوسيولوجيا، وإن كان لكل منهم مفهوماً خاصاً للمجتمع يميز مبادئه، حيث يفترض المفهوم الأول، ماكس فيبر، أن موضوع السوسيولوجيا هو التعرف ودراسة بنوية المجتمع (social structure)، باعتبار أن هنالك أنماط للعلاقات، تتمتع باستقلالية عن الأفراد أو الجماعات، بالرغم من أن موقع كل منها في هذا التركيب الاجتماعي

(١) الفلسفة الوضعية (Positivism)، تعني بالظواهر والوقائع البينية، تهم كل تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة.

يكون مستقراً نسبياً، وذلك في أية مرحلة من مراحل تطور المجتمع. مثلاً، العلاقة العائلية التي تربط بين أفراد العائلة: الأم والأب والأطفال، والتي تدوم كماً من جيل إلى آخر.

كما يفترض المفهوم الثاني، الخاص بدور كهيم، أن موضوع السوسيولوجيا الصحيح يكمن في شيء يمكن أن نصلح عليه، هو التمثيل الجماعي (collective representation)، أي معاني وطرق تنظيم معرفي للعالم الذي يستمر وجوده، فوق وبالرغم من الأفراد الذين يجتمعون ضمنه، والذين يؤلفون مفردات المجتمع. فمثلاً، تؤلف اللغة مثلاً براديمياً (paradigm)، فهي منظومة قائمة قبل ولادة الفرد، وتدوم بعد وفاته. وبصفتنا أفراداً يمكن لنا تغيير البعض القليل فيها.

أما جورج هربرت ميد (George Herbert Mead) (١٨٦٣ - ١٩٣١)، وهو فيلسوف من المدرسة الشيكاجوية، ومن بين أهم مؤسسي الفلسفة الذرائعية (pragmatism)، التي تأخذ من النتائج العلمية مقياساً لتحديد الفكر الفلسفي ومصاديقه، فتركز فلسفته حول تطوير نظرية ظهرت في كتابه *Mind, Self and Society* عام ١٩٣٤، الذي وضع فيه أسس مبادئ سوسيولوجية السيكولوجية الاجتماعية (sociological social psychology). وأكد أهمية تحليل التجربة ضمن المخاض الاجتماعي، وأهمية اللغة، ومؤشرات الحوار، حيث تأخذ الذات دورها الاجتماعي، ضمن سيرورات التفاعل الاجتماعي، والتأمل، والتفكير المتبادل للذوات المتفاعلة، ومركزية الفعل.

لقد اتصفت أعمال ميد بكونها تصنف وتدل على «النسبية الموضوعية»، حيث تشير إلى موضوعية نسبية الرؤى (objective reality of perspectives)، إذ هناك احتمال لوجود رؤى متعددة للواقع، تختلف باختلاف الظرف والرؤيوي (perception). فتظهر كتابة التاريخ في زمن معين، تسجيلاً لرؤى خاصة بذات حاضرة آنذاك.

٢ - مرض قدرات الابتكار

تعرض قدرات الابتكار كغيرها من القدرات التي يتمتع بها الفكر، أو تكون كذلك عندما يولد كيان الفرد المعين في بيئة مريضة، فتتربى قدراته المعرفية والحسية، منذ الطفولة ضمن سيكولوجية وتربية مريضة. وتكرر أن لذاتها قيمة بذاتها، لذا تعجز عن التفكير بإرضاء الحاجة الاستيطيقية. فيؤلف هذا وجوداً مريضاً ومشوهاً وكثيباً، لأنه يعجز عن منح قيمة لذاته، وإيجاد ظرف استمتاعها.

لذا، إذا مرضت سيكولوجية الذات، ستلد بيئة مريضة، وتعيش مع بيئة كئيبة، فلا تعي ضرورة استمتاع الذات، وتنكر هذه الضرورة الوجودية، بقدر ما تغلب قوى إرضاء الحاجة الرمزية على الذات، فهرب عندئذ من واقع ملل الوجود وعبيته، وتبكر لنفسها قوى شبحية تستعين بها، وتفترضها قائمة فوق الغيوم وبينها، أو داخل القبور، وتمنحها قدرات قوى خارقة. كما تفترض أنها تتمتع بقوى خارقة. فتبتكر طقوس التوسل والعبادة وجلد الذات، المتمثلة بالصيام والصلاة والحج وإهانة كيان الذات كاللطم والزحف على الركاب، ومواجهة جدار تقدسه وتبكي وتشكي آلامها أمامه، وعبادة القبور ورفاتها وعظامها، وغيرها من الطقوس الكثيرة. فتعيش الذات، في هذه الحالة، أوهاماً مأساوية وطقوساً مذلة.

إنها سيكولوجية تمنح متطلبات الحاجة الرمزية حق تعطيل إرضاء الحاجة الاستيطيقية، فتجعل الوجود غير واع بأنه بات وجوداً مريضاً ناقصاً. فتستبدل الرقص بالحج، والنيذ بالصيام، والغناء بالصلاة. وتبتكر الملائكة والآلهة والعفاريت والشياطين والتنانين (dragons)، ككيانات ليس لها وجود حقيقي إلا في ظلمات المخيلة.

٣- المصنّعات الخرقاء

بقدر ما يكون معيش الفرد أو الجماعة ضمن بيئة مؤلفة من مصنّعات خرقاء، لا يعي بفسادها ولا يرفضها، تفسد قدرات الحس الاستيطيقي. وقد باتت الكثير من البيئات المعمّرة، ملوثة بصرياً منذ بداية القرن العشرين. وتكيفت سيكولوجية أفراد مجتمع هذه البيئات مع هذا التلوث البصري، الذي عطل وعتم القدرات الحسية الاستيطيقية. في المقابل، بقدر ما يتحقق إرضاء الحاجة الاستيطيقية، وتستمتع الذات بوجودها، تكون قد منحت قيمة لذاتها، خارج الوجود البيولوجي المعطى مسبقاً من قبل الجينات. وخارج ضروريات الوجود القاعدي، المؤلف من الحاجتين النفعية والرمزية.

فإرضاء الحاجة الاستيطيقية ليس حركة بين الحركات المتعددة التي تؤمن إدامة الوجود، بل إنه موجود خارجها، لكنه يتوافق ويتناقض معها تبعاً للحالة. فهو ابتكار وجودي لا يتمتع بقدراته، سوى الإنسان، وقليل من الحيوانات المتقدمة وبصيغ محددة. وبقدر ما يصبح الفكر حراً من هموم الحاجة القاعدية، ويتجاسر ويطلق ويطور قدراته الابتكارية، يستطيع أن يبتكر الجديد من صفات الأشكال المبتعلة، ويستمتع بها، لذا فإن الفرد هو الذي يبتكر والمجتمع يهيئ ظرف النقلة لابتكار الجديد.

الاستطبيقية، إذًا، هي ليست علم الجمال كما ظهرت في أول تعريف للمصطلح، و كما يعتقد الكثير من المنظرين، أو كما وصفها بوركهارت. فلم يكن ذلك تعريفًا دقيقًا، لأن التعامل مع الشكل والحس به، يفترض مسبقاً وجود الشكل، ومن ثم قدرة الحس به. إن الحس بالشكل المبتمل، ومنحه قيمة استمتاعية يؤلف الوعي بالجمال.

لذا علينا أن نتوخى الدقة، ونقول إن الاستطبيقية هي ظاهرة البحث عن الاستمتاع، تهدف إلى تجاوز ملل الوجود، ومنح الذات قيمة لذاتها.

يولد الإنسان مع دماغ يتضمن تركيباً بيولوجياً، وفي قدرته التفكير والتذكر، إلا أن هذه القدرات تبقى غير فعالة، فعلى المجتمع والفرد أن يعملوا على تدريب وتربية هذه القدرات، ليصبح فكراً فعالاً، ويتقبل الواقع بصيغ موضوعية، فيرتقي بالقدر نفسه إلى العقل.

قال المعري بما معناه: «الإنسان نوعان: عقل بلا دين، ودين بلا عقل»، الأمر الذي يعني بقدر ما يُعطل الفكر عن حرية التفكير، ويُفرض عليه الالتزام بمعرفة خارج الفكر وخارج عالم الوجود، ويتقبل هذه الرؤى ويخضع لها، يكون بذلك قد فقد قدرة الابتكار والتفكير.

من هنا يصبح ملتزماً بعقيدة، ويكون إنساناً بلا عقل، وفي المقابل بقدر ما يعتبر أن مصدر المعرفة هو حصراً تفاعل قدرات الفكر مع البيئة الاجتماعية والطبيعة، فيسائل ويشك، فيكون قد أصبح فكراً غير معوق، ولذا عقل بدون التزام أو دين.

مقدمة

أولاً: الحاجة عند الإنسان

يولد الإنسان مع نقص متأصل في كيانه البيولوجي، من غير استراتيجيات موروثية تؤمن له تعامل مناسب مع متطلبات البيئة، أي إرضاء الحاجة المركبة، لتأمين البقاء (existence)^(١)، وإدامته. لذا عليه أن يبتكر استراتيجيات جديدة تكون حصيلة لتجربة عملية، ولمعرفة تراكمية، يبني عليها مرجعية معرفية يسخرها في تعامله اليومي، سواء مع الظواهر الطبيعية أو العلاقات الاجتماعية، وبهذا يرضي متطلبات الحاجة المركبة التي تؤمن قاعدة البقاء البيولوجي، ويتضمن: إدامة البدن، والنمو، والتكاثر. كما أنها تتضمن الوعي بهذا البقاء، فيتداخل مع تأمين الوجود (being)^(٢)، وهو الوعي الذاتي بهذا البقاء.

تتألف الحاجة المركبة عند الإنسان من ثلاث مقولات متداخلة ومتفاعلة وهي: النفعية والرمزية والاستيطيقية، لكل منها وظيفتها الوجودية: الحياتية والاجتماعية. والحاجة عند الإنسان بطبيعتها مركبة، أو أخذت صفة الكيان المركب في سياق تطور ظهور الإنسان للوجود. وتعين على الفرد إرضاء كل منها ككيان قائم بذاته، كما يوازن بين وظائفها وأداء إرضائها، باعتبارها كياناً مركباً بالضرورة. ولذا اصطللنا على مجموع هذه الحاجات الثلاث بالحاجة المركبة.

١ - الحاجة النفعية: إن وظيفة (function)^(٣) الحاجة النفعية هي تأمين بقاء البدن، وإدامته ونموه وتكاثره، حيث تتضمن تأمين المأكل والحماية والراحة البدنية

(١) وهو البقاء البيولوجي المستورث.

(٢) وهو البقاء الواعي بذاته، الذي يتضمن الإرادة التي لها دور في صياغة نوعية هذا البقاء.

(٣) الوظيفة في تأمين البقاء، هناك ثلاثة أنواع من الوظائف: النفعية والرمزية والاستيطيقية.

و ملجأ المعيش اليومي. ولذا تفترض متطلبات الحاجة النفسية، والوعي بها، والتعامل معها، استحداث المصنّعات والسلوكيات التي تؤمن إرضاء متطلبات هذه الحاجة.

٢- الحاجة الرمزية: إن وظيفة الحاجة الرمزية هي إرضاء متطلبات الحس السيكولوجي لعلاقات الذات الواعية بكيانها، حيث تحدد هذه العلاقات موقع ومقام الذات بين الأشياء والظواهر الطبيعية، وبين العلاقات والتراتيب الاجتماعية (social stratification or social hierarchy). كما أنها الوعي السيكولوجي الذي يواجه ويعالج مسألة بقاء وزوال كيان الذات، أي الوعي الوجودي بالحياة والموت. وإضافة إلى الوعي بموقع هوية الذات بين الأشياء في واقع عالمها الوجودي، تعبّر المخيلة عن وجودية هويتها بصيغ متعددة، ومن بينها إدامة الوجود في المخيلة، أي امتداده في الزمن خارج حياة الفرد المعين، الذي يتحقق بصيغ متعددة، منها إنجاب الذرية التي تقرن بحاضر وجود الذات. وتبتكر المخيلة مآثر تستمر في الزمن وتمتد فيه، كالأعمال الفكرية والفنية والتعمير والشواهد. وتباعاً، عن طريق هذه الإجراءات، تمتد مآثر الهوية في زمن المخيلة. التي تسعى بالتالي إلى ابتكار عوالم لاحقة، خارج وما بعد واقع الوجود الدنيوي، حيث ينتقل إليها الوجود المتخيل. فيمتد كيان الفرد إلى تلك العوالم الأخرى. وقد ابتكرت مخيلة البشر صيغاً متعددة لتلك العوالم اللاحقة، اللادنيوية.

تؤلف هاتان الحاجتان: النفسية والرمزية، بما نستخدمه بالوظيفة أو الحاجة القاعدية.

٣- الحاجة الاستطيقية (Aesthetics): إن وظيفة الحاجة الاستطيقية هي إرضاء متطلبات سيكولوجية الفرد بالاستمتاع بالوجود، فتمنحه قيمة، ومعنى وجودياً حسياً مستمتعاً. بعد تأمين البقاء عن طريق تحقيق إرضاء الحاجة القاعدية، وبقدر تأمل الفرد في هذا الوجود، ستجد الذات المتأملّة بأن حقيقة بقائها ليست أكثر من صدفة بيولوجية، أي أن بقاءها لا معنى له. وبعد أن يتحقق تأمين البقاء المريح، كتأمين الملجأ والطعام ومقام مناسب للهوية، وتأمين إدامته، سيكون سؤال الذات: وماذا بعد هذا البقاء غير الزوال؟! ولماذا هذا البقاء أصلاً؟ فهي ذات تتفرد، من بين كافة الحيوانات الأخرى، فتسأل، ولذا تعي بحتمية زوال البقاء. وستعي بأن البقاء طارئ، وليس أكثر من حالة آتية، أو أن واقعه حالة لا معنى لها ومتكررة ومعلّة. كما أن التعامل مع الأشياء، سواء المصنّعة أو الاجتماعية أو الطبيعية، التي تؤمن إرضاء الحاجة المركبة، هو بالضرورة تعامل يومي، ودائم، ومتكرر. ومن دون هذا التعامل، يتعرّض البقاء للخطر، إن لم

يؤدّ ذلك إلى الزوال. لذا ما إن يتحقق تأمين البقاء بإرضاء الحاجة القاعدية، ستَمَلّ سيكولوجية الفرد من تكرار التعامل، ويصبح الوعي بالوجود حالة ممّلة، بمعنى أن واقع تأمين البقاء البيولوجي حالة ممّلة وعشية، وهذا بقدر ما تتأمل فيها مخيلة الذات الواعية بوجودها، و سواء أكانت هذه الذات واعية بواقع عشية البقاء أم لا. وربما سيكون من العبث أن نسعى لنجد وصفاً واقعياً لعشية الوجود، من دون التشبث بأوهام وخداع ذاتي، كما نجدها عند غالب الأديان في ابتكارها لعوالم أخرى، أي، ابتكار خلاصيات (salvations) لهذا الواقع الوجودي. وخلافاً لأوهام هذه الخلاصيات، نجد وصفاً دقيقاً وجميلاً وواقعياً، في ملحمة كلكامش^(٤)، حيث تنصح صاحبة الحانة الملك كلكامش وتقول له:

«إلى أين تسعى يا كلكامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدّرت الموت على البشرية
و استأثرت هي بالحياة
أما أنت يا كلكامش فليكن كرشك مليئاً على الدوام
و كن فرحاً مبتهجاً نهار مساء
و أقم الأفراح في كل يوم من أيامك
و ارقص و العب مساء نهار
و اجعل ثيابك نظيفة زاهية
و اغسل رأسك و استحم في الماء
و افرح الزوجة بين أحضانك
و هذا هو نصيب البشرية»^(٥).

(٤) ملحمة كلكامش هي ملحمة سومرية مكتوبة بخط مسهاري عل ١٢ لوحاً طينياً، اكتُشِفَت بالصدفة عام ١٨٥٣ في نينوى - العراق (المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشور بانيبال). والألواح الطينية التي كُتِبَت عليها الملحمة موجودة اليوم في المتحف البريطاني. وهي مكتوبة باللغة الأكادية و تُعَدُّ من أقدم القصص التي كتبها الإنسان.

(٥) طه باقر، ملحمة كلكامش، سلسلة الثقافة العامة (بغداد: وزارة الإعلام، [١٩٧١])، ص ١٣٧ - ١٣٨.



ذلك هو واقع البقاء الواعي بعشية الوجود. وهكذا أقدمت المخيلة التي يتمتع بها جنس الإنسانيات، وسخرت ما ورث من قدرات في التصور، وفاعلها، فاستحدثت منحى الاستمتاع بهذا الوجود، ومنحته معنى وقيمة. وأخذ هذا نهجين، أو ما يمزج بينهما، ويوافقهما: من جهة أخذ منحى نهج الاستمتاع بالبقاء القائم والديني، حيث تقدم المخيلة على ابتكار سبل الاستمتاع وتنوع ممارساته، وتجعل منه وجوداً ممتعاً، ولذا يكتسب معنى وقيمة. فتستحدث المخيلة في وجودها الديني مفاهيم وأيديولوجيات وطقوساً تسخرها لدعم قدرات ممارسات الاستمتاع، كما في ملحمة كلكامش، أمام الوعي بالوجود أن تعمّ الأفراح في كل يوم من أيام الوجود، مع رقص وألعاب المساء والنهار، وأو مصير كآبة الوجود. من جهة ثانية تقدم المخيلة على نهج استمتاع مؤجل، يتحقق في عالم أخروي، فاستحدثت عالماً آخر خارج وجودها الديني، تؤمن لنفسها من خلاله بقاءً أزلياً، أو وجوداً ممتعاً، ويوفر لها كل ما تشتهي من الملذات التي يمكن لها أن تتصورها بعد أن تنطلق في مشتهايتها إلى أبعد التصور. تقدم، ضمن وجودها الديني وتستحدث مفاهيم وأيديولوجيات وطقوساً تسخرها لدعم الوصول إلى ذلك

العالم الآخرى، حيث سيحصل الاستمتاع المؤجل. وهناك في ذلك العالم المتخيل من قبل الذات توجد «متعة الملبس» و«جنات و عيون» و «متعة الجنس»^(٦).

إن التعامل المكرر مع الأشياء نفسها والعلاقات في المعيش اليومي، يسبب الملل والضجر لدى سيكولوجية الإنسان. لذا تولدت مع تطور فكر الإنسان حاجة مكمله، وظيفتها تخفيف حدة الملل والضجر المقترن به. ونسعى وظيفة هذه الحاجة إلى سدّ النقص في وعي الوجود، وجعل المعيش المدرك مُحْتَمَلًا ومُتَمِعًا. وهكذا تولدت الحاجة الاستيطيقية، مع تطور وظهور جنس البشر، لتخفف من حدة الملل الحاصل، وتجاوز الضجر، عن طريق التنوع في أشكال الأشياء المصنعة، والعلاقات الاجتماعية، والتعامل مع تلك الأشياء الطبيعية والموقف منها. وبهذا التعامل المتنوع تتهيأ فرصة الاستمتاع بالوجود. أو أكثر دقة، لقد ظهر منحى الاستمتاع بالوجود، وتطور وأخذ ينضج مع تطور ظهور الإنسان العاقل، وأصبح حاجة متأصلة في كيانه السيكلوجي.

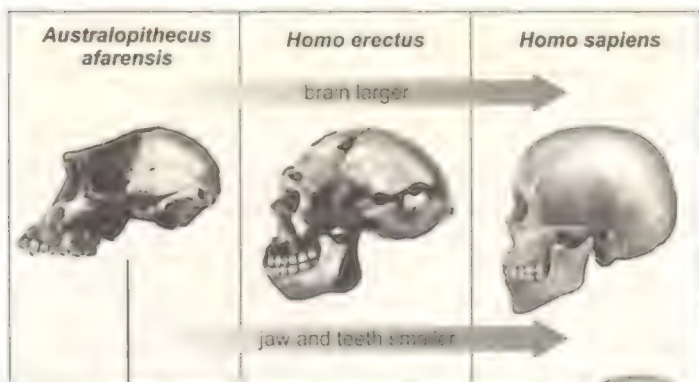
لذا، كان على نمو وتطور دماغ الإنسان العاقل أن يستحدث منحىً جديداً لبقائه، فيسخر المخيلة ويتكر سبل الاستمتاع بهذا الوجود، ذلك أن الاستمتاع عند الذات الواعية بوجودها، ليس حاجة مكمله أو إضافية، وإنما أصبح أساساً في نقلة واقع البقاء من صيغته الطبيعية الحيوانية إلى تلك الإنسانية، ومن بقاء يفتر إلى معنى، إلى وجود مستمتع ببقائه. بمعنى آخر، أصبحت الحاجة الاستيطيقية متأصلة في كيان وعي الإنسان.

وهكذا ظهر من بين الإنسانيات الإنسان العاقل (homo sapiens)^(٧) الذي يحمل بدنًا جميلًا، ويلعب ويشتهي ما هو جميل، لا كحالات تصادفية أو مؤجلة ضمن خدعة ذاتية، وإنما كمناج أصبحت متأصلة في كيانه البيولوجي. ومن هنا ظهرت الحاجة الاستيطيقية عند الإنسان كحاجة من بين الثلاث التي تؤمن الوجود، وبخلاف ذلك يصبح الوجود حالة بقاء عبثية.

(٦) انظر مقطعات من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. يَلْبَسُونَ مِنْ تَحْتِهَا مِنْ ثِيَابٍ رِشْرِشٍ. ذَٰلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. يَذُوقُونَ فِيهَا مِنْ كَأْسٍ فَالَكِهَةٍ آمِينَ﴾ [سورة الدخان، الآيات ٥١ - ٥٥].
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفَرُونَ. وَفَالَكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ حِينَئِذٍ تَقْضِيْنَ أَلْحَادًا مُخَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَلِيَّةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة، الآية ٧٢].

(٧) الإنسان العاقل الأول، عاش في أفريقيا قبل ١٦٠ - ٢٠٠ ألف سنة مَضَتْ، ويُفصّد من اسمه أنه الإنسان العاقل البكر. عُثر على بقاياه في إثيوبيا (الحبشة) عام ١٩٩٧ لكن لم يُكتشف عنها حتى عام ٢٠٠٣. وباستخدام التقنية الإشعاعية لتحديد العمر قُدّر عمره بين (١٥٤ و ١٦٠) ألف سنة.

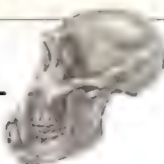
الصورة الرقم (م- ٢) تطور حجم الدماغ (homo sapiens)



The skull of *A. afarensis* is similar to that of the modern chimpanzee.

© 2006 Encyclopædia Britannica, Inc.

chimpanzee



اللوحة الرقم (م- ١) أصناف الحاجة ووظائفها

• تؤمن الحماية والملجأ والخزن والراحة البدنية

• تؤمن دلالات الهوية بشكل مصنعات كأداة ملموسة

• تؤمن متعة المعيش ضمن رؤية العالم مبتكر من جانب المخيلة



ثانياً: المعرفة المكتسبة و تأمين البقاء

لقد ولد الإنسان صياداً و مستوطناً بيئات متنوعة، و متجولاً فيها. و يتطلب تعامل الصيد، كما التجول في بيئات متنوعة، الفطنة و الانتباه الدائم، و تدريب الفكر على الانتباه، و إلا عجز الفرد عن تأمين البقاء. و بقدر ما أخذ تطور دماغ الإنسانيات في التوسع، أخذ يفتقد لبرمجة استراتيجية موروثه يسخرها في تعامله مع ظواهر عالمه الخارجي. فأصبح لا بد له من اكتساب معرفة جديدة عن طريق التجربة، عوضاً عن تلك الاستراتيجيات التي أخذ يفقدها، و ذلك عن طريق ترويض الفطنة و اليقظة و الانتباه السريع، و تدريب فكر الذات و الذاكرة تدريباً دورياً، ليتمكن من تسخير هذه الذاكرة و المعرفة، عند الحاجة، فيحملها و يتعامل بموجها، سواء أكان فرداً أو جماعة. و يسخرها في مواجهة المفاجآت التي يتعرض لها عند تحقيق الصيد المجدي و الانتقال في بيئات متنوعة. بمعنى آخر، مع ظهور الإنسانيات- ورت الإنسان القدرات و الإمكانيات الفكرية التي يمكن توسيعها و تدريبها و إنضاجها باستمرار إلى جانب اقتناء معرفة جديدة. فأصبح في قدرته اتخاذ القرار الإرادي السريع في مواجهات متعددة و في بيئات متنوعة، لذا تمكن من الاستيطان في مختلف أرجاء الكرة الأرضية. و لولا وجود هذه القدرات الفكرية لفشل الصيد و التنظيم الاجتماعي، و تعرض البقاء للخطر و بالتالي الزوال.

ثالثاً: تجاوز الملل و حصول السرور

تؤلف الاستيطيقية حاجة ضرورية في تأمين الوجود، تأصلت في التكوين السيكلولوجي لدى الإنسان العاقل. ويؤدي إرضاءه إلى تحقيق وظيفتين أساسيتين في كيان الإنسان العاقل:

١ - تجاوز ملل الوجود، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً.

٢ - اكتسابه قدرات التعرف إلى تنوع الأشكال والتعامل معها. وبقدر ما أخذ الإنسان العاقل يستخر هذه القدرة في ابتكار أشكال جديدة، لمصنّعات ول ممارسات، أمنت له بقاءً وتعاملاً أفضل مع متطلبات البيئة، سواء المستجدة أو التي يقوم باستحداثها، والمصنعة أو الطبيعية، اكتسب الدماغ قدرات تعرف أوضح لواقعية أشكال الأشياء، أي قدرات اكتشاف الإمكانات التي يمكن له أن يبتكرها من الشكل القائم ويصنع منها أشكالاً جديدة لمصنّعات جديدة، أو يستخر الشكل القائم الذي يحمله الشيء ليقوم بوظائف جديدة.

وهكذا أمنت هاتان الوظيفتان اللتان ظهروا ونما مع الحاجة الاستيطيقية، قدرات معرفة نشطة، وفطنة متكيفة، أهلت الإنسان لتعامل معرفي متنوع ومتكيف. وبقدر ما يتحقق مثل هذا التعامل يكتسب الوجود راحة البال والاطمئنان. نتج هذا من قلق الوجود، بسبب فقدانه استراتيجيات موروثه للتعامل. وبقدر ما تتحقق راحة البال والاطمئنان في ممارسات التعامل مع البيئة والمصنّعات، تستمتع الذات وتسر بوجودها الواعي.

وبسبب هذه الضرورة الوجودية للانتباه الدائم والوقوف على معرفة جديدة، أصبح تكرار التعامل بالنسبة إلى الإنسان من دون الوقوف على معرفة مستجدة، مصدراً للحس بالملل. يترجم الدماغ هذه الحالة من التعامل، بحالة وجود مملّ، ذلك أن التعامل المتكرر لا يروّض الدماغ على المفاجآت ولا اليقظة المطلوبة لأخذ القرار السريع المناسب. فالإنسان أشبه بالنمر، يمتلك دماغاً قلقاً، يمل بسرعة إن لم تتغير بيئته، أو يقوم بتغيير سلوكياته، خلافاً للأسد، الذي لا يطلب التغير ولا التنوع، ويكتفي بما هو عليه، ما دام هناك طعام يكتفي به، فيسترخي^(٨). لذا يؤلف مسعى الفرد الإنسان إلى تغيير البيئة، المصنّعة والطبيعية، موقفاً طبيعياً نحوها، يولد مع ظهوره إلى الوجود.

(٨) Lyall Watson, *Neophilia: The Tradition of the New* (Chicago, IL: Sceptre, 1989).

كان ليال واتسون، الجنوب أفريقي، عالم نبات وحيوان وأحياء، فضلاً عن أنه أنثروبولوجي، ومؤلف عدة كتب الجليل الجديد (New Age)، من بينها كتاب الطبيعة الحارقة الأكثر شعبية ومبيعاً.

رابعاً: منحى التعامل مع متنوعات

وهكذا اكتسب كيان الإنسان البيولوجي، تدريجياً، الميل إلى منحى التعامل مع متنوعات، يستحدثها أو يجدها قائمة في الظواهر الطبيعية فيفاعلها. ومع هذا أخذ ينمو عند الإنسان العاقل التوق إلى التنوع منذ أن أخذ يظهر إلى الوجود، الأمر الذي يعني أن إرضاء مقولتي الحاجة القاعدية، النفعية والرمزية، يتطلب ذلك التعامل اليومي مع المصنّعات، التي تتضمن تنوعاً دورياً و يومياً، حيث يواجه الإنسان تنوعاً ويتعامل معه. وهنا يكمن مصدر الحالة البيولوجية/ النفسية لإصابة الفكر بالملل إذا لم يتعرض لتدريب الفطنة. وعليه، أصبح موقف الإنسان العاقل من الوجود يتطلب التنوع والاستمتاع كضرورة حياتية، وحاجة أساسية تأصلت في كيان وجوده السيكلوجي. ففكر الإنسان لا يربط استراتيجيات إرضاء حاجة التنوع والاستمتاع، وإنما عليه، أن يتكرر مناحي الاستمتاع وأدواتها وسلوكيات التعامل معها، أسوة بمتطلبات مقولتي الحاجة القاعدية. وهو يحقق ذلك بموجب معرفة حدسية يتكرها، وفي تعامل حتي تلقائي. تصبح الحاجة إلى التنوع والاستمتاع بالحس، التي تؤلف أداة لإرضاء الحاجة الاستيطيقية، متأصلة في تكوين سيكلوجية الإنسان العاقل.

ولكن سيكون السؤال المهم: كيف يتحقق هذا السرور في وعي الذات، والذي يؤلف الأساس السيكلوجي للحاجة الاستيطيقية، أو كيف يتحقق بالأساس الاستمتاع مع الأشكال القائمة في الأشياء، سواء المصنّعة أو الطبيعية؟ لا يهمننا هنا تلك الحالات والآليات التي تسبب السرور والقدرة على الاستمتاع بالوجود، المتمثلة بالصحة الجيدة والعافية، مثلاً، أو ذلك السرور الذي يحصل بسبب تحقيق التكاثر بهدف تمديد الوجود في الزمن. ولا يهمننا غيرها من العلاقات الطبيعية والفرائض التي يرثها الإنسان العاقل بيولوجياً، والتي تهني له ظرف السرور. وإنما ما يهمننا منها حصراً هو التعامل مع المصنّعات: تصنيعها وتسخيرها، كأداة توظف لتأمين سرور الوجود، حينما يسخرها الفرد كأداة في سلوكيات الاستمتاع بوجوده العيني.

لذا ما يهمننا أساساً هو تلك العلاقات بين الفرد والمصنّعات التي يصنعها، كيف يسخرها في تحقيق استمتاعه في الوجود، وكيف من الممكن أن تحقق أشكال المصنّعات السرور لدى وجود الإنسان. وهذا ما سنسعى إلى تشخيص البعض من مقوماته وآلياته وحركاته.

= حاول لبال فهم الظواهر الطبيعية والخرافة للطبيعة من الناحية البيولوجية، وهو ينسب إليه أنه أول من استخدم مصطلح «الفرد المنه» (Hundredth Monkey) في كتابه تيار الحياة (Lifetide). وتيار الحياة هو فرضية أثارت غضب واهتمام الأوساط العلمية، وظلت موضوع نقاش لأكثر من ربع قرن.

خامساً: الفائض في الإنتاج

يختلف الإنتاج لدى الإنسان جذرياً عنه لدى الحيوان، بأنه يحمل قدرات فكرية هائلة، وخاصة اكتسبها نتيجة نقلة في تكون دماغه. وحصلت هذه كحصىلة لتعامل يتصف بحالات من الأبتمال (optimal)^(٩)، مع بيئة متنوعة، في تطور نوعي، دام عدة ملايين من السنين. وبسبب ظهور هذه القدرات الفكرية، ونمو الدماغ، تمكّن الإنسان من تطوير الإنتاج تصاعدياً، بحيث أخذ يحقق الفائض ويوسعه مع ظهور الإنتاج الزراعي.

إلا أن الإنتاج عند الإنسان يفترض تحقيق توازن مناسب بين إرضاء الحاجات الثلاث، كما يفترض أن يقترن تحقيق هذا التوازن بتوازن تعامل أبتمالي في إرضاء الحاجة بكيانها المركّب.

إن إنتاج الإنسان يختلف جوهرياً عما يحققه الحيوان؛ إنه يتمتع بقدرات تحقيق الفائض. وكلما تقدمت تكنولوجيا الإنتاج، ظهرت إمكانات جديدة وموقف واع يكثر من تحقيق الفائض. وهذا أمن للإنسان فرص الراحة واللهو واللعب والسمر، وتحقيق معه إخراج جزء كبير من وقت الوجود خارج متطلبات الإنتاج. وهكذا أخذ يسخر هذا الفائض من الوقت في ممارسة اللهو والتسلية، فأضفى على هذه الممارسات سمات الاستمتاع، ونمى عنده حساً مرهفاً لنشوة الوجود، فأخذت هذه الرغبات تنهذب وتنضج.

١- الإنتاج الزراعي: إلا أن ظهور الإنتاج الزراعي، أدى إلى زيادة هائلة في الفائض، الأمر الذي شكل فرصة لقلّة من أفراد المجتمع، فاستأثرت به واحتكرت منافعه التي يدرّها على المعيش. فانقسم المجتمع بين الذين يتمتعون بفائض متزايد ومعيش مترف، وأولئك الذين يتعرّضون للعوز ومعيش الكدح من دون الترف واللهو، إلا بمناسبات طقوسية محدّدة. وبسبب هذا العوز النسبي استمر، إلى حدّ كبير، واتصف غالب إنتاج المصنّعات بقدرات أبتمالية، أشبه بما كانت عليه المجتمعات التي سبقت المجتمع الزراعي.

يؤمن هذا الفائض في الإنتاج إدّامة بقاء مجتمع ما، من غير أن يتصف إنتاجه بأبتمال مناسب مقارنة بالآخر، أي، ما زال في قدرة هذا الفائض أن يؤمن بقاء أفضل لذلك المجتمع مقارنة بالآخر. لذا، فهو يوفر منافسة فعالة تستند إلى قدرات تحقيقه.

(٩) الأبتالية (optimality).

و أصبح الإنتاج لدى الإنسان حراً للمرة الأولى، بقدر معين، من ضروريات صفة الأبتمال. بمعنى آخر، أصبح في قدرة الإنسان أن يؤمن لنفسه بقاء يتصف بقدرات دونية من صفات الأبتمال في الإنتاج، وخارجة عنها، وبالتالي بقاء يتضمن تعاملًا مع مصنعات تحمل شكليات فجة، وتقترب من تعامل بليد.

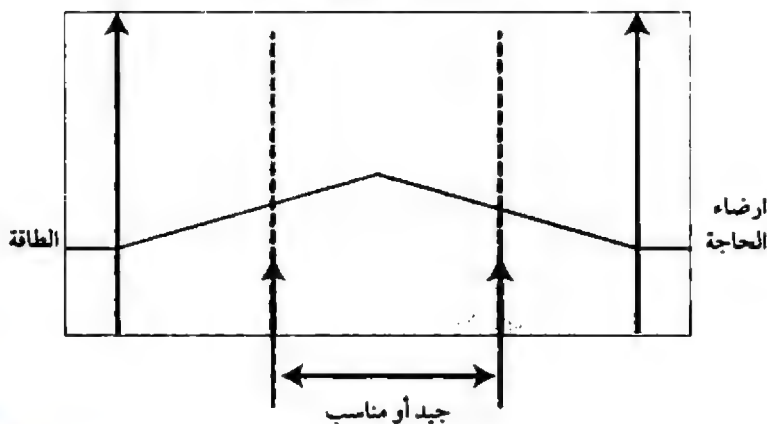
مع ذلك، استمر غالب إنتاج المصنعات في المجتمعات الزراعية بصفات أبتمالية، بالرغم من تنوع إدارتها، ونوع السلطة التي استحدثتها، والأيدولوجيات والأديان التي ابتكرتها، وتجمعاتها في قرى ومدن صغيرة وكبيرة.

و بقدر ما أخذ الإنسان يحقق الفائض، تهيأت له فرص، وفسحات تعامل وتأمل، حيث أصبح يتمكن من تعامل لا يتصف بالأبتمال المناسب من دون أن يتعرض الوجود لزوال مباشر وآني، إلا كحالة مقارنة بالآخر.

٢- الإنتاج الصناعي: ولكن مع ظهور الإنتاج الصناعي، تفاقمت القدرة على تأمين الفائض في الإنتاج. وظهرت قدرات إنتاجية هائلة متوسعة في وفرتها، الأمر الذي أكسب المجتمع الصناعي قدرات تتجاوز ضرورة تحقيق الصفات الأبتمالية المناسبة في المصنعات. بمعنى آخر، لقد توسعت سعة التفاوت بين الإنتاج الذي يتصف بحالة أبتمال رفيع، وذلك الذي يفتقر إليه، من غير أن يعرض ذلك المجتمع لفقدان منافسة البقاء لفترة معينة، أي ظهرت القدرة على البقاء فترة طويلة من دون أن يهدد هذا البقاء.

اللوحة الرقم (م-٣)

صفة الأبتمالية المحققة



وهذا صحيح ما دام المجتمع يتمتع بوفرة من الفائض، الأمر الذي يجعل الإنتاج يتجاوز ضروريات تحقيق صفات أبتمالية منافسة - وهكذا يستمر الإنتاج حتى بفعل ضروريات المقارنة بالآخر، أو يستنفد الفائض، فيعجز الإنتاج عن تأمين المنافسة، بقدر ما يفقد لصفات الأبتمال، ويعجز عن الاستمرار بدورات لاحقة، فيُهمَل ويُستبدل، أو يزول البقاء. وهنا يكمن مصدر إهمال بعض المصنّعات واستبدالها بمصنّعات أكثر كفاءة من حيث قدرات التصنيع والأداء، كما هو مصدر ظهور المصنّعات المبتدلة، التي تفنّد الحدس الحسي، حيث تتصف نوعيتها بكونها خارج محور الأبتمال المناسب. وهكذا، يؤدي تفاقم تصنيعها إلى ظهور البيئة الملوّنة.

وهكذا، أدت قدرات تحقيق الفائض إلى إحداث تغيّر جذري في العلاقة بين الكيان العضوي، والإنسان، والظواهر الطبيعية الأخرى، والجامدة عامة، إذ أصبح في قدرة هذا الكيان الذكي، بقدر ما يفسد التوازن بين الحالات الأبتمالية المتعددة والمتنوعة التي يتعين أن ينبنى عليها مختلف العلاقات الإنتاجية بين الأفراد، ومع الظواهر والأشياء الطبيعية، أن يؤمن البقاء لنفسه من دون أن يكون تعامله أبتمالياً بالقدر المناسب. إذن، تفرض قدرة حصول حالات إفساد التعامل الأبتمالية قدرات تحقيق الفائض في الإنتاج والاعتماد عليها. وفي حالة مثل هذه، لا تتوافق بالحد المناسب سلوكيات التعامل مع متطلبات خصائص المادة والخصائص الفيزيولوجية لعضوية الفرد المصنّع. وفي المقابل، تبني دورة الإنتاج عند الحيوان بالمقارنة بذلك، حصراً، على سلوكيات أبتمالية، لفيزيولوجية أعضاء بدن الحيوان، وفي تعامل متوافق مع خصائص المادة.

إلا أن هذا لا يعني أن زيادة الفائض يسبب تلقائياً إفساد الإنتاج وإخراج نوعه عن صفة الأبتمال. وإنما يعني أن القدرة على زيادة سريعة في تأمين الفائض، إضافة إلى متطلبات الإنتاج المعاصر، كالتنوع والتغير السريع، تؤدي إلى عجز الفكر الذي ينظم الإنتاج عن استيعاب المتغيرات في المتطلبات الاجتماعية والتكنولوجية، فتعجز سيرورات الإنتاج عن تحقيق صفة مناسبة لحالات من الأبتمالية. بمعنى آخر، بقدر ما يكون المجتمع، وتنظيماته الإنتاجية والطبقية والأيدولوجية، غير مهيئة لاستيعاب صدمة المتطلبات الجديدة والتكيف معها والإسهام في الابتكار الجديد منها، يفقد إنتاج هذا المجتمع قدرته على تحقيق مصنّعات تتصف بقدر من الأبتمال.

و يتمثل هذا العجز بما حصل في العلاقة بين الدولة الخلافة للسلطنة العثمانية وبين ما كان يحصل من تقدم في الإنتاج في أوروبا، وخاصة في أوروبا الغربية. كما أنه يتمثل بعجز الإنتاج الإنكليزي مقابل الإنتاج الأمريكي في منتصف القرن التاسع عشر، حيث

تمثل هذا العجز في المعرض الدولي الذي أقيم في لندن في عام ١٨٥٢. وظهر كثير من المفكرين في إنكلترا، أدركوا صفة هذا العجز في الإنتاج. ومن أهمهم كان هنري كول الذي أصدر مجلة تعالج هذه الظاهرة، حيث دعا إلى تعاون القدرات الفنية مع المصنعين. كما أدرك الأمير ألبرت، زوج الملكة فيكتوريا، تأثير هذا العجز في مكانة إنكلترا التجارية الدولية. فأقدم على اقتراح تنشئة المعرض الدولي، الذي أشرنا إليه، وكلف المهندس الزراعي جوزيف باكستن (Joseph Paxton)، تصميم المنشأ، الذي اشتهر فيما بعد بالقصر البلوري. وهو العجز ذاته الذي نشاهده في الوقت الحاضر بين الإنتاج العولمي، المتقدم، مقارنة بذلك المتخلف المتمثل بإنتاج العالم الثالث، بما في ذلك الوطن العربي عامة.

اللوحة الرقم (م - ٤)

صفة الأبتمال المحققة



سادساً: ظهور المكننة و تلوث البيئة المعمرة

ومع ظهور الإنتاج الممكنن والقدرات الهائلة التي جاء بها تحقيق فائض متزايد، تهيأت قدرات تصنيع، إلى حد كبير جداً، خارج إطار صفة الأبتمال المناسب. إضافة إلى أن المكننة أحدثت تغيراً جذرياً في العلاقة بين الفكر وسيرورات التصنيع، اصططحنا عليها بحالة فقدان العلاقة السبريانية (cybernetic interaction)، الأمر الذي أدى كذلك إلى إحداث فجوة معرفية بين سيرورات التصنيع والمرجعية المشتركة (common reference) التي يتعامل بموجبها المجتمع. وأدت هذه الفجوة المعرفية إلى حصول عجز في قدرات المجتمع الحسية في تعاملها مع خصائص الأبتمال، وبالتالي عجزها عن تحقيق مصنعات تتصف أشكالها بقدر مناسب من الأبتمال، أي بقدر ما عجزت هذه القدرات الحسية، أصبحت مصنعاتها تتصف بالابتذال.

و الابتذال هنا يعني عجز الحدس الحسي عامة لدى أفراد المجتمع عن تعامل يتصف بقدر مناسب من صفة الأبتمال، فتصبح أشكال المصنعات التي يصنعها خارج

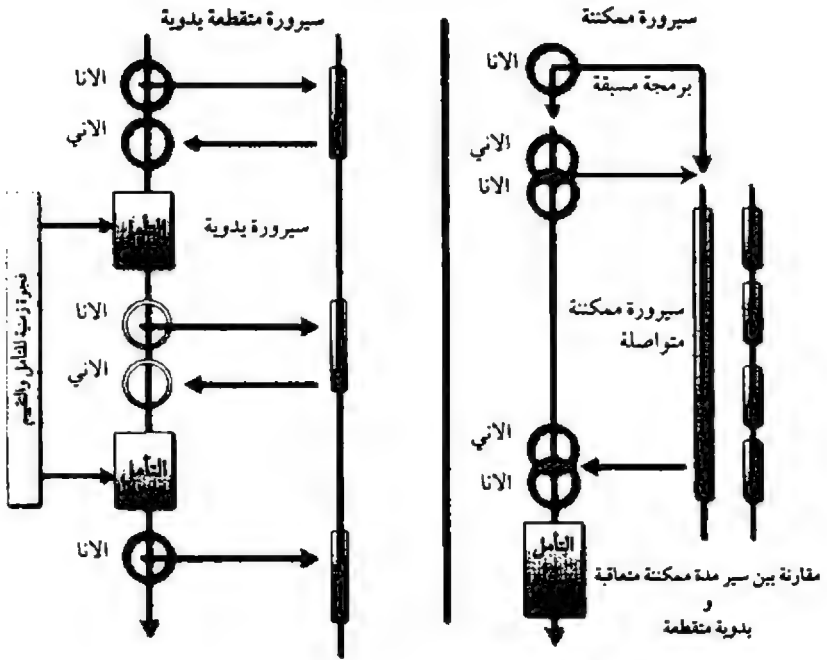
إطار صفة الأهتمام المناسبة، ولذا تتصف بالابتدال. وعند تفاقم تصنيع الأشكال المبتدلة في مجال العمارة، مثلاً، تظهر البيئة المعمّرة الملوثة، والأشكال القبيحة للمصنّعات.

إلا أن هذا لا يعني أن المكننة وزيادة الفائض بذاتهما يسببان تلقائياً إفساد الإنتاج وإخراج نوعه عن صفة الأهتمام، بل تماماً العكس صحيح، إذ إن المكننة وزيادة الفائض تهيئان فرصة التأمل واكتشاف جديد لخصائص الأهتمام، وتنمية الحس بها، والاستمتاع بها.

ولكن الخلل يكمن في الحقيقة في حصول زيادة سريعة في الانتقال إلى المكننة من قبل إدارة المجتمع المعين، وتأمين فائض متزايد، من دون تهيئة قدرات استيعاب متطلبات هذه المتغيرات الجذرية في تكوين العلاقات الإنتاجية، كمعرفة علمية وتدريبية وحسية وصنغ معيش متوافقة مع متطلباتها، إضافة إلى عجز تهيئة علاقات اجتماعية تتوافق مع متطلبات الإنتاج الممكن، والانتقال من علاقات المجتمع الزراعي والصناعي إلى ذلك الممكن وصنغ الإلكتروني المستجدة. وهذا، أدى إلى انهيار المرجعية المعرفية والحسية الحسية لخصائص الأهتمام التابعة لذلك المجتمع المعين.

إن المرجعية المعرفية الاجتماعية التي تتضمن الحسية الحسية لخصائص الأهتمام تؤلف الضوابط الاجتماعية الحسية التي تقوم بوظيفة ضبط الصفة النوعية المناسبة لأهتمامية الإنتاج عامة. ويحصل هذا الخلل خاصة حينما تكون مرجعية المجتمع الفعالة: الأيديولوجيات والعلاقات الاجتماعية، غير متهيئة لاستيعاب متطلبات المعاصرة، بما في ذلك متطلبات الإنتاج الممكن، والعلاقات الاجتماعية الليبرالية والإنسانية التي تتداخل معها. ويتمثل تأثير فساد الحدس الاستطقي، وتلوث البيئة المعمّرة بصنغته المتوسعة والمبتدلة، بما يحصل من تعمير في غالب مدن وقرى الوطن العربي.

اللوحة الرقم (م- ٥)
التصنيع السرياني والممكن والحرفي



سابعاً: المصنّعات أداة استمتاع

يولد الإنسان إلى الوجود مع طبيعة بيولوجية تختلف جذرياً عن أي حيوان آخر، في أنه يفتقد استراتيجيات يرثها ويتعامل بموجبها مع متطلبات الوجود القائمة في الظواهر الطبيعية والاجتماعية. وهو كذلك يختلف عن الحيوانات الأخرى بأنه يمتلك إمكانيات فكرية هائلة كامنة في الدماغ الذي يولد معه. لذا عليه أن يكتشف ما هي الحاجة الطبيعية البيولوجية والاجتماعية التي يتعين إرضاؤها ليتمكن من تأمين الوجود. كما عليه أن يتكر المعرفة والخبرة، والحدس الحسي، والتكنولوجيا التي يسخرها في التعامل، ليتمكن من تأمين إرضاء هذه الحاجة، وإلا لعجز عن تأمين وجود يليق بإنسانيته.

لقد أصبحت المصنّعات مع تطور البشر أداة لا بد منها، يسخرها الإنسان في غالب تعامله مع البيئة الطبيعية، ويؤمن بواسطتها متطلبات الحاجة المركبة، التفعية والرمزية.

كما يستخر المصنّعات في تعامل يتر وجوده كأداة استمتاع. فالمصنّع لا يؤمن إرضاء الحاجات القاعدية، و النفعية، و الرمزية فحسب، وإنما يكون ذلك في توازن مع إرضاء الحاجة الاستيطيقية. فالمصنّع عند الإنسان هو أداة استمتاع، و إن عجز الإنتاج عن جعله هكذا يكون قد أخفق في تحقيق إنتاج يليق به، و هكذا كان الإنتاج حينما أقدم الإنسان و صنع أول ما صنع.

ثامناً: خلاصة المقدمة

لكي نكتسب جميع الظواهر الطيعية و الاجتماعية حالة الكينونة، لا بد من مقومات لكيانها؛ مقومات تتمتع بكينونة مادية حقيقية، أو كينونة في المخيلة. و لأن الظواهر قائمة في البقاء، فلا بد لمقوماتها من أن تكون في علاقات، سواء مستقرة نسبياً أو مستمرة. و كل ظاهرة في البقاء تكون دائماً في حالة من الحركة المركبة: حركة الظهور و النمو و النضوج، و من ثم الزوال.

و هو كذلك بالنسبة إلى ظاهرة الاستيطيقية كحاجة في مركب كيان و عي الفرد الإنسان بوجوده؛ عقل و حس و قدرات على الاستمتاع بهذا الوجود، و بهذا تمنحه قيمة إنسانية، و إلا يصبح الوجود عبثاً. و بالنظر إلى أهمية التعامل مع الحاجة الاستيطيقية، سواء أكان الفرد واعياً بصيغتها المعرفية و النظرية أم لا، لذا هناك مواقف متعددة من هذه الحاجة، كما أن هناك مواقف متعددة من الحاجات الأخرى. و منذ أن ظهر التنظير نحو الظواهر و تدوينه، و أخذ الفكر يتفلسف، خاصة منذ الفلسفة الإغريقية، سواء أكانت الإشارة الاستيطيقية ضمنية أم واضحة، اعتبرها البعض مصطلحاً يشير إلى علم الجمال، و البعض الآخر صيغة الاستمتاع بالوجود، و آخر إشارة إلى المعالم و تنوعها اللذين تحملهما المصنّعات، و اللذين يسرّان الحس، أو أنها مصطلح مرادف للفنون، و غيرها من المفاهيم. و اعتبر البعض الفن و الاستيطيقية عبارة عن تقليد الأشكال الطيعية، أو تعبيراً عنها، أو أن الاستيطيقية هي تلك الضوابط الشكلية التي يتعيّن الالتزام بها، و غيرها من المفاهيم و الفرضيات.

في تنظير الفنون عامة، منذ أن ظهرت هناك مفاهيم متعددة لمفهوم الاستيطيقية، و الجمال و الفنون، التي سلاحظها في الكثير من التنظير، تظهر مصطلحات هذه المفاهيم كما كانت أو مرادفة، أو تظهر من دون تعريف واضح أو تحديد للعلاقات بينها.

غير أن موقفنا من هذه المفاهيم الثلاثة، في هذه الأطروحة: الاستيطيقية و الفن و الجمال، محدد بالمعاني التالية:

• الاستيطيقية: هي تلك الحاجة المتأصلة في سيكولوجية الإنسان، الثالثة في مركب الحاجة، وهي التي ترضي حاجة حس وعي سيكولوجية الفرد المعين باستمتاعه بوجوده، و سروره بنشوة هذا الحس.

• الفن: هو تلك الأداة التي ترضي متطلبات الحاجة الاستيطيقية، والتي تشمل القطع الفنية كالعمارة و النحت و الرسم و الخط، كما تشمل السلوكيات التي ترضي الحاجة الاستيطيقية كالرقص و الغناء و الرياضة و اللعب عامة.

• الجمال: هو تلك القيمة الحسية التي تمنحها ذاتية الفرد لمعالم المصنّع و الأشياء التي تسره. و يقدر ما يمنحها من نوعية و كم هذه القيمة تصبح بالنسبة إليه أداة فنية وظيفتها إرضاء الحاجة الاستيطيقية. و لكن كون هذه القيمة ذاتية لا يجعلها نسبية مطلقة، وإنما تنبني قيمتها على موضوعية خصائص أبتمالية الشكل، و اقتران هذه الأبتمالية مع الأبتماليات القائمة في الطبيعة عامة.

كان هذا وصفاً مختزلاً لمفهوم الحاجة المركبة التي يتمتع بها وعي الإنسان بوجوده، و علاقة هذا الوجود مع الأشياء الأخرى. و ما يهمنا هنا من الحاجة المركبة كيانها الاستيطيقي. و هي متطلبات الحاجة التي تفاعل و تهذب و تنضج القدرات الحسية لسيكولوجية الفرد، تلك التي تستمتع بنشوة الوجود. و هو وجود يحقق وعياً مستمتعاً بقدر ما يبني تعامله على حدس حتي متوافق مع متطلبات خصائص الأبتمال المناسبة، سواء تلك المحققة في المصنّعات أو القائمة في الظواهر الطبيعية.

تاسعاً: الاستيطيقية و الدورة الإنتاجية

يؤلف إرضاء الحاجة الاستيطيقية أحد المقومات الأساسية في تكوين وجودية الإنسان، إلا أن هذه الحاجة و الحاجتين الأخرين، تؤلف مقومات و حركات في البقاء الوجودي للإنسان. فكيان الإنسان ينبني على ثلاث حركات: الأولى حركة الفينولوجيا (phenology)، أو حركة تطور كيان جنس الإنسان، و الثانية الحركة المتضمنة حركة حياة الفرد من ولادة و إدامة بدن و نمو و تكاثر، و الثالثة المتضمنة دورة المعيش اليومي للفرد، التي تشمل المأكل و العمل و العلاقات الاجتماعية و غيرها.

إلا أن هذا البقاء الوجودي ينبنى على علاقة الكيان الحيّ بالإنتاج، سواء ذلك الذي يحققه يومياً أو الذي يهدف به إلى حاجات تمتد في الزمن، الأمر الذي يجعل إرضاء الحاجة أساس إحدى الحركات في الدورة الإنتاجية، أي أن التنظير و البحث في الاستيطيقية، و المفاهيم الأخرى المقترنة بها كذلك، كالجمال و الفنون، يتعين أن يبحث جزء منها بكونها جزءاً من الدورة الإنتاجية^(١٠). فالعمارة و القطعة الفنية النحتية و الموسيقى و العربة و غيرها التي يسخرها الفرد و المجتمع في إرضاء متطلبات الحاجة المركبة هي مصنّعات ابتكرها فكر فاعل رؤيته مع مادة خام، فكانت الحصيللة بدنية المصنّع، الذي يظهر كشكل ملموس يتم التعامل معه، بهدف إرضاء حاجة ما.

إن بحث الاستيطيقية من دون اعتبارها جزءاً من الدورة الإنتاجية، يجعل البحث مثالياً و غيبياً، خارجاً عن واقعية مادية كيان الأشياء، و مادية وجودية الفرد الإنسان. ولذا سيكون من المفيد قبل أن نخوض في موضوع الاستيطيقية أن نشير إلى المبادئ الرئيسية للدورة الإنتاجية؛ إلى مقوماتها و حركاتها.

تنبني الدورة الإنتاجية على تفاعل جدلي بين مقررّين مستقطبين: الأول الحاجة الاجتماعية، و الثاني التكنولوجيا الاجتماعية. يتضمن المستقطب الأول الحاجة الاجتماعية، من الحاجة المركبة بمقولاتها الثلاث، في حين يتضمن الثاني التكنولوجيا الاجتماعية من الفكر و الحس و الحدس و المعرفة و المهارة و المادة الخام و الطاقة المسخرة و غيرها من مقومات التكنولوجيا الاجتماعية. يفاعل الفكر هذين المستقطبين و تكون الحصيللة المصنّع، و شكل المصنّع. إذًا، الشكل ليس ظاهرة مستقلة عن الدورة الإنتاجية، و إنما حصيللة له. فإرضاء الحاجة الاستيطيقية، و الحس بالشكل، و المرور بجماليته، و تحقيق الاستمتاع، و منح الوجود معنى و قيمة، هي حركات حصيللة لدورة ما إنتاجية و ضمنها، محددة في الزمان و المكان. و هذه حركات ليست مستقلة عن واقعية كينونة المستقطبين في الدورة الإنتاجية: الحاجة الاجتماعية المركبة و التكنولوجيا الاجتماعية.

تألف الدورة الإنتاجية من أربع مراحل:

١- المرحلة الرؤيوية: الحس و الوعي بحاجة ما، أو ابتكار المخيلة حاجة ما جديدة، كما ابتكار شكل محتمل للمصنّع الذي يمكن أن يوظف في تلقّ مُجدّد، و تبعاً لإرضاء الحاجة.

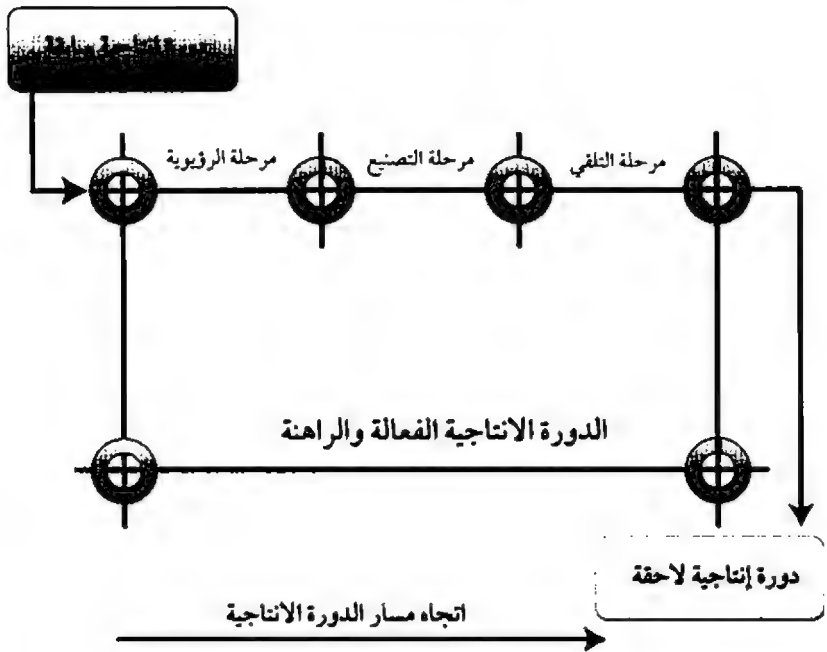
(١٠) لقد تم بحث الدورة الإنتاجية في: رفعة الجادرجي، حوار في بنية الفن و العمارة (بيروت: رياض الريس للكتب و النشر، ١٩٩٥).

٢- مرحلة التصنيع: يقدم المصنّع، ويسخّر قدراته المعرفية و الحسية، و يفاعل الرؤية مع المادة الخام، مسخّراً طاقاته البدنية و طاقات مستخرجة من مصادر طبيعة خارج بدنه.

٣- مرحلة التلقي: يقدم المتلقي و يفاعل المصنّع، و عن طريق هذا التفاعل، العلموس و المحسوس، يتحقق إرضاء الحاجة.

٤- مرحلة التغذية الراجعة (feedback): تقدم مرحلة التلقي و تنقل خبرتها إلى الدورة الإنتاجية اللاحقة، حيث تؤلف مرجعية فكرية و خبرة للمرحلة الرؤية اللاحقة. وهكذا تحصل حركة الدورة الإنتاجية. و بتعاقب الدورات الإنتاجية، و بتراكم خبرات دورات التغذية الراجعة، تنبني المرجعية المشتركة التي يتعامل المجتمع بموجبها في تحقيق الدورات الإنتاجية المتعاقبة، و بهذا يؤمن لنفسه الوجود.

اللوحة الرقم (م - ٦)
الدورة الإنتاجية ومراحلها





الفصل الأول

حركة إرضاء الحاجة الاستطيقية

إن كل ظاهرة قائمة في الوجود تكون في حالة حركة، من ظهور وإدامة، ومن ثم زوال. وهي حركة تتصف بها جميع الظواهر الحية والجامدة والفكرية، الأمر الذي يجعل كيان الظواهر دائماً في حالة حركة، سواء ملموسة أو لا. كما أن كل كيان يتضمن قوى تفعل حركاته، سواء داخلية متصلة فيه، أو خارجية طارئة عليه ومتفاعلة معه. وكذلك الأمر بالنسبة إلى حركة إرضاء الحاجة الاستيطيقية، إذ تتعدد الآليات التي تسبب إرضاء هذه الحاجة، كما تتداخل وتتناقض وتشعب حركات هذه الآليات، في سيروراتها وتأثيرها وإدامتها وقوى توليدها. وبالرغم من تعدد حركات هذه الآليات، فإنها تؤلف مقولات غريزية وكلجيرية (Cultural)^(١)، تكون واعية بموجب معرفة واضحة أو حدسية حسية، أو تؤلف مؤثرات لا واعية.

وربما من بين أهم هذه المقولات الآلية التي تسبب الظرف السيكلولوجي لإرضاء الحاجة الاستيطيقية هي: التنوع، وضبط التنوع، والأبتمال.

أولاً: آليات إرضاء الحاجة الاستيطيقية

هناك حدسية لخصائص حالات الأبتمال، ونشوء الوعي بها لدى الإنسان كصفات، والتعامل معها، وتحقيقها في المصنّعات، وإخضاع أشكال المصنّعات لمتطلباتها، سواء أكان هذا موقفاً إرادياً واعياً أم لا. وقد انبثت هذه الحدسية على موقفين لإرادة الفرد وسلوكيات تعامله، وتظهر في حركتين (سلوكيتين). إن وظيفة الحركة الأولى هي ابتكار التنوع، ووظيفة الحركة الثانية هي ضبط هذا التنوع.

وتتمتع كل من هاتين الحركتين باستقلال ذاتي في سيروراتهما، ومحفزاتهما، ومقوماتهما، وهما متداخلتان بالضرورة. لذا فهما حركتان متباينتان، ومتناقضتان. ولا يتحقق مفعول كل منهما في تحقيق صفة الأبتمال ما لم يحصل توازن بينهما. وتفسد كل من الحركتين، إذا لم يتفاعلا، في حوار جدلي متداوئ في مخاضات الذات، الواعية أو اللاواعية.

(١) الاستراتيجيات التي تقود الحياة اليومية للإنسان من خلال تفاعل الفكر مع الجينات الموروثة.

بمعنى آخر، كانت هاتان الحركتان متباينتين في وجودهما، فإن ما يحدد وينظم توازن علاقتهما، هو قدرات أفعال كل منهما على سيرورات إرضاء الحاجة النفسية. وتبعاً سيكون التوازن الحاسم في موقع تحديد نوع نمو ورفي حالة الموقف من تعامله مع البيئة والوجود عامة، أي نحو قدرات استحداث رقي في تصنيع المصنّعات. وذلك لأن تأمين هذه الحاجة، النفسية، يبنى عليه أساس البقاء. ولذا، فإن توافق إرضاء الحاجة الاستيطيقية معها ضرورة وجودية. وهناك نهج وسلوكيات ومواقف متعددة يتحقق بموجبه، وربما أهمها هو التناقض بين حرية الاستمتاع والطاقة المطلوبة لتحقيق هذا الاستمتاع. وقد وجد الوعي بهذه العلاقة حلاً تأسل فيه، بسبب هذا التناقض. وقد ابتكره على صعيدين:

١- استنفاد الحد الأدنى المناسب من الطاقة لتحقيق شكلية للمُصنّع، بشرط يؤمن إرضاء الحاجة بالقدر المناسب، أي يحقق تعاملاً يتصف بقدر مناسب من الأبتمال، وهو أداء متوازن بين متطلبات خصائص المادة الخام والطاقة المستنفدة في تحقيق إرضاء الحاجة التي يُصنع المُصنّع لإرضائها. ويؤلف هذا المنحى، أو هذه السلوكية، الضابط الأول في التعامل مع المادة الخام، واستحداث المصنّع إلى الوجود.

٢- ظهور حاجة التنوع^(٢) وتأسل التنوع في سيكولوجية الإنسان. لقد بينا في المقدمة أن آليات إرضاء الحاجة الاستيطيقية: التنوع والأبتمال، تتداخل بشكل يجعل تحقيقها وظهورها والتعامل معها متداخلاً بالضرورة. وهذا يجعل البحث في أي منها يتداخل مع البحث في الأخرى. مع ذلك، تتطلب سيرورات البحث توضيح الفصل بينهما، وسنعمد هذا النهج بقدر ما يتطلب توضيح البحث.

لقد بينا أن وعي الإنسان بوجود ذاته، بعد أن يحقق إرضاء الحاجة النفسية: الملجأ والمأكّل والنواحي الأمنية، والحاجة الرمزية: موقع ومقام الذات بين الأشياء الجامدة والحية والاجتماعية، يصبح لدى هذا الوعي عبئاً، لا معنى له.

كما أن التعامل المكرر في سيرورات المعيش اليومي مع الأشياء المصنّعة والطبيعية والاجتماعية، ضرورة لا بد منها لتأمين استقرار سلوكيات المعيش، واستنفاد الطاقة فقط بقدر ما تتطلبه ضروريات تأمين البقاء وإدامته. إلا أن التعامل المتكرر أخذ يسبب مللاً وضجراً ظهر وأخذ يتفاقم مع ظهور ونمو سيكولوجية الإنسان، الأمر الذي فاقم الوعي بعيشة الوجود.

(٢) التنوع والمنوعات، هي حالة تضمّن أو تتحدث أشكال وطقور من أشكال، وحالات من ظهور وعلاقات مختلفة (variety and variation).

وهكذا أصبح واقع البقاء الواعي بذاته وجوداً عبثياً، ولا معنى له، ما لم تتقدم مخيلة الإنسان وتعالج هذا التناقض في سيكولوجيته. وهذه سيكولوجية أصبحت مع تطورها عند الإنسان، سيكولوجية متناقضة. من جهة، تتمتع بقدرات حرية إدارة وابتكار ظروف سيكولوجية الذات، ومن جهة أخرى تتمتع بالوعي بفقدان معنى هذا البقاء في عمومية كون الوجود. لذا أقدمت المخيلة التي ظهرت ونمت مع هذا الوعي، على استحداث منحى الاستمتاع بهذا الوجود، فمنحته معنى وقيمة.

لقد تولدت مع تطور فكر الإنسان حاجة مكملة، إضافة إلى تلك التفعية والرمزية، وظيفتها تخفيف حدة الملل والضجر المقترن به. وهي حاجة وظيفتها الاستمتاع بالوجود، عن طريق ابتكار التنوع في سلوكيات العلاقات الاجتماعية، وابتكار أشكال الأشياء المصنعة، وفي سيرورات سلوكيات التعامل مع المصنعات، ومع تلك الطبيعية، وفي الموقف منها عامة. فأصبح منحى الاستمتاع بالوجود حاجة متأصلة في تكوين سيكولوجية الفرد الإنسان.

وهكذا اكتسبت سيكولوجية وعي الإنسان بوجودها، وكيانه البيولوجي، تدريجياً، ميل منحى تعامل مع متنوعات، يستحدثها هذا الوعي، أو يجدها قائمة في الظواهر الطبيعية فيفاعلها ويستمتع بها. وأخذ ينمو عند الإنسان العاقل (homo sapiens) التوق إلى التنوع مع مراحل سيرورات ظهوره للوجود. ما يعني، أن إرضاء مقولتي الحاجة القاعدية: التفعية والرمزية، أصبح يتطلب أن يتضمن التعامل اليومي مع المصنعات، تنوعاً دورياً، فتأصلت هذه الحاجة عنده، كضرورة حياتية، كحاجة أساسية في كيان وجوده السيكولوجي.

وهكذا، أخذ الفرد الإنسان يستحدث وينتكر مصنعات وممارسات وسلوكيات تؤمن له تنوعات يستمتع بها، فيحقق نشوة الوجود. وهي تنوعات يحسها حدسياً ومعرفياً، ويمارسها بموجب طقوس تبتكرها مخيلته، التي تقوم بوظيفة ضبط التنوع وإدارة سلوكيات التعامل معه.

ثانياً: ظهور المصنع المتنوع

يعتبر تحقيق هذا التنوع المتكرر في المصنعات حالة متعذرة، لما يتطلبه من جهد كبير ومتكرر في استفاد الطاقات، فيما لو تم إعادة تصنيع المصنع، كلما خضع الفكر للتعامل مع التنوع. كما أن تكرار تصنيع المصنعات بصيغ متنوعة دورياً سيسبب تراكم

هذه المصنّعات، وبالتالي ستهمل بسبب الملل منها. إذن، تؤلف حالة الحاجة إلى التنوع، وفي المقابل استفاد الطاقة لتحقيق هذا التنوع، تناقضاً متأسلاً في تكوين كيان نفسية الإنسان وموقفه من الوجود. كما أنه كلما زاد التوق إلى التنوع، سيزداد استفاد الطاقة وإهمال المصنّعات، الأمر الذي يؤدي إلى إحباط الاستمتاع بالتنوع، وإحباط وظيفة التنوع. بعبارة أخرى، حصل تناقض، من جهة، بين السعي إلى تنشيط الفطنة واليقظة الحادة التي تتطلب التنوع، والاستمتاع بهذا التنوع، وفي المقابل تعذّر تغيير المصنّعات دورياً بالكمّ الذي يؤمن هذه الرغبة.

ومن هنا، ومع نشوء فكر الإنسان وتطوره، تطور دماغ الإنسان وأخذ يحقق نقلة جذرية في تكوينه العصبي، وتبعاً للسيكولوجي، وذلك بتحقيق الوصول إلى حلّ مناسب يؤمن تجاوز هذا التناقض في الوجود. فظهرت حاجة جديدة إلى مواجهة هذا التناقض، وإلى سدّ النقص في تعامله مع المصنّعات لسدّ متطلبات الحاجتين الأوليين.

وهكذا نمت في الدماغ أداة آلية تجاوز هذا النقص أو إرضائه، ألا وهي تطوير نمو حاجة تنوع السمات (features)^(٢) التي يحملها المصنّع. بمعنى آخر، ابتكر الدماغ آلية لنفسه وطورها وظفها في تحميل المصنّعات التنوع الشكلي. وهكذا تطور توق في وعي الإنسان، في سيورات تعامله مع المصنّعات، في رؤيتها وتصنيعها، وفي تشغيلها في إرضاء حاجة التنوع، أي جعل شكل المصنّعات تتضمن، أو تحمل، سمات تدل على التنوع. وتحفز الدماغ، عند التعامل معها، على تعامل متنوع. فتنشط فطنة الفرد وتدرجه على مجابهة التنوع اللامحدد القائم في الطبيعة ومعيش الفرد اليومي.

إذاً، هذا التوق إلى تنوع سمات شكل المصنّعات، وتنوع العلاقات الاجتماعية، سواء في الواقع أو في المخيلة، وتنوع الموقف من الطبيعة، هو استحداث آلية تحميل أشكال الأشياء سمات وظيفتها تفعيل المخيلة وتنشيطها، وبهذا القدر ستنسر، وتمنح الوجود معنى وقيمة.

التنوع، إذاً، هو موقف فكري نحو التعامل مع المصنّعات، وظيفته تجاوز رتابة تكرار التعامل مع الأشياء القائمة في الوجود، وملل الوجود ذاته.

وتتصف وظيفة التنوع بتعدد استحداث الأشكال وجمعها ضمن التكوين الشكلي المعين. وهو ما يعني تحميل التكوين الشكلي سمات متعددة تهين لمخيلة المتلقي فرصة تعامل متنوع مع الشكل نفسه. هذا ما يجعل التعامل أداة تحفز فطنة المتعامل مع

(٢) مفرداً بـ سمة، أي شكل ثانوي، تفصيلي، جزئي، الذي يجتذب اهتمام أو رغبة.

هذه الأشكال التي تتضمن التنوع، وهذا تماماً هو الوظيفة البيولوجية والنفسية للتنوع، التي أشرنا إليها في المبحث السابق، وبيّنا أهمية هذا التعامل المتنوع نسبة إلى تأمين بقاء وجودي يتوافق مع عقل الإنسان العاقل.

وعليه، يؤلف التعامل مع التنوع القائم والمستحدثات من المعالم التي تحملها المصنّعات، موقفاً فكرياً نحو شكلية المصنّعات، وظيفته النفسية، في ظاهرها، تجاوز تكرار التعامل معها، وتبعاً تخفيف أو تجاوز ملل الوجود ذاته. ولكن واقع وظيفته الوجودية في باطنها هو تدريب فطنة الفكر والمخيلة على تهيئة قدرات أكثر فعالية في تأمين الوجود. وهكذا بقدر ما تعي الذات، بأنها اكتسبت وأمنت لنفسها الفطنة المناسبة لتأمين الوجود، ستسرّ بوجودها، لأن السرور، كما أشرنا إليه، يقترن بطمأننة الوجود. وهنا مصدر أهمية تنوع المعالم من قبل مخيلة الإنسان، والسعي نحوها، والاستمتاع في التعامل معها.

بمعنى آخر، أصبح التنوع، لدى الإنسان، مصدراً نفسياً ظاهرياً للاستمتاع بالوجود، وفي واقع باطنه مصدر تحفيز و تدريب الفطنة لمواجهة المتطلبات المتنوعة في الوجود.

ثالثاً: تنوع التعامل مع السمات

تستحدث حركة التصنيع مصنّعات تحمل سمات متنوعة، أو توحى بها، ولكن بشرط أن يتوافق هذا التنوع مع التنوع الحاصل في سلوكيات المعيش، سواء للمجتمع ككل أو لفئة فيه. لذا، ستؤلف بهذا القدر أداة فعالة لتحقيق إرضاء الحاجة الاستيطانية. ومن غير هذا التوافق، سيصبح التنوع ممارسات عبثية لفرد أو جماعة معينة، الأمر الذي يعني أن عليه أن يكون في قدرة مرحلة التلقي لفهم معاني معالم التنوع، واستيعاب قيمها، والاستمتاع بها، وتمكن الذات من ترجمتها التي تحفز إحساسها في إرضاء النشوة الاستيطانية، وإلا فقدت وظيفتها الاجتماعية. بمعنى آخر، بقدر ما يكون التنوع ضمن قدرات مرحلة التلقي، ستقل هذه السمات المتنوعة معاني وقيماً جديدة، تنشط وتوسع مجال رؤية المعيش، وتبعاً ستسرّ المخيلة. وبقدر ما تسرّ المخيلة، فتتقدم وتهيئ لنفسها سلوكيات وطقوساً، تبتكرها وتفاعلها مع السمات المتنوعة، فهي تهيئ لوعيتها حساً وجودياً جديداً في معيش متنوع، وتغني هذا المعيش. وعن طريق تحميل سمات متنوعة لأشكال المصنّعات، وبقدر ما تكون فعالة في المخيلة، ستهيئ لذاتها قدرات تجاوز الملل الحاصل بسبب المتكرر القائم في واقع الوجود. وهكذا تخفف

حدّته، أو تهمله، وتعيش في عالم تستحدثه في مخيلة متفاعلة مع ما تتكره ذاتها من سمات تحملها على الأشياء، فتُحفّز يقظة الذات بوجودها. ومن هنا سيكتسب الوعي بالمعيش نوبات أو دورات و مناسبات من نشوة الوجود، فتضفي عليه وجوداً آخر قائماً في المخيلة.

إذاً، بهذا المفهوم، إن وظيفة الاستيطيقية هي تهيئة تكوين يوازن مطلبين متناقضين: أولاً، تنوع الشكليات إلى الحد الممكن، وذلك لتأمين تخفيف الملل. ثانياً، وفي المقابل، تنظيم تكوين هذه المتنوعات من الشكليات، كذلك، إلى الحد الممكن، في أطقم وأنماط، الأمر الذي يجعل التكوين ميسوراً للإدراك. وبهذه الحصيلة للتنوع يؤمن للفرد أداة للمتعة، تُصنَّع بمركبات مُنظمة، أي بموجب بنيات منسّطة ومقطّعة (من طقم). فيصبح هذا التنوع المركب، بسبب هذا التنظيم، سواء في كيان مادي في واقع البقاء أو في المخيلة، ميسوراً للإدراك.

رابعاً: استحداث التنوع وحالة الأبتمال

و بقدر ما أخذت الإرادة تشتبه وتسعى إلى تنوع جديد، أخذ إنتاج المصنّعات يتنوع ويحقق تنوعاً جديداً في أشكال مبتملة بقدر مناسب أو رفيع. ولكن ما إن يفقد شكل مصنّع ما الصفة الأبتمالية مقارنة بمصنّع جديد، أو ابتكار جديد، حتى وإن تفاعلت ضروريات المقارنة والمنافسة مع الآخر، فيهمل المصنّع القائم ويعطل إنتاجه، ويستبدل بالجديد، الذي يتصف بأبتمال أكثر. وهنا يكمن مصدر إهمال بعض المصنّعات واستبدالها بمصنّعات أكثر كفاءة من حيث قدرات التصنيع والأداء وإرضاء الحاجة.

و تنجرف أحياناً رغبة التنوع والاستمتاع به، أو تظهر رغبة فاشن (موضة) دورية ملحة، فتتزلق المخيلة في إنتاج يعجز عن تحقيق قدر مناسب من الأبتمال. وغالباً ما يحصل هذا في ظرف حينما يتوفر فائض متعالٍ في الإنتاج، حيث تسبب وفرته تأمين ظرف انزلاق المخيلة خارج ضبط التنوع. وهنا يكمن أحد مسببات ظهور إنتاج خارج محور الأبتمال المناسب. وباستمرار تحقيق تنوع غير مضبوط وتعميمه، تظهر كلعجريات إنتاجية فاسدة، وتلوّث البيئة.

إذاً، يختلف إنتاج الإنسان جوهرياً عما يحققه الحيوان، ذلك أن الحيوان لا يمتلك قدرات تحقيق الفائض، ولذا تفترض ضروريات معيشه إنتاجاً يتعين أن يكتسب القدر

المناسب من صفة الأبتمال، وإلا عجز كيان الحيوان عن إدامة البقاء. ومن جهة أخرى، بسبب قدرات الإنسان على تحقيق الفائض، أخذت علاقته بالظواهر الطبيعية تختلف جوهرياً، إذ كلما تقدمت تكنولوجيا الإنتاج، ظهرت قدرات جديدة تحقق الفائض. فأخذ يحقق الفائض بموقف واع، ويسعى إليه، الأمر الذي هيا له فرصاً عديدة ومتنوعة إلى الراحة واللهو واللعب والسمر، في جزء كبير من الوقت خارج متطلبات الإنتاج كأداة تأمين الحاجة النفعية. ومنذ العصر الحجري القديم تمكن الإنسان العاقل في معيشه البدائي، من تخصيص قسم كبير من وقت معيشه اليومي، يقدر بثلاثة أو أربعة أيام من بين السبعة يخصصها للهو وطقوس اللعب والرفاهة والعلاقات الاجتماعية. كما أن الإنسان العاقل سخر هذا الوقت خارج متطلبات الإنتاج في تفعيل مخيلته وابتكار صور ورؤى لتنوعات جديدة.

وهكذا أقدم الإنسان العاقل واستحدث وجوداً آخر خارج الإنتاج، ومغايراً له، حيث أخذ يمارس حصراً للهو والتسلية فيه، وأضفى عليه سمات استيطيقية، فتى حسه في نشوة الوجود. وقد تمثل هذا في ممارسات متصفة بقدرات من الأبتمال كمهارة الرقص والغناء والألعاب الرياضية، والاهتمام بمصنّعات فنية، التي منحها، وخصص لها، طاقات جمّة لتحقيق رؤى وتصنيع بكيانات مادية. كما تمثل هذا التطور بأنه نقل الجنس^(٤) (التجامع) بين الذكر والأنثى، من كونه وظيفة إنجاب وتكاثر، إلى متعة بحد ذاتها، أي أضاف إلى هذه الوظيفة الطبيعية النفعية، وظيفة جديدة استيطيقية، وجعل من الجنس متعة منزّهة من الوظيفة النفعية. وهكذا مع تطور هذا المنحى الوجودي لدى صنف الإنسان، اكتسب وجوده غريزة طبيعية جديدة، متداخلة مع كلجريات مستحدثة وموروثة، كجينات وميميات (mimes)، تتضمن متعة خارج وظيفة التكاثر الحيوانية الطبيعية الأصل.

خامساً: التعامل المتوافق مع تنوع السمات

يتحقق إرضاء الحاجة الاستيطيقية عن طريق استحداث تصنيع سمات متنوعة محملة على أشكال المصنّعات، بشرط أن تتوافق هذه المنوعات وتداخل مع تنوع سلوكية المعيش، وبالتالي الموقف منها وتصورها، الأمر الذي يعني أن يحقق هذا التوافق إيصاله إلى

(٤) كلمة الجنس في العربية والإنكليزية (sex) لها معنيان: (١) الجندر (gender) النوع المنظم الذكر والأنثى، (٢) تعني التجامع بين الأنثى والذكر بهدف التكاثر. ولذا سنخصص كلمة (الجنس) للمعنى الثاني حصراً، وللمعنى الأول كلمة (الجندر).

المتلقي الذي يحرك عنده استجابة مناسبة لهذا التنوع. وبقدر ما يكون الإيصال متوافقاً و مبتكراً ستحمل السمات المتنوعة معاني وقيماً جديدة تحرك تجاوباً و تفاعلاً في مخيلة المتلقي. وفي المقابل، ستهيئ هذه المخيلة لنفسها سلوكيات و طقوساً تؤهلها لتقبل حس جديد في متعة معيش متنوع. وهكذا عن طريق تحميل سمات متنوعة لأشكال المصنّعات، وبقدر ما تكون هذه المتنوعات فعالة نسبة إلى المتلقي ستجاوز مخيلته المعيش المتكرر و الممل، أو تهمله. فتُحفِز يقظة ذاتها، و بهذا تضيء الذات على المعيش نوبات من نشوة الوجود.



الفصل الثاني

تنظيم وضبط رؤية التنوع

يفترض التعامل مع البيئة حاجة التنوع المتأصلة في سيكولوجية الإنسان، بما يجعل التنوع تعاملاً حيوياً، ويذلل الملل، ويمنح الوجود قيمة إنسانية واعية بذاتها. وإلا من غير هذه الحيوية لأصبح الوجود حالة عبثية. وفي المقابل، يحقق التعامل المتكرر الاستقرار، وحفظ الطاقة، فيمنح الوجود الطمأنينة وراحة البال، الأمر الذي يعني أن هناك ازدواجية متأصلة في سيكولوجية الإنسان. إذاً هناك ضرورة وجودية تفترض تحديد التنوع وضبطه، وذلك بالصيغة التي تحقق توازناً مناسباً لازدواجية هذين المستقطبين: التنوع والتكرار.

لقد ظهر دماغ الإنسان، ونما، ونضج مع هذه الازدواجية، ومع تطور هذه الازدواجية، ابتكر الفكر صفة قيمة الاتساق، وتحقيق توازن مناسب بين هاتين الازدواجيتين.

وتظهر صفة الاتساق بصيغ متنوعة في شكل المصنّعات وسلوكيات التعامل معها، والتعامل مع الأشياء عامة. ومن بين أهم الصفات التي يظهر بها الاتساق، هي: الإيقاع والأنماط، والطقوم، والسمتري (symmetry)، وغيرها.

كما أن صفة النسق هي ذلك التكوين الشكلي لشيء، حينما تنظم الأجزاء وتترابط بصيغ، بحيث يتمكن المشاهد من أن يجد في التكوين ككل نمطاً واضحاً، وسهل الفهم والتعامل. فتنبني صفة الأبتمال للشكل المتسق، وقوى انجذابه الاستطقي التي يتمتع بها، على نسبة التوازن المحقق في تنظيم الشكل.

لذا تؤمن هذه الصفة لصورة الشكل طمأنينة الوجود عند التعامل مع المصنّع، والاستمتاع في آن. النسق، إذاً، هو قدرة الفكر على ضبط نسب علاقات المقومات، كالخطوط والسطوح والأحجام والكتل والألوان وتناغمها وإيقاعها، بما في ذلك تنظيمها بموجب سمتريات وإيقاعات وأنماط وطقوم، وغيرها من صيغ تنظيم التكوين الشكلي للمصنّعات. ولا يستند النسق إلى تنوع في التزيين والتزيق والأشكال، وإنما يبنني على ترتيب تنظيم التكوين الشكلي للمصنّع بجعل المقومات الشكلية تنظم بأنماط واضحة.

و قد حققت مختلف الحضارات والكلاجریات أشكالاَ لمصنعات تتمتع بصفات الاتساق، في أنماط و طقوم مركبة، موحدّة، مهما تراكبت و تنوعت و تداخلت و التبتست، فإنها لا بد من أن تخضع في نهاية مطاف الرؤية، مهما طال البحث فيها، لقدرات فك شفراتها، و تبعاً التعرّف إلى المعاني التي تحملها. و إلا من غير صفة النسق للتكوين الشكلي، يفقد الشكل الصفة الأبتمالية، و الوظيفة الاستطبيقية.

و تتمثل أشكال هذه الأنماط في صيغها الحديثة بعلاقة شكلية السطوح و الأحياز المستحدثة بينها، سواء في الراقع أو المخيلة، في بناية الجناح الألماني في معرض برشلونة، تصميم ميز فان دي روي سنة ١٩٢٦. و تتمثل كذلك بلباس ساك (Sac)، تصميم كريستيان ديور في خمسينيات القرن الماضي، و كرسي ثونه (Thonet) عام ١٩٠٥، و مغاسل و مراحيض صممها جيو پونتي (Jio Ponti) في الستينيات، و طائرة الكوميت، و الطاس السومرية، و الكثير من الأثاث و المصنعات التي أنتجتها مدرسة الباوهاوس (Bauhous) - و لا ضرورة لأن نشير هنا إلى ما حققته الحضارات السابقة المختلفة من قطع فنية، كالأهرام و معبد البارثينون و حدائق قصر الحمراء، حيث تمكنت مجتمعاتها من أن تفكك معانيها و تستمتع بأبتمالياتها، و لم تزل الحضارات اللاحقة تؤلف حساً و حدساً عاماً عالمياً مستمتعاً بها.

الصورة الرقم (٢ - ١)

بناية الجناح الألماني في معرض برشلونة، تصميم ميز فان دي روي سنة ١٩٢٦



و تنبني صفة النسق للتكوين الشكلي للمصنّع، والحس بجمالية أبتمالياته، على توازن وتنظيم العلاقات بين الأنماط والطقوم القائمة فيه. و تنبني قوى انجذاب صفة الاتساق للتكوين الشكلي، على قدرة المخيلة على اكتشاف صفات الأبتمال للأشكال المتعددة التي نظمت بعلاقات متممة.

ومنذ القدم، ومع تصنيع الإنسان البدائي، حقق الفكر صفة الاتساق في غالب تركيب تكوينات أشكال المصنّعات، كما سعى إلى تحقيق هذه الصفة في تعامله العملي.

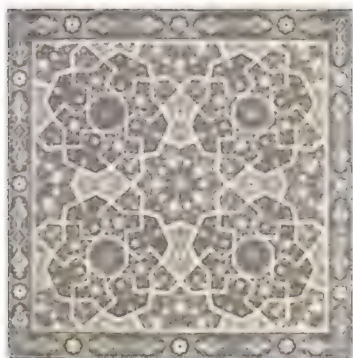
وصفة الاتساق، بكونها علاقة متوازنة ضمن التكوين الشكلي، فهي تصبح صفة تتمتع بهذه الدلالة في كل مكان وزمان. لأنها صفة تنبني بالضرورة على قدر من صفة الأبتمال المرئي، ولذا الانجذاب إليها، وقبولها، والراحة النفسية عند التعامل معها.

و يعتبر الكثير من المنظّرين والمفكرين في مجال فهم الجمال، أن النسق بين العلاقات الشكلية ضمن التكوين الشكلي للشيء، من سطوح وخطوط وأحجام وألوان، تؤلف الصفة الأساسية للتمتع بالقيمة الجمالية. وسيكون من المفيد هنا أن نشير إلى البعض من آرائهم.

يُعرف الكثير منهم النسق بكونه الانسجام بين العناصر المتنوعة ضمن الشكل المركّب، حيث يتحقق ضبط توحيد الشكل، أي إظهار المتنوعات ضمن التكوين بصيغة تدل على وجود نظام يوحدّها ضمن مفهوم رؤيوية موحدة. وهذا تعريف يتضمن ضبط التنوع، وتبعاً، و للسبب ذاته، يؤلف نسبة إلى المتلقي صورة بدلالات سهلة الفك والتلقي.

الصورة الرقم (٢-٢)

فنّ وزخرفة الأرابسك



و يعرف المعجم الفلسفي «الاتساق»، أو الهرمنة (harmony) بما يلي: «ما كان على طريقة نظام واحد من كل شيء»، أي يحصل الاتساق بقدر ما ينتظم التكوين الشكلي وتتوافق مختلف العناصر في تألف واضح. وقد عبّر عن هذا التألف التوحيدي بقوله: «كمال في الأعضاء و تناسب بين الأجزاء مقبول عند النفس». و من قبله وصف شيشيرون الخطيبّ البليغ و المهذب، بقوله: «على الخطيب الاتيكي الكلاسيكي... أن يكون متحفظاً، كاتباً، واضحاً و بسيطاً، و يقلد الاستعمال العام، و يختلف في واقعه عن اللامدرب.. ففي الوهلة الأولى تظهر بساطة الطراز بكونها سهلة التقليد و المثال، ولكن ما إن يسعى الغير إلى أن يقلدها سيجد بأن الأمر ليس سهلاً.... و على الخطيب أن يكون حراً في خطابه من مكبدات السجع، أو التي يتعين أن تهمل».

و يكمل شيشيرون (Cicero) و يصف «الاتساق» بوصفه النظام المتكامل الذي يشبه شكل السفينة، فيقول: «ففي كل ما في السفينة من أشكال عناصرها، كجوانبها و مقدمتها و مؤخرتها، كما الأشرعة، و صارية السفينة، تتمتع كل منها بأناقة و اتساق، كما لو كان ابتداعها و تصنيعها ليس فقط من أجل الأداء الجيد و المتانة، بل كذلك لمنحنا متعة النظر إليها عند التعامل معها».

الصورة الرقم (٢-٣) بازيليكا فيسبزا



و يصف الرسام هوغارث (Hogarth) كاتدرائية القديس بولس في لندن التي صممها كريستوفر رين (Wren)، بقوله: «هنا نجد فيها القدر الأعلى من التنوع من غير فوضى،

و بساطة من غير أن تكون عارية، و غناء من دون ابتذال، و وجهة من غير قسوة، و كم من غير إفراط».

الصورة الرقم (٢ - ٤) كاتدرائية القديس بولس في لندن



و ذكر الفيلسوف هيوم في النسق: «ينبغي الجمال على نظام الأجزاء. و بسببه ينبغي تكوين أشكال أشياء الطبيعة أساساً على النسق، فيهيئ لنفسيتنا الاقتران معها بالعادة الإرضاء و المتعة». و كما يعني هذا، فإنه ليس بالضرورة أن يظهر الشيء جميلاً بسبب كونه يرضي الفائدة [الحاجة النفعية]، أي يضيفي النسق صفة الجمال على الشيء باستقلاله عن الوظيفة النفعية.

و يكتب كوربوزيه: «... و لا يوجد فن ذو قيمة من دون اعتماد نظام عقلاني ثقافي (intellectual order)». و العمارة هي الفن الذي يحقق نظاماً عقلانياً بفعالية أكثر من غيرها عن طريق هذه المقولة. و يعود السبب لهذا، بأن كل شيء في العمارة يعبر عن طريق النظام و الاقتصاد». و بهذا المفهوم للاتساق يعبر كوربوزيه عن صفة الأتمال. و قبل أن نشير إلى الحالات المتعددة التي تظهر فيها صفة الاتساق، سيكون من المفيد أن نشير إلى فيزيولوجية طمأنة الدماغ.

أولاً: طمأنة تفاعل الدماغ مع عالمه الخارجي

هناك مليارات من العصبات/نيورونات (neurons) التي تؤلف حجيرات الدماغ التي تُحفز بإفعالات فيزيولوجية، حيث يكون مصدرها داخلياً أو خارجياً، فتستحدث نقاط التشابك العصبي (synapse). وبتراكبها وتوسعها، وبأعداد لا تحصى، تتكون ذاكرة الذهن، المتضمنة قدرات الفكر على التعامل مع عالمه الخارجي، بمعنى آخر، بتراكمات تكوين وعي الفرد لذاته: إحساساته ومشاعره وعاطفته وعقلانيته ومعلوماته عن عالمه المعيش، وكيف يتعين التعامل معه. وما إن تتكون هذه المركبات العُصائية لسلوكية ما، أو لصورة، أو لتخيل، أو لرؤية، أو لفنظرة، يصبح عند ذلك تفعيل سلوكيات الفكر والبدن المرتبطة بهذه المركبات قابلاً للتنبؤ من قبل الدماغ، كمعرفة وذاكرة، إذ يصبح، بسبب وجود هذه الذاكرة، تفعيل نهج مشابه، من السلوكيات التي لا تتطلب تركيب عصابات/نيورونات جديدة، أو ليس بالقدر السابق. وتبعاً ستؤدي هذه الذاكرة المكتسبة إلى تحقيق اقتصاد في تفعيل الجهاز العصبي، الأمر الذي يؤدي إلى حصول اقتصاد جوهري في تعامل الفرد مع عالمه الخارجي، وهو اقتصاد في الطاقة، سواء فكري أم بدني.

الصورة الرقم (٢ - ٥)

الثور المجنح الأشوري



و بهذه المعرفة المكتسبة سيتمكّن الفرد من مواجهة المتنوعات العديدة من الأحداث والأشياء التي يمتلك ذاكرة لها، من دون إفعال عصابي جديد لكل مواجهة. فيركز

طاقاته العقلية في إفعالات جديدة لمواجهة المتغيرات والمستجدات. ولذا تؤلف المعرفة المكتسبة، والذاكرة المتراكمة، في الوقت عينه، حالة استقرار نسبي للعصابات، فيحصل الوعي على حالة من الاطمئنان النفسي، وهذا بقدر ما يحمل الفكر معرفة قائمة في خزين المرجعية، يسخرها في مواجهة متطلبات المعيش. وللأسبب ذاته، سيوفر للفكر، هذا الخزين المعرفي، طاقة متهيئة لمواجهة المستجدات التي تحصل في معيش الفرد، والتي تتطلب معرفة جديدة.

وهذا يعني أن المنهجية الموروثة تقوم عن طريق الجينات للنفس/ السايكي (Psyche)، للفرد المعين، بدور جزئي من مجموع سلوكيات التعامل مع البيئة المعيشة، وخاصة منها التي يقوم على ابتكارها وتصنيعها، إذ تتصف هذه السلوكيات الأخيرة بكونها غير موروثة بيولوجياً، وإنما هي كلجيرية، إما مكتسبة عن طريق تطور وتراكم معرفي اجتماعي، حيث تؤلف مرجعية معرفية مشتركة تقوم بوظيفة القاعدة المعرفية للتعامل، وإما مستحدثة في آليات التعامل. فتنمو هذه السلوكيات، وتتوسع وتنضج وتتراكم، وتؤلف ذاكرة الكلجيرية التي يسخرها الفرد في تعامله مع متطلبات المعيش.

و أكثر من ذلك، إن تشابه تعامل ما مع تعامل سابق، أي التعرف إلى الربط بين حالة وأخرى أو شيء وآخر، هو قدرة الفكر على تسخير المعرفة القائمة وتمديدها لمواجهة جديدة، وهذا اقتصاد في طاقة تفعيل تعامل جديدة. إن قدرة الدماغ على تحقيق تشابه شديد التركيب، يتمثل بصور المجاز والكناية والمجاز المرسل والإيقاع والمختزلات، وغيرها من التجريدات التي يستحدثها الدماغ للمتغيرات، والتي يجعل منها متشابهات. وبتعبير آخر، هناك اطمئنان معرفي عندما يكتشف الفكر أنه يتمكن من تسخير المعرفة المتوفرة في المرجعية ويختزلها بصيغ مجازية، وغيرها من تكوينات صور مجردة في ربط واقتران صفات الأشياء من دون اللجوء إلى استحداث معرفة جديدة. أو أنه بهذا الربط يكتسب معرفة جديدة بطاقة فكرية نسبياً قليلة. فيتبها مجال الحسن بطمأنة الوجود، وتبعاً المتعة في التعامل مع هذه العلاقات التكوينية المتشابهة والاطرادية. فتحصل المتعة، وتتوسع هذه كلما كانت علاقات التكوينات أكثر فعالية في استحداث ربط بين صور الأشياء واقترانها. و يتمكن الفطري عن طريق هذه المعرفة من تحقيق تعامل أفضل مع متطلبات البيئة، خاصة منها المتغيرة والمفاجئة. كذلك تحصل طمأنة عند اللجوء إلى الإيقاع المتكرر، لأنه يؤكد تكرار تعامل معروف، خاصة أن التكرار يتضمن عادة فسحات أو فجوات زمنية، ميكرية، من وقفات تأملية قبل تكرار الحركة اللاحقة، حيث يحصل تقسيم للحركة السابقة، فتطمئن الذات على نهج مسيرتها.

ثانياً: الاطراد والتشابه في الطبيعة والمصنعات

عند التعامل مع الأشياء خارج الوجود الذاتي، يواجه الفرد نوعين من الاطراد في الطبيعة، ونوعاً في المصنعات. فيتمثل الاطراد الأول في الطبيعة باقتران الأمطار مع الغيوم، وتداول الليل مع النهار، وظهور الأزهار في الربيع. كما يقدم الوعي ويستحدث تجريدات (abstractions) للمتنوعات في حالة وجود الفوضى في الطبيعة، والتي يمكن إخضاعها لتصنيف وحصرها بمفهوم معين، ومنحها تسمية، وذلك لسهولة الاستدلال إليها كنوع، ومن ثم التعامل معه. فمثلاً مفهوم شجرة وتسميتها، التي هي في واقعها شجرة عينية بين الكم الكبير من الأشجار، ينظر إليها في الذاكرة بكونها تسمية عمومية لشيء عيني ضمن صنف من الأشياء.

إن الحس بوجود التشابه المطرد في الأشياء الطبيعية يبنّي على المعرفة المتراكمة لخصائص المادة للتكوينات المتشابهة التي تتكون منها مادة الظواهر، سواء بصيغتها الجامدة مثل المطر، أو الحي مثل الشجرة. أي تبنّي هذه الاطرادات والمتشابهات لخصائص المادة، من غير أن يكون لها وعي أو هدف في استحداث هذا التشابه، إلا في حالاتها الفيزيولوجية الحية، حيث يتضمن تكوين الشكل هدفاً لاوعياً يسعى إلى إدامة البدن، وهذا بهدف تحقيق نقل الجينات وإدامتها عن طريق التكاثر.

الصورة الرقم (٢-٦)

كنيسة كاتدرائية ميلانو في لومبارديا في شمال إيطاليا - عمارة قوطية



يختلف الأمر في مجال الإنتاج، حيث يتضمن أي تفعيل، في سيرورات تحويل المادة الخام إلى شكل المصنّع، في مختلف صيغه الميكريّة، وعي المصنّع بوجوده، وبعلاقة التعامل مع هذا المصنّع بكيان وجود الذات. وهو وعي فعال في إدامة هذا الوجود عن طريق استحداث المصنّع كأداة لهذا الغرض. ولذا يتضمن التصنيع، إضافة إلى خصائص المادة التي تفترض التشابه، ذاكرة الفرد والمعرفة التي يتعامل بموجبها، والتي تفترض تشابهاً بين الأشياء، وذلك لتحقيق سهولة الاستدلال بصيغ وطاقات مقتضبة، وطاقات محددة. وهكذا، بقدر ما تكون الحاجات وظروف أداة إرضائها متشابهة، سيحصل اطراد في التعامل مع التصنيع والمصنّع.

و غالباً ما ينبنى تفاعل الوعي المطرد على تفعيل سلوكية استتاجيه بما اصطلح عليها بـ «حيلة التحزر» (guessing games)، بمعنى بقدر ما يكون الترابط الشكلي بين الأشياء المتشابهة ليس بالقدر الواضح، أو المناسب، وغير مستدل إليها بسهولة، يلجأ الفكر إلى تسخير ما اصطلح عليه بقدرات «حيلة التحزر». يتضمن هذا التحزر استحداثاً في الوعي والمخيلة بتشابه مقارب لشكليات الأشياء، وبذلك يتمكن من التعرف إليها، بهدف تسهيل مهمة التعامل، باعتبارها أشكالاً تقع ضمن المعرفة السابقة، القائمة في المرجعية والذاكرة.

و حينما تكون صيغة التكرار إعادة الشكل أو النمط (pattern)، فإن الاطراد هو ظهور الشيء والظاهرة بصيغ وحالات متشابهة، بحيث يعتبرها الوعي بكونها ظهوراً متكرراً لما سبق ظهورها، ومشابهاً لها. فمثلاً، تسخر مختلف الكلجريات البشرية صيغة الاطراد باعتبارها أنماطاً وعادات تكرر بهدف التعبير عن دلالات الحاجة الرمزية للتعبير كدلالة الانتماء القبلي، والفتوي، والديني، والطبقي، والقومي. وتمثل هذه بتحديد أيام العطل والمهرجانات والاحتفالات، كما تتمثل بزّي الملابس كدلالات على وظيفة ومقام الفرد في المجتمع، كملابس رجال السلطة، وما يحملون من مؤشرات كالتيجان والعمائم والصولجانات وغيرها. وقد سخر الإنسان منذ القدم تميّط بدنه بهدف الدلالة القبليّة والتفاضل الفتوي، وتمثل هذا باستعمال الوشم والتدبير والختان.

لقد كان تسخير الكلجريات والعلاقات الاجتماعية من الأنماط الواضحة، لأنها تظهر للوعي وللرؤية بوضوح مقابل التنوع اللامحدود والقائم في الطبيعة خاصة، كما في العلاقات الاجتماعية وسلوكيات الفرد العينية المتنوعة.

هذا إضافة إلى أن التنوع اللامنظم يؤدي إلى وهن الوعي و ملله، لأنه يُحمّل جهاز الوعي متابعة أشكال لا تقتزن بوظيفة واضحة لإرضاء حاجة معينة. لذا يقدم الفكر ويستحدث الأنماط في المخيلة ويفرضها على صور أشكال الأشياء التي يتعامل معها في معيشه اليومي. إذًا، هناك ترابط و توازن بين سهولة الرؤية، من جهة، و سهولة تنظيم و تنميط أشكال المصنّعات، من جهة أخرى، حيث يصبح في مقدرة الفرد تفهّم وإعادة تركيب الشكل في المخيلة. و هو تنظيم يُمكن الفرد من تعامله مع الفروع، حيث يقرن شكل الفرع مع تركيب شكل لعموميات قائم في المرجعية، كاقتران لباس القاضي بمقام السلطة القضائية، و أجراس الكنيسة بمواعيد الصلاة. و بهذه الحركة الذهنية، يتمكن الوعي من تعامل عام مع الأشياء المتنوعة التي تقع ضمن التشابه لصنف من العموميات. و بقدر ما تكون إعادة تركيب شكل الأشياء سهلة المنال، ضمن شكل معمم (generalized)، سيتمتع الفرد بقدر مناسب من تنظيم التعامل مع الأشكال المتنوعة و المتشابهة، كتعامل الفرد مع العدد الكبير من أشكال المصنّعات، كتنوع أشكال الكراسي المتنوعة التي يواجهها، فيقدم على إقرانها مع شكل الكرسي المعمم و القائم في المرجعية. و بهذا يتهيأ الطرف الفكري لتعامل عام مناسب مع الكرسي العيني.

ثالثاً: الأنماط و الاتساق في الطبيعة

تستند غالباً قدرة صنف الحيوان على البقاء إلى قدرات أعضائه و تنظيم نفسها لتقوم بوظيفة التغذية، و التكاثر، و التجمّع بجماعات. لذا يتعين أن يظهر تركيب الأشياء التي تتعامل معها في معيشها اليومي، بوضوح مناسب نسبة إليها، و ذلك مقابل خلفية البيئة الشديدة التركيب و التعقيد و التنوع الذي لا يحصى. فالألوان النيرة، و الأنماط المنتظمة لإزهار الزهور، ترسل دلالات واضحة إلى الحشرات التي تقوم بوظيفة التلقيح، كما توظف الألوان النيرة لريش الطيور المتمثلة بذيل الطاووس، و إيقاع أصوات ضربات المنقار المنتظمة التي تلاحظها صغار الطيور. هذه و غيرها تؤلف مركبات منتظمة لصور أشكال الأشياء، حيث تؤلف تكوينات شكلية معمّمة، واضحة الدلالة نسبة إلى الحيوان في معيشه العيني.

الصورة الرقم (٢-٧) أهرامات الجيزة في مصر



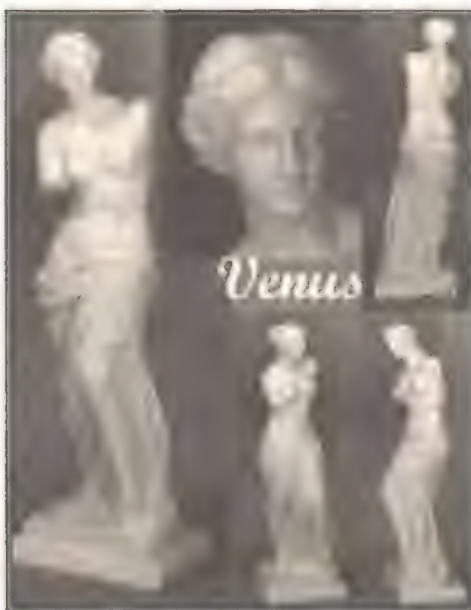
لذا نجد أن عالم الحيوان يقدم و ينتج أنماطاً في التكوين الشكلي لأبدانه، والتي تسخر كدلالات لتحقيق الاتصال في ما بينها، أو تحذير الآخر من الاقتراب منها. فذكر «طير العريشة» يصنع مسرحاً لعرض قدراته التصميمية، حيث يسخر شكل العريش ودقة تصميمه لعرض هذه القدرات بهدف مغازلة الأنثى، وإقناعها بأنه يتمتع بقدرات تنظيم و تزويج، الأمر الذي يدل على ذكاء وصحة جيدة. فيقدم على بناء العريشة، من أغصان يقطعها، ويزوقها بأزهار ملونة بحسب نمط واضح، و طراز معتمد من قبل الجماعة لذلك الصنف (species). ولذا يتمتع بموقع معرفي في مرجعية الأنثى. و يحقق هذا النمط عن طريق جمع أشياء متعددة ذات ألوان مختلفة، و من بينها أحجار و مصنعات يجدها قرب المدن، و محار من السواحل، فيقدم على تنظيمها بين الأزهار. كما إنه يقوم بإعادة تنظيمها بين الحين و الآخر، بحسب أنماط تكوينية و ألوان يتفرد بها، حتى يحصل على إقناع الأنثى بقدراته الصحية و المعرفية. في هذا يقوم «طير العريشة» باستحداث بيئة مصنعة منتظمة ضمن عالم الطبيعة المتصف بالفوضوي، و بهذا النظام يمايز نفسه. و في المقابل، نجد في شكل البعض من الفراشات رسوماً تحمل أشكالاً لعيون و همة مخيفة، هدفها تحذير الطيور المفترسة بأنها، أي هذه الفراشة العينية، حيوان مؤذ، و ربما سام، و بهذا تتجنب الافتراس. و تنبني الكثير من العلاقات بين الحيوانات على أشكال تتميز بها أعضاؤها، حيث توظف بدلالات القوى، و الصحة، و قدرات تتميز بها من غيرها.

و نجد في عالم النبات العضوي مركبات تتجمع بانتظام، و تكون في مجموعات أكبر، أي تنتظم بحسب ترتيب تراتبي، حيث تتجمع الوحدات و المركبات، و تتلاءم ضمن

تكوينها الشكلي، وتكوّن تركيباً موحداً. يتمثل هذا في حبات الرمان وقولحة عرنوس الذرة. ومن الملاحظ أن شكل زهرة «دوار الشمس» يتضمن نمط حلزوني: أحدهما يدور باتجاه عقرب الساعة، والآخر ضد اتجاه عقرب الساعة. إن عدد الحبات في اتجاه عقرب الساعة هي ٢١ أو ٣٤، وفي الاتجاه المعاكس هي ٣٤ أو ٥٥، وهذه أرقام تتطابق مع سلسلة الأرقام في المنظومة الرياضية العددية، ال فيبوناتشي (Fibonacci numbers). وكثير من تنظيم تكوينات الزهور تتطابق مع هذه السلسلة الرياضية، كما أن موقع الأوراق على ساق الكثير من النباتات تكون كذلك في دورة بصيغة حلزونية مع حاصل (quotient) المصطلح عليه بـ «تشعب النبات» (divergence of the plant)، والذي يتنظم أيضاً بحسب التسلسل الرياضي الفيوناتشي، وبحسب نسب ما يصطلح عليها عادة بالمقطع الذهبي.

الصورة الرقم (٢-٨)

تمثال فينوس دي ميلو - براكستيليس (Praxiteles)



تتصف كل من هذه التكوينات في شكلية الحيوان والنبات بصفة الأبتمال. ومن دون هذه الصفة لا يحقق الكيان القدرة على البقاء، فيستبدل موقعه في الوجود بعضويات

أخرى، التي تكيف نفسها و تظهر للوجود، بحيث يكتسب تكوين بدنها بقدر مناسب من صفة الأبتمال.

رابعاً: العادة و النظام و الاستقرار

بقدر ما يكرر الفرد تعاملاتاً ما مجدداً، يكون قد اقتصد في استنفاد طاقة فكرية و بدنية. و بهذا يكون تجنب الخوض في مخاطرة تجربة جديدة لا يعلم مسبقاً مدى صلاحيتها و نتائجها. و لذا تؤلف سلوكيات العادة و التكرار، و ما يقترن بها من كسل و تريث، منحى متأسلاً في سلوكيات الإنسان. و هنا مصدر أهمية النظام، و الاستمرارية، و التوق إلى الاستقرار.

و حينما تكون الأشياء في حالة تغير و تنوع، و حيث ترتبك قدرة التنبؤ لتنظيم المعيش اليومي، يبرز منحى سيكولوجية التوق إلى الاستقرار الذي يؤمن تعاملاتاً يسخر المرجعية القائمة و المجربة و المعروفة، و التي لا تتضمن المجهول و المخاطرة. و قد انبنى على هذا المنحى المتأصل في سيكولوجية المعيش التقليدي، ظهور ظروف طرز مستقرة تمتد في الزمن، و تقترن مع طرز معيش هي ذاتها مستقرة. و هكذا تحققت الحضارات الكبيرة، كالمصرية و الأكديّة و الإغريقية و الإسلامية/الخلافة، كطرز مستقرة نسبياً، تعبر عن قدراتها المعرفية و الوجدانية.

الصورة الرقم (٢-٩)

حدائق قصر الحمراء



مع ذلك، تتناقض مناحي النظام والاستقرار مع تلك التي تسعى وراء التغيير والمخاطرة والتنوع والتجديد، وكلاهما متأصل في تكوين وعي الإنسان الوجودي من البقاء. لذا هناك تباين في الموقف من التطور الحضاري وظهور الطرز المعمارية الكبيرة. فهناك منحى تبنّاه أدولف غوللر (Adolf Goller) الذي جاء بمفهوم «الوهن المعماري»، حيث يقول: هناك تأصل في سيكولوجية الحضارات يتضمن محفز التوق إلى تغيير الشكل والانتقال إلى طرز أخرى. وقد خالف هذا الرأي هـنريخ ولفلن (Heinrich Wofflin) الذي يبين أن التوق إلى التغيير لا يؤلف منحى عاماً، إذ إن هناك طرزاً اقترنت بحضارات عظيمة، ولم تتغير إلا قليلاً في الزمن. فمثلاً، أظهر المصريون القدماء أنهم لم يساموا من استمرار التكوينات الشكلية للطرز المعتمدة لفترة طويلة، كما هو الأمر مع الحضارات القديمة الأخرى التي اتسمت مصنّعاتها بأشكال و طرز حافظت عليها، وعبرت عن استمرارها واستقرارها لعدة قرون من الزمن.

الصورة الرقم (٢ - ١٠)
رودان Auguste Rodin، القبلّة



إذاً، ما هي الآلية التي جعلت من الممكن لمجتمع ما أو حضارة أن تبتكر، أو تتجاوز، المنحى الطبيعي نحو التنوع؟ الجواب لهذا هو ربما أن هناك العديد من العوامل التي تجعل هذا ممكناً، ومنها الناحية الاقتصادية. ولكن هذه الناحية لا تبرر واقع تجاوز منحى التوق إلى التنوع، أو أنها تلغي هذا المنحى المتأصل في تكوين سيكولوجية الإنسان. فالتوق إلى التنوع لا يلغي منحى اعتماد طراز أو شكل والاستقرار معه. إنما في حالة مثل هذه، وهي اعتماد طراز والاستقرار معه لمدة طويلة، ينقل مركزية التنوع من الشكل إلى التنوع في الموقف السيكلوجي من الشيء، أي يحصل التنوع في الموقف الرمزي من الشيء، في كيفية إرضاء هذه

الحاجة: هل عن طريق تنوع المصنّعات، أم عن طريق طقوس، حيث تنوع سيكولوجية موقف الفرد عند ممارستها الطقوس؟

في حالة مثل هذه يحصل التنوع في المخيلة. وهو تنوع أشبه بموقف العاشق من المعشوق، أو العاشقين أحدهما نحو الآخر. فالمخيلة هي التي تقوم بوظيفة التنوع. وحينما يحصل هذا النوع من التنوع في المخيلة، وبقدر ما يقترون بطقس، يصبح سيكولوجية التعلق بالشيء حالة تداخل بين الشكل وموقف الفرد من الطقس، ودوره في ممارسة إجراءاته، وابتكار تنوعه، واستمتاعه به، وما يؤلف فحوى الطقس في مخيلة الفرد من دعم لهويته، خاصة إذا كان الطقس يخصّ دعم الوجود عامة، كافتراضه بالسلطة والقوى الإلهية، وقديسين وأئمة، وكلها يدعم هذا الوجود.

إذاً، ما زالت مخيلة الفرد أو الجماعة تعتبر هويتها مدعمة، من قبل قوى تتجسد في مصنع، سواء أكان تمثالاً لآلهة، أم كنيسة، أم مرقد قديس، أم مسجداً، أم مرقد إمام، فيتنوع شكل هذا المصنّع في مخيلة الفرد مع كل زيارة، خاصة إذا اقترنت الزيارة مع الطقس الذي يتنوع في المخيلة بسبب ممارسة الطقس من قبل المخيلة ذاتها. وبقدر ما يكون الطقس عاماً ومركباً، يتضمن بهذا القدر تنوعاً في إجراءاته، فيصبح أداة لتنوع رؤية المخيلة لأداة الرمز، كالآلهة، وتبعاً شكلية المصنّع، والمعبود. وهكذا يبني توق التنوع المقترن بطقس على رغبة فعالة في إعادة تحقيق التعامل مع المعالم والحفاظ عليها، واستقرارها، بدلاً من إثارات جديدة، تتطلب إعادة صياغة صورة أداة الرمز في المخيلة والموقف نحوها. ويحصل هذا خاصة في الكليجريات التي تسخر الطقوس في تعاملها مع المصنّعات، سواء كانت معابد أو قصوراً أو كرسي السلطة مثلاً. وفي حالة مثل هذه لا تكون المخيلة منهتة لتغيير المصنّع، أو نبذه. إنها حالة أشبه بما أشرنا إليه في مفهوم الولع كإحدى الآليات لتحقيق إرضاء الحاجة الاستيطيقية. وحينما يكون في تلك الحالة هدف التعامل هو إرضاء الحاجة الاستيطيقية، يصبح الهدف هنا إرضاء الحاجة الرمزية، في تناقض مع هدف الاستيطيقية، أو ربما أدق، تخفيف إرضاء حاجة على حساب حاجة أخرى. هذه الظاهرة تفسر لنا، في الوقت عينه، سبب منحنى التغيير في المجتمعات المعاصرة.

خامساً: التكوين الشكلي المركب

يظهر أو يصنع التكوين الشكلي في الظواهر الطبيعية أو شكليات المصنّعات بحالتين، وما يجمع بينهما. تبني الحالة الأولى على معالم تظهر بصيغة متسلسلة، أي متكررة ومتعاقبة وتتضمن مفهوم حركة باتجاه معين، موجّه، أو تظهر المعالم متقطعة، غير مرتبطة، لا تتضمن حركة في اتجاه معين، وتظهر مستقرة.

تؤدي إعادة استعمال الشكل بصيغته المبسطة إلى التكرار، ويظهر بكونه متسلسلاً، خاصة إذا لم يتضمن توقفاً وتعاقباً عكسياً. فمثلاً، يمكن استبيان سلسلة من النقاط في مستوى خط مستقيم بسهولة، من أنها تكون منتظمة بخط منحني أو بزوايا، ويمكن استبيان أحياز منتظمة مطردة ومتعاقبة برؤية أسهل لو كانت غير اطرادية. تستند هذه الرؤية، كتفهم للتكوين الشكلي أو استحدثاته إلى آلية «نظام البساطة» (laws of simplicity)، حيث تسخر لتحقيق سهولة التعرف وفهم الشكل. ولكن هذه البساطة يمكن أن تقود إلى الملل، حيث ما إن يتم تحديد سر تسلسل النقاط المنتظمة، حتى تكون عبارة عن تكرار رتيب، ولذا لا تثير ما هو جديد نسبة إلى الرؤية.

فمثلاً، لو أخذنا تعاقب تسلسل مؤشرات، أو معالم، تتكرر، ومكونة من نجوم (*)، و حرفاً واحداً مثل: ق، فيمكن أن يكون تركيبها، بحسب تسلسل متنوع:

٣،٥،١- * ق * ق * ق - لا يتضمن هذا التسلسل أداة ضبط، فيصبح التعامل مع الشكل قلقاً لأنه غير محدد، ورتيباً بسبب التكرار اللامتنوع.

٣،٥،٢- أو يكون التسلسل أكثر تركيبياً، ولكنه كذلك يؤلف سلسلة متلاشية:

* ق * ق - * ق * ق - * ق * ق * ق - وبالرغم من التكوين المركب لهذا التسلسل، فالرؤية نكتشف بسرعة بأنه نمط متكرر ورتيب. ولا نحتاج أكثر من تأمل بسيط وسريع لكي نكتشف في هذه العلاقات معالم في تسلسل متلاشي، ولذا تكون مملة.

٣،٥،٣- ولكن إذا أعدنا التسلسل وعكسنا التعاقب، سنلاحظ في الحال الطابع الاطرادي في تكوين العلاقات، حيث يصبح سمترياً (symmetry) ومستقراً، وأكثر تشويقاً:

*** ق * ق - * ق * ق - * ق * ق * ق - بسبب التكوين المركب لهذا التسلسل يظهر أكثر تشويقاً بقدر ما يتضمن من مركبات ومتنوعات في تكوينه.

كما أن في هذه السلسلة المتضمنة السمترية نهج لنا معرفة القسم الأول صورة للقسم الثاني في التسلسل. في هذا السمترية توقف وانتظار، وشوق إلى المرحلة اللاحقة في التكوين. هذا إضافة إلى استقرار الحاصل بسبب التوازن في التكوين. لهذا السبب يوسع تلقائياً التكوين السمترية مجال الرؤية، حيث الرؤية الأولى تدعم الثانية المتوقعة.

وهنا مصدر السرور والراحة، أي راحة الاستقرار واليقينية، حين التعامل مع السمثري، والتكوينات المتسلسلة المركبة والمتوازنة.

إن التعامل مع تكوين لشكل متسلسل، أي الذي يشير إلى اتجاه موجة، سيجعلنا نتوقع حركة تمتد باتجاه حركة المتسلسل. وإذا كان التسلسل غير متوازن، لا يتوقف، سيصبح استكمال التسلسل غير واضح، لأن الرؤية لا تجد ما يمكن أن تتخيله، أو ما نتوقع أن تنتقل إليه، فتجد نفسها في حالة مواجهة غير قابلة للفك، ومثال لطيف على حالة من تكوينات منظمة وموجهة لما لا نهاية، ولذا يحصل إطناب بعد تعامل محدد معها. ففي عام ١٨١٩ نشر العالم الاسكتلندي ديفيد بربوستر (David Brewster) أطروحته حول المشكال/ الكالدسكوب (Kaleidoscope)، يصف فيها اختراعه الذي حققه في العام السابق. يتكون هذا الاختراع من استقطاب الضياء، بواسطة مرآيا متعددة ينظمها في زوايا مختلفة. وبعد أن وجد علاقات للمرايا من موقع لثقب نظر محدد، يتحقق مشهد نسبة للناظر منه، يتألف من أنماط من تشكيلات سمثرية ملونة بتركيب سمثري، شديد التركيب. فأقدم على تسجيل براءة الاختراع، الذي أطلق عليه اسم «الناطور لصورة جميلة»، أي الكالدسكوب في اليونانية.

لا شك في أن هناك ابتهاجاً، أو سروراً، عند النظر إلى التنظيم المستقر السمثري للتشكيلات التي تعرض في هذا الكالدسكوب، حيث تظهر تركيبات بأشكال هندسية سمثرية متعددة، وبألوان متعددة، ومع كل حركة في تنظيم علاقات المرايا. ولأنها منظمة في علاقات سمثرية محضة، تجعل الناظر، للوهلة الأولى، أمام نمط واضح مسرّ، وذلك لأن مركبات التكوين الشكلي سهلة الإدراك، فالناظر ينظر إلى نظام سمثري محض و صارم، هذا بالرغم من تغير التشكيلة مع كل حركة للكالدسكوب، فيحصل تنوع لامتناهٍ بسبب علاقات زوايا الزجاجيات الملونة فيه. ولكن هذا التنوع اللامتناهي يخضع لنظام واحد واضح سهل فكّه.

وهنا مصدر الراحة في النظر إليه، وكذلك مصدر تفهم بسرعة التكوين الشكلي والنظام الذي ينبنى عليه. وهو كذلك مصدر الملل منه في الوقت عينه. ويحصل هذا الملل، بعد وهلة قصيرة، بالرغم من ما تقدم إلينا هذه الآلة من مفاجأة كلما نقوم بتدويرها، واستحداث تركيب جديد لألوانها، لأنه ما إن يتكرر النظر فيها مرتين أو ثلاثاً، حتى تكون المخيلة قد تفهمت نظامها، وأصبحت عندها معرفة مستقرة في المرجعية، تتكرر، وتبعاً ستفتقد الرؤية توقعات لمركبات مستقبلية تتطلب التأمل والفك. إضافة إلى هذا، فإن الشكليات التي تستحدثها آلة الكالدسكوب لا تمتد معانيها إلى الحاجتين

الأخرين، بمعنى، تنحصر وظيفة الرؤية هنا في استطبيقية لتكوين شكلي مجرد عن الواقع. ولذا تفتقر هذه الأشكال إلى إرضاء متطلبات الحاجتين الآخرين، أي تخلو من الرسالة التي يدونها الحرفي والمصمم في المصنّعات التي يستحدثها الإنسان. إنها تكوينات حصيلة لبدعة ذكية، كأداة تسلية بسيطة، خالية من العاطفة الإنسانية.

الصورة الرقم (٢-١١)

الكالديسكوب



سادساً: ضبط التكوين الشكلي

إن الهدف من التكوين الشكلي المتضمن التنوع لا يكمن فيه، وإنما في نشوة الوجود، أي خارجه، في طمأننة المخيلة، وهو راحة هذه المخيلة من الملل، ومنحها مجالاً لنشوة الوجود، بمعنى أن الوظيفة الأساسية للتكوين الشكلي هي عرض المعالم للفرد، ومعرفة وحس متنوع، حيث ستؤلف عند التعامل معها، أداة سيكولوجية وظيفتها راحة النفس ومخيلتها من ملل الوجود، كما أنها تهين ظرف تعامل يحقق نشوة الوجود.

ولذا، إن سبب هذا التكوين الشكلي للمصنّع إرباك للفكر، أو عجز عن إرضاء الحاجة إلى التنوع وتفادي الملل، فيكون فقد وظيفته الأساسية. ولكن تلهف المخيلة، وتوقها إلى التنوع، قد ينفلت ويتقل من تنوع متوازن إلى فوضى توهن المخيلة ذاتها. لذا

يتعين أن يضبط التنوع في تكوين شكلي مؤطر و منمّط يتصف بقدر مناسب من صفة الأبتمال.

سابعاً: التنميط

لكي يصبح التكوين الشكلي واضحاً ومريحاً للمخيلة ويطمئنّها، يتعيّن أن يكون تنظيم المعالم المتنوعة التي يحملها شكل المصنّع كتركيب بموجب أنماط واضحة، وأن تُضبط و تنظّم علاقات الأنماط المستحدثة بالصفة الأبتمالية. إن وظيفة ضبط الأنماط بعلاقات مبتملة تجعل سيرورة التعامل مع التكوين الشكلي المتنوع لا يستنفد عند التعامل معه طاقة فكرية غير مبرّرة، أي، بقدر ما يتضمن التكوين الشكلي تنميطاً واضحاً، محتمل الفك، يخفف من كمّ الطاقة الفكرية المستنفدة خارج التعامل المبتمل المناسب. بمعنى، أن التنميط وضبطه يسهّلان تفهم التكوين الشكلي. إن ضبط التنوع، سواء أكان منمّطاً أم متسلسلاً، يؤلف حاجة بيولوجية طبيعية، تطورت مع تطور تكوين دماغ البشر. وهي حاجة ضرورية أشبه بما يقوم به الدماغ عندما يواجه تعدد مفردات الظواهر، فيقدم في آنية المواجهة على اختزالها بمقولات (categories) وعموميات. وإلا عجز الفكر، من غير هذه الآلية العصبية التي تأصلت في الدماغ المعين، عن التعامل مع الظواهر الطبيعية. بمعنى، من غير هذا التنميط (pattern) وضبطه سيفلت التنوع في التكوين الشكلي، وتبعاً تفلت صورة العلاقات في المخيلة بين الأشكال المتعددة والمتنوعة التي تؤلف تكوين الشكل، الأمر الذي يؤدي إلى إرباك الرؤية والفكر، ويعرّض الوجود للخطر. لذا، من الأهمية ضبط التنوع في التكوين الشكلي.

وهنا يكمن مصدر أهمية الضبط عن طريق التنميط المنظم بعلاقات يتعيّن أن تكون هي ذاتها مبتملة. وبقدر ما تتحقق الصفة الأبتمالية لهذه العلاقات في التنميط، ستهباً للرؤية مجال متعة في التعامل مع المصنّع المعين. خلافاً لهذا، أو إن عجزت علاقات أنماط التكوين عن تحقيق الصفة الأبتمالية في ما بينها، سيفسد التعامل، ويرتّب الحسّ البصري، وتبعاً الفكري، كموقف من الوجود.

لذا يتعيّن إخضاع علاقات التكوين الشكلي للمعالم المتنوعة المحمّلة على المصنّع، سواء أكانت تزييناً أم زخرفة، لضبط التكوين، بحيث يجعلها أنماطاً واضحة. بمعنى يتعيّن أن ينظّم التنوع ضمن التكوين الشكلي بأنماط بصرية يكون استيعابها سهلاً أو محتملاً من قبل المخيلة المتلقية. إنها القدرة على اختزال تنوع التكوين الشكلي للمصنّع بموجب أنماط. والخلاصة: إن وظيفة التنميط هي ضبط فوضى التنوع.



و سنفهم أهمية التنظيم في التعامل الفكري مع الظواهر إذا أشرنا إلى بعض من آليات التعامل مع الظواهر الطبيعية والاجتماعية، إضافة إلى المصنّعات. ومع نمو دماغ الإنسان ونضوجه، أخذ يعي إشكالية البقاء، أي الوجود والزوال. فأخذ ينمط علاقات أشكال الظواهر والأشياء التي يتعامل معها في معيشه اليومي. ولم يحصل هذا النمو وتنشّته في الدماغ فجأة، وإنما امتداداً لقدرات يتمتع بها الحيوان. نمت هذه القدرات لدى الأساسيات، وحصل فيها نقلة نوعية مع ظهور الإنسانيات، ومن ثم مع ظهور الإنسان العاقل.

و التنظيم عند الإنسان هو رؤية التعدد القائم في الوجود، كتعدد الأشجار في الغابة، وأشكال الغيوم، وتعدد أصوات الطيور في الفجر، وفوضى التعدد القائم في مختلف الظواهر الطبيعية، حيث يقدم الفكر ويؤلف رؤية مبسطة، بدلالة واضحة، سريعة الفهم، فتظهر الأشياء في الدماغ كما لو كانت نمطاً واضحاً في تركيبه الشكلي. ولكن هذه صورة ليست بالضرورة متطابقة مع الواقع. المهم في هذه الرؤية هو تحقيق صورة سريعة ليتمكن الفرد من تشخيص الحالة التي يجابهها، فيتمكن من التعامل معها بالسرعة

والحركة المناسبة، وإلا من غير هذا لعجز عن التعامل، ولعجز عن قدرة البقاء، أي يحقق الدماغ في آنية التعامل مع التعدد الفوضوي القائم في العالم للفرد العيني، صورة واضحة تتوافق مع الواقع، بالقدر الذي تؤمن له تعاملاً مجدياً لتأمين البقاء.

بمعنى آخر، إن استحداث صورة نمطية للموجودات هو ضرورة طبيعية يتمتع بها كل كيان حيّ ليتمكن من تحديد نوع التعامل مع عالمه الخارجي. فالنمط المستحدث في مخيلته ما هو إلا دليل شكلي تستحدثه المخيلة بهدف تحقيق تعامل أني بكفاءة مناسبة ليتمكن من تأمين البقاء.

وهكذا أخذ الإنسان ينمط أشكال الموجودات تلك التي يمتلك ويستورث لها استراتيجيات بيولوجية للتعامل معها، وكذلك ينمط أشكال تلك المستجذات التي يستحدثها من مصنّعات وعلاقات اجتماعية وظواهر طبيعية أخذ يتعرض لها في تجواله المتوسع على سطح الأرض. فأخذ ينمط بموجب معرفة تجريبية وحسية أنواع الأشجار والحيوانات التي يتعامل معها، ومختلف الظواهر الطبيعية، ويمنحها أسماء وتعاريف. وهو كذلك نسبة إلى الفوضى القائمة في التقلبات الجوية، والصور التي لا تحصى من نجوم الليل التي يشاهدها بالعين المجردة. كما أخذ ينمط ما يتعين أن يأكل وما لا يأكل، وما يلبس وما لا يتعين أن يلبس، من هو مقدس ومن هو مدنس، أي من عليه أن يعبد ومن لا يعبد، ويتعين أن ينبذ، من يجامع ومن لا يجامع في علاقاته الجنسية بهدف التكاثر. وهكذا نمط مختلف سلوكيات التعامل مع الوجود.

لقد انتظم هذا التنييط لصور الموجودات، كأني تعامل مع الوجود بثلاث مقولات تتوافق مع الحاجات الثلاث:

١ - التنييط النفعي

يحدّد به مواقع الأشياء و حركاتها و كمّتها و نوعها، وبهذا يستحدث تعاملاً ليؤمن لنفسه تعاملاً يرضي به الحاجة النفعية، أي تأمين الملجأ والطعام وظرف التكاثر والدفاع ضد المفترس والعدو، وغيرها من متطلبات الحاجة النفعية.

٢ - التنييط الرمزي

يحدّد بموجه موقعه في العائلة والقبيلة، وموقعه نسبة إلى الغريب والآخر. وعن طريق هذا التنييط يحدّد موقع هويته بين الأشياء والعلاقات الاجتماعية، لا موقعه نسبة إلى رئيس القبيلة والقرية فحسب، بل كذلك لموقعه نسبة إلى النجوم، و طلوع

الشمس اليومي، وفيضان النهر، والآفات الزراعية، والغزو الخارجي. فقد أسس صوراً واضحة لكيفية التعامل معها، وهي تتمثل بالسحر والتنجيم، فأخذ ينمط وقائع الأحداث، وأشكال الظواهر، كالأنهر والغابات والعواصف وغيرها. واستحدث لنفسه علاقة واضحة معها تمثلت باستحداثه قوى الأرواح، خارج واقعية الوجود الدنيوي، متمثلة بالأساطير والآلهة التي تمثل قوى الظواهر. فابتكر إلهاً لكل من الظواهر؛ إله المطر، وإله الشمس، وإله الحب، وإله المتعة. وحدد موقفه نحو كل منها بموجب نمط معرفي وسلوكي استحدثه لهذا الغرض، وهو مدعم بطقوس يتكرها لكل مناسبة، ويلتزم بها.

٣- التنميط الاستطريقي

يحدد به كيفية التعامل مع التنوع الذي يحققه في تكوين شكل المصنعات، حيث يخضع التنوع لآليات ضبط وأصول ونهج، وبهذا يتمكن من تحقيق الأبتمال في تصنيعها، وتبعاً الاستمتاع بتلك المنوعات التي يستحدثها.

ثامناً: الازدواجية

يؤلف مفهوم «الالتباس» ضمن آليات إرضاء الحاجة الاستطيقية مفهوماً يوضح لنا كيفية تفهم مختلف العلاقات بين الصعد المتعددة في الشكل المركب والشديد التعقيد. لذا، بالنظر إلى أهمية هذا المفهوم، سيكون من المفيد أن نشير باختصار إلى معاني مفاهيم مقترية أو مقترنة أو متشابهة بالالتباس، تسخر عادة كمصطلحات في التعبير عن الشكل المركب. وهذا ما يساعدنا على تمييز مصطلح «الالتباس» بصيغة أوضح من تلك الأخرى، مثل الازدواجية والغموض والمراوغة والمتكافؤ.

ويقول نيتشه^(١)، في مفهوم «الازدواجية»: إن حالة الإنسان متأصلة في ازدواجيتها، أي يعرض الفرد الإنسان نفسه لـ «عواطف متناقضة أو مواقف سيكولوجية، متذبذبة باستمرار». ويعتبر فرويد، أن الازدواجية متأصلة في التجربة الإنسانية، وذلك بسبب الكلجريات التي يستحدثها المجتمع، وتكون عملياً غير قابلة لتمييزها من تلك الموروثة

(١) Friedrich Nietzsche, *The Will to Power* (London: Vintage Books, 1968).

فريدريخ فيلهيلم نيتشه (١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٤ - ٢٥ آب/أغسطس ١٩٠٠)، هو فيلسوف وشاعر ألماني من أبرز المهّدين لعلم النفس وعالم لغويات متميز. كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول المبادئ الأخلاقية والنفسية والفلسفة المعاصرة المادية منها والثالية الألمانية. وكتب عن الرومانسية الألمانية والحداثة أيضاً.

بيولوجياً. ونسبة إلى زيمل^(٢)، يتوافق مفهوم «الازدواجية»، مع مفاهيم الاستقطاب والتناقض الكامل، والثنائيات^(٣)، حيث تكتمن هذه المفاهيم في قلب تنظيم الوجود الاجتماعي.

ويعتبر جورج ميد^(٤) أن التعامل مع تعدد العلاقات الاجتماعية لا يُحصى، وبقدر ما تكون هذه متغيرة في طرق المعيش والمفاضلات الاجتماعية، ستؤدي إلى أن يشعر الفرد بازدواجية الوجود. كما أن في علاقات البروز الاجتماعي والسيطرة، ستكون النفس (Self, psyche) هي التي تشعر وتحسّ وتقرر المواقف المتعددة المتباينة. ويحصل هذا ضمن تعامل داخلي للنفس، باعتبارها شيئاً آخر داخل ذاتها. فما يحصل عادة في هذا التعامل، داخل النفس، هو حوار داخلي متعدد الأصوات، الذي من خلاله يحصل التأمل، وتقييم الأفعال، أو ظهور فكرة، أو خطة، أو رغبة للنفس، وغيرها من العواطف والمحفزات والانجذابات التي تمارسها مخيلة النفس.

وتعكس هذه الأصوات ازدواجيات وجدانيات مختلفة، ومعايير متباينة، وقيم تنبني من خلال مختلف مجالات التجربة الكلجية التي تتعرض لها النفس. فالأصوات الداخلية لا بد من أن تتصادم، أو على الأقل تتكلم من غير وعي واضح نسبة إلى غيرها من الأصوات. فيكون سؤال النفس لذاتها: من الذي يتعين أن يهمني من بين الناس، أو أفضيه؟ وتبعاً، من سيكون من المحتمل أن أزعجه أو أضايقه؟ وما هي نتائج أن أكون هذا الشخص ضد ذلك الشخص الآخر؟ وهل هذه الصورة التي أعتقد بأنني أرسلها عن نفسي، لكي تعبر عن واقع حقيقة داخلية النفس، أو أنني أقدم صيغة خداعة؟ وهل أنا أُرغب في أن أخفي أم أفشي الواقع؟ وإلى آخره من الاحتمالات التي تفصح، أو تعبر عن تلك الأصوات الداخلية. فكلنا واعون بهذه الذبذبات في الموقف من الوجود،

(٢) عرف جورج زيمل (Georg Simmel) كعالم اجتماع المنظور الأصغر، ولعب دوراً مهماً في دراسات المجموعات الصغرى مثل التفاعلية الرمزية ونظرية التبادل.

(٣) الثنائية (dualism)، مبدأ يقول إن هناك فقط حالتين أو مبدئين: كالعقل والجسد، والشر والخير، والجنة والنار. (٤) جورج هربرت ميد (George Mead)، من أشهر علماء الاجتماع الأمريكيين ومن أهم الرواد المؤسسين في الاتجاه التفاعلي الرمزي، وُلِدَ عام ١٨٦٣ في ماساتشوستس، وتعلّم في كلية إربلن ثم في جامعات هارفرد، ليزنج وبرلين، تأثر بأفكار «ديوي» و«زيمل» و«وليم جيس» وقدم بحوثاً عنها. ركز في أبحاثه على فهم التفاعل المتبادل والذات الاجتماعية داخل المجتمع، حيث يمكن اختبار أعلى مستويات التصنيع والتحضّر ونزعات الإصلاح والترعة العلمية والمثالية. وقد ساهم هربرت في وضع المبادئ والأفكار الأساسية للنظرية التفاعلية الرمزية من خلال دراسته للذات كما يقيمها الفرد والذات كما يقيمها الآخرون. ويعتقد «ميد» أن الذات في المجتمع هي حسيّة تفاعل عاملين: العامل النفسي الذي يعبر عن خصوصية الفرد وشخصيته، والعامل الاجتماعي الذي يحدّ مؤثرات البناء الاجتماعي المحيطة بالفرد.

ونحس بأن لا راحة تحصل بسبب اللايقينات التي تتعرض لها الهوية التي تثار في داخل النفس. وبهذا القدر يحصل احتمال حصول الازدواجية في صورة الوعي بالوجود^(٥).

الصورة الرقم (٢- ١٣)

Carlo Scarpa - Brion - Vega Cemetery



إذاً، يمكن تعريف الازدواجية على أنها ثنائية حول شيء ما، وغالباً يكون ذلك الشيء حالة اجتماعية، أو محصلاتها: مصنع، فكرة، معتقد، صورة، تجربة، هدف، وغيرها من الموجودات التي تحمل معاني. إنها تؤلف مفهوماً مزدوجاً نسخره في تحقيق إيصال عن طريق إيمانيات (gestures) وسمات، وتزين، ومؤشرات، وشعارات، للتعبير عن تفهما المزدوج للوجود، وهذا التعدد في استحداث الازدواجيات يميز صور الإنسان لبيته المعيشة، وقدرات تعامله معها، مقارنة بالحيوان، حيث ظهرت اللغة والمؤشرات المركبة في المرجعية المعرفية لدى الإنسان، فأخذت الكلجريات تنوعها وتنضجها، وبنت عليها التطور الحضاري^(٦).

وبينما كانت الازدواجيات لدى الأساسيات منحصرة غالبها في الموقف «نحن» و«هم»، وموقف من العوامل الطبيعية، وموقف من الجندر، بهدف تحقيق التجامع الغريزي والتكاثر، فقد توسع مفهوم الازدواجية عند الإنسان ليتضمن الوجود واللاوجود، الحياة والموت. وأصبح الوجود عنده في العالم المعيش يكون في مقابل صيغة أخرى من الوجود، في عالم آخر، مؤخر. وقد عبر الإنسان عن هذه الازدواجيات في اهتمامه بقبور الموتى التي يصنعها، والآلهة التي يبتكرها.

(٥) Fred Davis, *Fashion, Culture, and Identity* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1992), p. 4.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٤.

تاسعاً: الالتباس والغموض

تتضح العلاقة بين الالتباس والغموض في واقعها التاريخي عند مقارنة التعامل بالأشكال المركبة والمعقدة في المجتمع التقليدي مقابل المجتمع المعاصر، حيث نجد في المجتمع التقليدي رقابة واضحة ضد الغموض، وذلك لأن مرجعية كليهما الرؤيوي المبتكر والمتلقي هي ذاتها أو متشابهة، بينما في المجتمع المعاصر، بقدر ما تعدّد المرجعيات، وتختلف دلالاتها نسبة إلى الطرفين في الحوار، الرؤيوي والمتلقي، ستهياً ظروف انفلات الدلالة، وانزلاقها في متاهات الغموض. ويحصل هذا الانفلات في منظومة الحوار الاجتماعي الاستطقي، حيث يتمثل بظاهرة تسرع تغير الطرز، وتعدد الفاشن، قبل أن تهذب تكويناتها وتنضج أشكالها، الأمر الذي يتسبب بظرف إفساد الحوار الاجتماعي الاستطقي، وتبعاً تلوث البيئة الاستطقية.

١- الالتباس

تؤلف حالة الالتباس (Ambiguity) في الموقف من صورة الشكل في المخيلة، أو تجربتنا معها، تصوراً بأن هناك بديلاً للصورة، أو صورة ثانية ضمنية، تكمن في الشكل، ويمكن الوصول إليها، أو هناك احتمال لترجمة ثانية لها. وعن طريق هذا التصور ستهياً للمخيلة متنوعة من مراوغات (equivocations) لطيفة، و مترادفات متقصّدة، ونزوات لعبية.

إذاً، تحصل رؤية الالتباس عند التعامل مع تعادل القيم، وتصبح ملتبسة، لا بازدواجياتها وإنما بسبب تعاقب فكّ شفرات دلالاتها. وفي هذا الترابط بين المعنى الأول والمعنى الثاني، أو المعاني المتعددة اللاحقة، تنتقل المخيلة من الصور الأولى، حيث تهى قدرة النقلة إلى الصورة اللاحقة. وبهذا الانتقال، لا توسع قيمة القطعة الفنية، وتزداد معانيها فحسب، بل ستجعل التلقي سيرورة تتضمن بحثاً واكتشافاً ضمن نشوة الحس بالصفات الأبتمالية التي تتصف بها الصورة المعينة، كما في الأبتماليات التي تتصف بها سيرورة النقلة بين الصور المتعددة.

الملتبس، إذاً، هو ذلك الشكل المركّب الذي يتضمن قيمتين معيّنتين أو أكثر، حيث في الوهلة الأولى، عند التعامل معه، قد نفكّ معنى معيّناً، وفي الوهلة اللاحقة نفكّ أخرى، أو يتضمن الملتبس أكثر من معنى واحد، ويكون المعنى الثاني بديلاً، بالأهمية نفسها أو أكثر أو أقل. وعند التعامل مع المركّب الملتبس، سنعي أن هناك أكثر من معنى،

وسنلتبس أي من المعاني يتعين أن نعتبرها المجدية أو الأكثر أهمية أو التي يتعين اعتمادها.

إن من بين أهم أدوات التنوع هو تنميط الملتبس للتكوين المركّب. وينبغي التنميط المركّب للتكوين الشكلي على تعدد الأنماط التي تظهر في صعد متعددة منظّمة، أو يتحقق فكّها بتعاقب تحقق اكتشافها، وحيث تكون قائمة في طبقات من معاني متعدّدة. فهناك في التكوين الشكلي أنماط واضحة من الوهلة الأولى عند التلقي. وهناك أخرى ضمنية أو بديلة يتعين اكتشافها. بمعنى، يتألف التكوين الشكلي من حالات متعددة في عرض رسالته، المعلوماتية والعاطفية، وذلك في رؤىويات متعاقبة. فيترك لتعامل المتلقي الوصول إلى أولها، وتفهم في الوهلة الأولى تلك الأكثر وضوحاً نسبة إليه. غير أن ما إن تصل مخيلة المتلقي، وتقف على معنى النمط الأول، وتصبح الصورة والمعنى واضحين عنده، حتى يظهر ضمن هذا الوضوح مجال مفتوح لرؤية نمط آخر، في بعد آخر، بعد أن يتحقق اكتشاف البعد أو النمط المكتشف الأول، الأمر الذي يعني أن هناك التباساً في الرؤية الأولى للتكوين عامة، وهو ما سيفري المتلقي لأن يتقدم ويكتشف المعنى المتضمن الآخر، وذلك في سيرورة متصاعدة في تسلسل الالتباس النمطي، أو أعمق من ترتيبات المعنى - ولكن هذا الآخر ليس بالضرورة الأهم، وإنما هو بديل يغني الأول. فالهدف هو استمرار سيرورة تعاقب المخيلة في اكتشافاتها للمعاني المتضمنة، وتبعاً ستستمتع النفس بعوالمها المتعددة المكتشفة.

الصورة الرقم (٢ - ١٤)

الكوربوزية كنيسة رونشون



و يحصل هذا بقدر ما يتضمن تركيب القطعة أنماطاً متعددة تحمل كل منها معاني تتفرّد بها. وعند مواجهة المتلقي لمثل هذا التركيب، تستضطر مخيلته إلى تفعيل ذاتها وقدراتها، لتتمكّن من الانتقال من نمط إلى نمط آخر - وهكذا تكون سيرورة التعامل مع تركيب التكوين البصري والحسي للقطعة الفنية المتميّزة، فيكون هدف الفنان، المرسل، هاهنا، هو جذب مخيلة المتلقي، المرسل إليه، لسيرورات متعاقبة في اكتشاف الأنماط، وتمتعها في كل مرحلة أو دورة من اكتشاف للمعاني والعواطف. وذلك في ربط متسق بينها، كتعدد المثلث في تركيبات المثلث والمسدس في تركيب الرقش الهندسي العربي. بهذا القدر تحمل القطعة معاني أعمق في التعبير عن مخيلة الإنسان و همومه في طمأننة الحاجة المركبة.

و تتعدّد الأنماط وحالات الالتباس المتعاقبة والمركبة في أعمال قادة الفكر البشري. وتمثل هذه الأعمال المتميّزة والمتضمنة تعدد المعاني بتلك، مثل: أعمال رباعيات عمر الخيام، ورباعيات بهو قن، والتكوينات الشكلية المتداخلة في بناية معبد البارثينون في أثينا، وسقف قاعة الاستقبال في قصر الحمراء في الأندلس، ومسرحية هيدا كابلر للمسرحي إيسن، وفي تنظيم الحدائق اليابانية الزينية (Zen)، وسقوف كاتدرائية غلوستر في إنكلترا.

٢ - الغموض

هناك في تحقيق الملتبسات ذات البعدين، أو أكثر، هوة بين إيصال المعاني التي قد تنزلت بها سيرورة الدلالة، وتعطل، أي تنتقل إلى حالة الغموض (vagueness)، بمعنى الغموض الذي يعطل سيرورة تحقيق الدلالة الواضحة، وينقلها إلى درب مسدود. فالغموض يربك المخيلة، ويعطلها عن تعامل مجيد مع تكوين الشكل. لذا بقدر ما يكون الالتباس أحد التكوينات البصرية في إغناء إرضاء الحاجة المركبة، فإن الغموض يفسد قدرة إرضائها.

إذاً، الشكل الغامض إما لا يتضمن معنى، أو تكون فيه دلالة المعنى غير واضحة، وغير قابلة للفك والتعرّف إليها، وإما بسبب عدم كفاءة العرض لبيان المعنى، أو أن الشكل يتضمن أكثر من معنى، بحيث تداخلت بصيغة مرتبكة، وأصبح فكها متعذراً.

لذا ترفض المخيلة في طبيعتها البيولوجية الغموض. فيتعيّن على الفنان أن يعطل سيرورة الالتباس قبل أن تنزلت معاني ودلالات التكوين الشكلي في متاهة الغموض. بمعنى آخر، يتعمّق الفنان المتميّز في استحداث تعاقب معاني متعددة، تؤلف كل منها

مجالاً لمرحلة في غور لمعاني أعمق، أي يدفع المبتكر المتميّز سيرورة ابتكار الالتباس، وتعدد المعاني، إلى حدّه الأقصى، بشرط أن لا ينزلق إلى الغموض، أي يمتلك ذلك الحس، حيث يتوقف عند ذلك الحدّ قبل أن يتحول الالتباس إلى غموض، وفي ذلك الحد الأعلى الفاصل بين الالتباس والغموض، حيث تتحقق الحالة المبتعلة المتقدمة، في تلك الحدود ما قبل انزلاق الشكل في صيغ من الغموض. بمعنى آخر، بقدر ما يكون المبتكر متميّزاً في قدراته على ابتداع التكوينات التي تتضمن الالتباسات المركبة في عدة صعد، يعني، معرفياً وحديساً، أين يتعيّن أن يتوقف، قبل أن يُحمّل المخيلة أكثر من قدراتها الطبيعية، ويربكها. الخلاصة، يؤدي الغموض إلى إرباك الوعي، ولذا يعطل الحوار الذي يرضي دلالات الحاجة المركبة، وينقل الوجود إلى حالة الرفض والارتباك.

وسنّفهم سيرورة تعدد المعاني الملتبسة حينما نقارنها بحالة الغموض. فسيرورة دلالة الشكل الغامض تفتقر إلى قدرة التعرّف إلى معانيها، أو تثبط سيرورة الدلالة قبل أن تظهر المعنى، بينما سيرورة الالتباس هي أشبه بزيارة لمبنى أو حديقة أو قراءة شعر، حيث يحصل التعرّف إلى المعنى الأولي في الصورة المركبة، والاستمتاع بها، أو سيجد المتلقي أبواباً تفتح له ظروفاً جديدة من تلقى معاني أخرى كانت كامنة في غور الدلالة العامة. وما إن يدخلها سيجد عالماً آخر من المعاني، وباباً آخر على عالم أبعد من الدلالات. وهذا تماماً ما نجده من تعاقب للمعاني في رباعيات الخيام، ورباعيات بهووفن، ومركبات تراجيديا يوريديس، وتداخل الأحياز تحت القناطر اللامتناهية في جامع قرطبة، وتعدد أوجه القصة في أدب إيتاليو كالفينو، والأبعاد المتعددة التي نجدها في رسوم ترنر. وربما الالتباس هو ليس إلا مواجهة صور الازدواجيات التي تتعامل معها المخيلة في معيشها اليومي القاعدي النفعي والرمزي، فتتمطّطها، وتهذبها، وتنقلها إلى عالمها الاستطقي. فتستقل الصور ومعها تستقل المخيلة، وتنزّه من هموم الوجود.

تنبني قدرات التعامل مع الالتباس، وتحقيق التكوينات الملتبسة على القدرات الطبيعية التي اكتسبها دماغ الإنسان، بقدر ما تكون قدرات الفرد العيني نمت وتهذبت في تقبلها التعامل مع مركبات معقدة، واتسعت مرجعياتها، وأصبحت تستوعب تنوعاً يمتد إلى صعد متعددة. وذلك في سيرورات الانتقال من نمط ملتبس إلى أنماط ملتبسة أخرى. وحيث تتوقف هذه السيرورة، ويتعطل توسعها الذي تتجه إليه، وذلك في اللحظة أو الموقع المناسب، ضمن التركيب، حينما يشعر المؤدي الرؤيوي بأنه أصبح على أبواب الغموض. فيتوقف قبل أن ينزلق في متاهة عبثية، أي أنه يحمل التكوين الحدّ الأقصى

من حيرة سيرورة الالتباس، ولكنها سيرورة دلالية تضمر قدرات فكّ المعاني المتعددة، والكامنة في التكوين. فتستكمل في سيرورات تحققها قدرات المتلقي، وفي تفاعلها مع الرؤية ودلالاتها المحمّلة على سمات الصنع، حيث يقدم المتلقي بهذا التفاعل ويبتكر بدوره رؤى جديدة عند فكّ الالتباسات في صعداها المتعددة. وكل هذا، بشرط أن لا ينزلق كلاهما، الرؤيوي المرسل والمتلقي المرسل إليه، في متاهة الغموض.

الصورة الرقم (٢-١٥) معبد البارثينون (Parthenon)، أثينا



يوضح لنا الموسيقار موزارت العلاقة الحوارية السليمة بين المبتكر والمتلقي في كتابه إلى والده، حيث يقول الابن إنه ألف قطعة موسيقية تتضمن جمالاً وتعقيداً وابتكاراً. ويقول إنه سينبهر بها المتخصص والذواق في الموسيقى والمطلع على تكنولوجيا الموسيقى. ولكن في الوقت نفسه، سيتمكّن سائق العربة عند سماعها من التقاط بعض نوتاتها، ويتمكّن من غنائها والاستمتاع بها. بهذا كان موزارت يعبر عن رغبة الاكتشاف والابتكار والمخاطرة في التفرد وتطوير الموسيقى المركّبة الملبّسة، نسبة إلى المتخصص. ولكنه سعى إلى أن تتضمن القطعة أنماطاً أحادية المعنى والتركيب، بحيث يكون من السهل فكّها والتعرّف إليها والاستمتاع في التعامل معها، وسماعها وغناؤها، نسبة إلى العامة. وبهذا يعني أنه دفع ووسّع الابتكار والتنوع المتضمن فيه، إلى أقصى ما يتمكّن منه عبقرى مثل موزارت، وبهذا طور الالتباس النمطي نسبة إلى زمانه، إلى الصفة المبتلة العليا، من غير أن ينزلق في صيغة من الغموض. وهكذا

حافظ على بقاء احتمال فكّها بسهولة في صعيدها المبسط، مهما تعقدت علاقات وتركيب الأنماط التي جاء بها في الصعد المركبة الأخرى.

و نشير هنا إلى عبقرية أخرى حققت ذلك التوازن بين المركّب الشديد التعقيد، الذي يفصح، في الوقت عينه، عن أشكال بسيطة يمكن فكّها في الوهلة الأولى عن طريق تلقّ بسيط. نجد هذه العلاقة الحوارية في عمارة توجت القرن العشرين في قدرتها على عرض الملتبسات التي تتداخل وتتعاقب في إيقاع لامتناه. حققت هذا التكوين الشكلي عبقرية كوربوزيه في كنيسة رون شان (Ronchamp)، حيث نجد جدراناً وضياءً، في تنوّع لامتناه، يجعلنا في نشوة دوامة الالتباس المحيّر بين النور والظل، نراها أحياناً جدراناً متغيرة ومتحركة ونوراً ثابتاً، وأحياناً أخرى نوراً ينوّع لونه ومواقعه، في إيقاع منتظم ينتقل من جدار إلى آخر، فتتوّع موقعها منا، وموقعنا منها. وهذا ما يحققه سكاربا في منحوتاته المعمارية التي تبني على ملتبسات لامتناهية، فيقدم على تنويع نمط ما، بمواد وقياسات وشكليات متنوعة، و ينتقل بها من موقع في المبنى إلى موقع آخر، ولكن بمواد أخرى، و بقياسات أخرى. وهكذا ترتبط الأشكال بنمط مركب وشديد التعقيد، ملتبس، ولكنه واضح الدلالة، سهل الفهم والاستمتاع.

إن سرّ نجاح الأنماط المركّبة والمعقّدة التي ظهرت في فنون الفسيفساء البيزنطية والعربية هو أنها تستحدث نمطاً يسهل التعرف إليه، وبسيط. فيتوسع التصميم ويتشعب في تركيبات شديدة التعقيد، ولكنها تحافظ على النمط الأصلي كقاعدة لهذا التركيب اللاحق. فيبقى التكوين المركب ضمن قدرة الرؤية، حيث نجد النمط الأول يقوم بدور الربط والدلالة لفهم صيغة المركّب، وذلك بمتابعة موقع الأول في تركيب الثاني. لذا يصبح الفهم سهلاً، أو أسهل، و ينتقل الوعي في هذه السيرة من الرؤية من نمط واضح إلى تركيبات ملتبسة. وعند فكّها باللجوء إلى تتبّع موقع ودور النمط الأول في المركّب، تستمتع مخيلة المتلقّي باكتشافها هذه العلاقة، بين الجزء والكلّ، بقدر ما تحقق من سيرورة لمعاودة متكررة في كلا الاتجاهين، من الالتباس بين الأول والمركّب، إلى ذلك المعادود بين المركب والأول^(٧).

و سنجد أنفسنا بجولة حوارية شديدة التركيب، عندما ندخل كنيسة كلية الملك، في كامبريدج، حيث نلتقي بالترابيات المتدرّجة عمودياً للأعمدة في العمارة الغوطية،

Gombrich, *The Sense of Order: A Study in the Psychology of Decorative Art*, p. 52.

(٧)

و حيث يتركّب العمود من أرماع^(٨) متعددة، كل منها يؤلف مقدمة ومفتاحاً تلقى تشعيبات أضلاع السقف، ونجدها في السقف المنشعب بصيغة تكوينات لعقد مروحي (fan vaulting)، تستند إلى أضلاع مستعرضة (transverse ribs)، وتشعب بروافد جانبية (tiercerons)، ومنها تشعب عروق ثانوية (lierne). وكل من هذه العناصر يؤلف مقدمة إلى العنصر الأكبر، واستمراراً إلى الأصغر، ومن ثم من الأصغر والثانوي إلى الأكبر والذي يحمل قوى الجاذبية وانسيابها في عروقتها. فتقف المخيلة تحت هذا السقف، وتنقل في حيرة عند تعاقبها التركيب الملتبس لشبكة عروق السقف، وما إن تقدم وتفكّ علاقاتها وتفهم تركيبها الهندسي، تجد أنها قد أعادت تركيب العلاقات تماماً كما هي في السقف. فتطابق الصورتان، في واقع تكوينها لحجر السقف، وفي الصورة في المخيلة.

وننقل من كامبريدج في نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السادس عشر مع تراثيات العمارة الكلاسيكية النهضة المتمثلة بأعمال بلاديو، وتحديدًا بازيليك فيسينزا^(٩). هنا تلبس الرؤية بين العمود الذي يرتفع بارتفاع الطابق، والعمودين الأصغرين اللذين يحملان القوس في جانبه. فتتقدم الرؤية وتسعى إلى تفهم موقع العمود الكبير، فتتقل وتساؤل علاقته بالعمودين الجانبيين الأصغرين، والالتباس الحاصل بينهما، ومن ثم عن ارتباطهما في رؤية موحدة، متدرجة. وهنا تظهر مهارة عبقرية بلاديو في استحداثه هذه العلاقة الملتبسة، التي تتكرر وتغطي كامل المبنى. ولكنها بالرغم من تكرارها، فإنها تنقلنا من الوحدة المتكاملة للعواميد الكبيرة، وبينها الأقواس والأعمدة الصغيرة، إلى وحدة أخرى في تكرار متسلسل مستقر. وهي جولة تنقل بين الوحدة المتكاملة، الكلاسيكية، المستقرة، والالتباس الحاصل ضمنها بين وظيفة الأعمدة الكبيرة والصغيرة. وهكذا في هذه الجولة مع بلايدو نستمتع بنشوة متضمنة ترداداً، في كلا الاتجاهين، وفي نشوة حيرة التناوب بين الاستقرار والالتباس.

عاشراً: اللعب

في تقرير لـ دسموند موريس (Desmond Morris) حول ذكّر شمباتزي مدعو كونكو، نجد وصفاً لسلوكيات هذا الذكر الذي استحدث إيقاعاً للعبة، وجعل منها نمطاً متدرجاً

(٨) الرماح (shafts) في العمارة القوطية (Gothic) هي أجزاء العمود المحيطة به، والتي ترتفع بارتفاعه، ولأنها تظهر بأقطار صغيرة نسبة إلى قطر العمود، فتضفي عليه رشاقة عمودية.

(٩) Basilica Vicenza, Andre Palladio designed 1545 and completed 1614.

(٩)

في التركيب والتنوع، أي حقق لعبة خارج مرجعية تعامل الجماعة التي يعيش معها كونكو، فيكتب:

«حينما تم تقديم قطعة جمنازية إلى كونكو وسمح له ان يلعب بها، ومن خلال فوضى اللعب، التي أقدم عليها، استقرّ على نمط واضح من الحركة. فأخذ يكرّره، ولكن بعد وهلة، أخذ يتّوَع عليه. ومن ثم توسع التّوَع حتى تجاوز الإيقاع الأولي، واستبدله بإيقاع جديد». إن تحليل ما حصل هو أن النمط الأول فقد فتته بالنسبة إلى كونكو، بقدر ما أصبح تفاعلاً تلقائياً، فظهرت عنده حاجة إلى استحداث نمط آخر ليتمكّن من استمرار متعته باللعب مع تلك الأداة والسيطرة عليها^(١٠).

إن الإنسان لا يتفرّد من بين الحيوانات في اعتماد سلوك اللعب ضمن معيش الفرد العيني، وهو كذلك نسبة إلى الجماعة. إن الكثير من الحيوانات، خاصة منها اللبونة، تلعب في دور الطفولة، ما يؤلف ممارسات تقوية أعضاء الفرج وتدريبه على حركات وانتباه توهله لممارسة الافتراس والدفاع عن النفس في مستقبل الصبا. وتستمر بعض الحيوانات وتخصص البعض من وقتها وطاقاتها في اللعب، تتمثل بلعب الشمبانزي والدولفن والكلاب الأليفة.

إلا أن الإنسان أخذ ينظّم سلوكيات اللعب، وأصول التعامل وتحديد المناسبات، واستحداث الطقوس المناسبة التي تدعم وتبرر ما يستنفد عليه من طاقات كبيرة، من دون أن يكون للألعاب التي يمارسها دور في دعم حاجة القوام، النغمية والرمزية. فقد أخذ اللعب عند الإنسان وأصبح حاجة أساسية في الوجود، أي مقوماً فعلاً في إرضاء الحاجة الاستيطيقية. وقد ظهر اللعب عند الإنسانيات، وتطور وتوسع مع تطور الإنسان العاقل. فأصبح الإنسان يمنح منحى اللعب واللهو قسطاً كبيراً من الطاقات والوقت. وقد يمتد ويشمل هذا الأمر عند الإنسان البدائي نصف زمن المعيش، حيث تضمّن الرقص والاحتفالات والزيارات والمباريات والولائم.

وقد استمر هذا المنحى لدى الإنسان القديم، ما قبل ظهور الإنتاج الزراعي. ومع ظهور الإنتاج الزراعي، وحصول الفائض في الإنتاج، تغيّرت العلاقات الاجتماعية، حيث أخذت فئة صغيرة في المجتمع، أي السلطة المركزية والعسكر، واحتكرت الفائض واستأثرت بمنافعه، وأصبحت هذه الفئة تتمتع بقدرات هائلة من اللهو والبذخ. في المقابل، حرم غالبية أفراد المجتمع من القدرات التي كانت تتمتع بها سابقاً، وهي قدرة

تخصيص الوقت و الطاقة للعب، إلا في مناسبات محددة. وقد جاء تحديدها و شروطها ضمن تطور هذا التغيّر الاجتماعي. وفي هذا التغير في معيش الفرد الإنسان، حصل لأول مرة أن تضاربت قدرات و ممارسات إرضاء الحاجات، أي تعارض إرضاء حاجة القوام، التفرقة و الرمزية، مع إرضاء الحاجة الاستيطقية. فظهر في المجتمع منحى الزهد، و ظهر معها الرهبان، و الطقوس و الأيديولوجيات التي تنبذ المتعة، و تروج اختصار معيش الفرد الإنسان بحاجة القوام حصراً، أي العمل و التكاثر و العبادة، و تأجيل متعة الوجود إلى وجود مؤجل من نوع آخر. و هكذا، بقدر ما يكبت الفرد العيني إرضاء حاجته الاستيطقية الطبيعية، يكون فقد ذلك المقوم الأساسي في تكوين إنسانية الإنسان.

الصورة الرقم (٢-١٦)

Kandinsky; Joyful Arising (1923)



إذاً، اللعب عند الإنسان حاجة طبيعية تأصلت مع ظهوره إلى الوجود وتطوره. ولكن بسبب اللانوازن في العلاقات الاجتماعية التي ظهرت مع الإنتاج و المجتمع الزراعي، أي التفاصل الطبقي، و احتكار الفائض من جانب فئة صغيرة في المجتمع، ظهرت معها مناح غير طبيعية نبذت اللعب و اللهو، نسبة إلى البعض، و انطلقت نسبة إلى البعض

الأخر. فاستحدثت الأيديولوجيات التي تنبذ ليس اللعب، وإنما كذلك مختلف الصيغ الأخرى من المتعة في الوجود. فظهرت مفاهيم وممارسات وسلوكيات تحرم الاستمتاع، وجعلت المعيش لهؤلاء الملتزمين حالة متناقضة جوهرياً مع التكوين السيكولوجي للإنسان، وهي حالات متمثلة بالرهبة والتشكك والامتناع عن الجنس والصيام، بينما تفترض سيكولوجية الإنسان الطبيعية، من لا يلعب، لا يتمتع بوجودية إنسانية.

حادى عشر: التجريد

هناك فرق جوهري في مفهوم التجريد (abstraction) مقابل العموميات.

العموميات عامة، هي نكران واقعية عينية الشيء، وإهمال خصوصيته، وتحويل مفهوم العينيات إلى صورة أو مفهوم يعبر عن المجموعة، وإخضاع تعدد واضح لصور العينيات لتفظيم فكري تتوحد فيه. فيصبح مفهوماً لا يشير إلى كيان عيني أو يخصه حصراً، كاختزال التعدد الكبير من أشكال الكراسي، بمفهوم الكرسي، من غير أن يكون ذلك كرسيّاً عينياً قائماً في الوجود، و كاختزال واقع تعدد لامتناه من أشكال الأشجار بمفهوم واحد يعبر عن أجمعها، وهو «شجرة».

غير أن التجريد هو اختزال بعض سمات الشيء واستبدالها بسمات دلالية، أو إعادة تركيب التكوين الشكلي للشيء بصيغ مختزلة من حيث تعددها وأشكالها وعلاقات تركيبها. ويتمثل هذا الاختزال بشكل الصليب المعقوف لمفهوم الدورة الحياتية، والصليب في الأيديولوجيا المسيحية لحدث معين في زمن مفترض معين، ويتمثل بشكل ورقة شجرة الميبل (maple) الحمراء التي تظهر في العلم الكندي. فالتجريد، إذاً، هو تلك الحالة حيث تنتزع سمة أو صورة لعنصر من عناصر الشيء، ويركز الاهتمام على هذه السمة حصراً، وتسخر كأداة للتعبير عن الكل.. إنه اختزال الكثير من مركبات الشكل وإبقاء البعض منها للتعبير عن الكل، أو تعرض الصورة كدلالة عليه، أو يسخر هذا العنصر المستتر للدلالة على مفهوم معين، وليس بالضرورة يخص الكيان الأصل. لقد سخر الإنسان البدائي تكنولوجية التجريد كأداة تعبر عن الأشياء والأحداث التي يتعامل معها، وعن طريق هذه المختزلات يحدّد ويوضح علاقاته مع الأشياء.

يعتبر ولهلم ورنغر (Wilhelm Worringer) أن مصدر التجريد هو القلق بسبب التنوع اللامنضبط القائم في واقع الوجود. أي مسمى الفكر إلى استحداث نظام ونمط واطراد

وتناسق في المخيلة، مقابل عالم خارجي حيث يجد الفرد نفسه يواجه قوى الطبيعة المجهولة، غير القابلة للتنبؤ، وحيث تنوع عينيّاتها إلى ما لا نهاية. فيكتب ورنغر ويصف الإنسان البدائي الذي تصف أعماله التشكيلية التي تصور الأشياء الطبيعية بالتجريد، حيث تتشابه أشكال التكوين بتلك الهندسية. فيجد هذا الإنسان، سكوناً وهجوعاً وطمأنينة في صفات التجريدات الهندسية التي كان يتحدثها، وذلك لأنها تظهر بالنسبة إليه مطهرة ومترفة ومستقلة عن واقع الأشكال المتنوعة والمتعددة لما لا نهاية، والقائمة في العالم الخارجي المتعامل معه. فيصبح الشكل الهندسي المجرد بالنسبة إليه الشكل الوحيد الخالي من فوضى الطبيعة^(١١).

يقدم الفكر البدائي وينظم التعامل مع متطلبات المعيش عن طريق أشكال منظمة أقدم على تجريدها. وبهذا يهيئ للمخيلة مجال فصل الذات عن صفات الفوضى للأشياء المتعددة بسبب حالاتها المتنوعة، القائمة في عالمها الطبيعي. لذا تسعى المخيلة إلى تحقيق أداة تؤمن لذاتها راحة البال عن طريق استحداث التنظيم التجريدي. كما تحقق المخيلة بهذه الحركة الذهنية إرضاء الحاجة المركبة عند تعاملها مع الأشياء الطبيعية القائمة في عالمها، بقدر ما تعرض الأشكال بصيغ مجردة، كالتجريد الحاصل في أشكال المصنّعات. أو تستحدث المخيلة تجريدات للأشياء الطبيعية، كتصور الظواهر في رسوم ومنحوتات مجردة، أو تستحدث صوراً مجردة لأحداث وقوى طبيعية أو اجتماعية بصيغ أساطير وأيديولوجيات، فتركب الأحداث والقوى وتصوغها كما نشاء، أي تخضع شكل الأشياء والأحداث لتجريدات مبسطة وواضحة هندسية، أو صور وأوهام سحرية تنقلها المخيلة وتطمئن إليها. وبهذه الحركة، تتمكّن الذات من تسخير هذه الأشكال والتصورات كأداة تعامل. فتعامل عن طريقها، ومن خلالها مع مختلف الظواهر الطبيعية والاجتماعية التي يواجهها الفرد العيني، والتي تكون قائمة في معيشه اليومي. وعند ذاك تكتسب المخيلة حرية التعامل ضمن شروطها، وقدرات مخيلتها لاستيعاب المعطيات الخارجية. فيصبح التعامل مع ضروريات الوجود خاضعاً لتنظيمات المخيلة. وهكذا تحقق المخيلة تجريدات للأشياء والظواهر، بصيغ تؤمن لها راحة البال، لأن التعامل سيكون مع هذه الصور، ومن خلالها، بدلاً من أن يكون تعاملًا مباشراً مع الواقع، المتضمن التنوع اللامتناهي مع تعقيداته المحيرة.

و ستوضح قدرة الإنسان على تجريد تفهمه لواقع وجوده بصور أسطورية. إلا أن أهمية التجريد كأداة معرفة وتعامل مع الوجود، لا تنحصر في مخيلة الرسوم والمنحوتات والأساطير، سواء في المجتمعات البدائية أو المتقدمة، بل كذلك تنبني عليه الفرضيات المعرفية العلمية. وإلا فمن دون قدرات ضبط واقع الأشياء بصور واضحة، لعجزت المخيلة عن التعامل مع التنوع اللامتناهي؛ ومن غير تبسيط الأشكال، وإخضاعها لصور واضحة في المخيلة، لعجز التعامل مع الظواهر الشديدة التركيب والتعقيد؛ ومن غير هذه المخيلة وقدراتها على التجريد، لما ظهرت المعرفة العلمية النظرية.

التجريد، إذاً، أداة معرفية وظيفتها تسهيل صور الأشياء القائمة في مجال الوجود، وذلك عن طريق تحقيق استقلال المخيلة عن واقع الأشياء، وفي آن تنظيم رؤية لها مناسبة كأداة تسخرها المخيلة لتؤمن لنفسها قدرة التعامل بموجب صورة مبسطة للتركيب المعقد لواقع البقاء، فتؤمن لنفسها بسبب هذه الصورة المبسطة معرفة مناسبة للتعامل، وتبعاً راحة البال^(١٢). وهذا واقع، سواء أكان من يقدم على هذه الحركة الذهنية عقلاً بدائياً، في معيش بدائي، الذي يصنع التجريدات الهندسية، والأساطير، والآلهة، والعفاريات، أم كان يقدم على تأسيس المعرفة العلمية النظرية التي تنبني على المعرفة التجريبية، التي تُصاغ في قوانين تعبر عن مفهوم الثوابت لخصائص المادة القائمة في الطبيعة.

و كمثال للتجريد في المجال المعرفي العلمي، هناك العلم الذي لا يعرف، حتى الآن، واقع ماهية الجاذبية، وإنما الصورة التي جاء بها نيوتن فعالة في تعامل مجيد مع الظواهر التي تخضع لقواها.

إذاً، التجريد حاجة عامة لفكر الإنسان، سواء منه البدائي أو المعاصر، في تعامله مع تعقيدات التكوينات الشكلية القائمة في الظواهر. إننا نجد منذ بدء تكوين الحضارات الرئيسية - كالمصرية، التي جردت نحاتها بدن الإنسان، واستحدثوا له معايير، تحدد الأبعاد والنسب - أن التجريد اعتمد في مختلف المنحوتات. وجاء في وقت لاحق من الزمن القطعة النحتية الآشورية التي تمثل الثور المجنح، والتي وضعت في مدخل قصر آشوربنيبال في نمرود، حيث ظهر بدن الثور مع رأس إنسان متوج، ومع أجنحة ضخمة منتصبة أجلس على ظهره. وإضافة إلى الدقة والمهارة النحتية المتميزة لهذا التمثال الضخم، جاء تجريد الكثير من المعالم التكوينية لواقع شكليات تلك الأبدان، وذلك بهدف تحقيق صورة تمثل جبروت الإمبراطورية العسكرية الآشورية.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

و بعد الآشوريين، جاء براكسيتيليس (Praxiteles) أشهر نحات إغريقي، وقد نحت تمثالاً لافروديت، إلهة الحب و الجمال. لم يكن النحت ليمثل امرأة عينية، وإنما لبدن يمثل الأمثل في الجمال كما هو في المخلّلة الإغريقية. فأنت صورة البدن لتعبّر عن تجريد لرشاقة حسّية فائقة. وأخيراً، نشير إلى سفينة الرقيق التي رسمها ترنر (Turner)، و قليل منا عند النظر إلى هذه القطعة سيأمل مأساة هؤلاء الرقيق الذين تمّ رميهم في البحر من جانب ربان السفينة، وإنما سيرتكز التأمل على تجريد الألوان التي تمزج السماء و الغيوم و البحر، و على أشكال أمواج البحر الهائجة، و أشكال الغيوم الحمر الملتهبة التي ترتفع إلى أعالي السماء، و على شكل السفينة بلون الغيوم الحمر. وإذا تبحر المتأمل لربما سيجد أيادي الرقيق تحت و بين الأمواج، ليس الزرق فقط، وإنما الحمر كذلك. هذه و غيرها من أعمال فنية أقدم العقل البشري على نحتها، و صور موجودات في الوجود، و عرضها بتجريد.

و في عصرنا جاء النحات جياكوميتي و جرّد شكل بدن الإنسان و رودان القبلية.

ثاني عشر: تعدد التنوع

هناك صيغ متعددة تقدم عليها المخلّلة و تحقق التنوع في عالمها المعيش، بهدف إرضاء الحاجة الاستيطيّة. كما أن التنوع يحصل في مجالات متعددة و مختلفة ضمن معيش الفرد و الجماعة. يحصل هذا في التكوين الشكلي للمصنّع، و هو تحميل التكوين الشكلي للمصنّعات سماتٍ متنوعةً بدلالات و معاني متعددة. و حصل نوع آخر من التنوع في المخلّلة، كموقف فكري معرفي و عاطفي نحو صنف من الأشياء أو المصنّعات أو الطرز، أو الولع بطراز معماري معيّن. و هناك أيضاً التنوع في الموقف: المعرفي و الحدسي و العاطفي و الأيديولوجي من شكل المصنّعات و الطرز و الظواهر الطبيعية، و العلاقات الاجتماعية، كتعدد الموقف و تغيّره من نجوم سماء الليل، و تعدد صور الغيوم في المخلّلة، و غيرها من الظواهر الحيّة و الجامدة. و من بين صيغ تنوع المواقف و التعامل مع الأشياء التي تهتمنا في هذه الأطروحة، هي ما يلي:

١ - تنوع سمات المصنّعات

هو استحداث سمات متنوعة تُحقّل على التكوين الشكلي للمصنّع و تؤلف دلالات المعاني التي يحملها المصنّع. و تتمثل صيغ سمات التنوع بالزخرفة (decoration)

والتزيين (ornamentation)، واستبدال المُصنَّع بآخر، والطرز والفاشن. وقد أشرنا إلى هذه الصيغة من التنوع في الفقرة «ثانياً» أعلاه (ص ٦٢ - ٦٤).

٢ - تنوع سلوكية الجماع (collector)

تتمثل صيغة هذا التنوع بسلوكيات الهاوي، أو الهواية عامة، التي تبني على ولع المخبلة بنوع معين من سمات أو طراز مصنع. يتمثل هذا بجماع السُّبح، وساعات اليد، والطوايح، وغيرها من جمع الأشياء. هنا يحصل هذا التنوع في المخبلة أكثر من كونه تعاملاً مع سمات متنوعة، لأن في هذا الجمع تركيزاً على نوع مُصنَّع معين، وهي تحمل سمات عينيات متشابهة، من غير أن تحصل مقارنات بمصنَّعات أخرى، الأمر الذي يعني حصول غالب للتنوع، أو إلى درجة كبيرة، ضمن المخبلة، حيث تركز المخبلة على توسع تنوع سمات جزئية تحملها عينيات الأشياء، وضمن الصنف المعين من المصنَّعات التي يتحقق جمعها.

هذا ما يؤدي عادة إلى توسع تراكم العينيات من المصنَّعات التي يتحقق جمعها. فهنا لا يحصل تركيز في موقف الجماع على تعدد أشكال المصنَّعات، وإنما يحصل غالبه على السمات الجزئية التي تحملها المصنَّعات التي يتحقق جمعها، أي، ينحصر التنوع بجنس من مصنَّعات تؤدي الوظيفة نفسها، كجمع الطوايح، والزجاجيات، والأفلام، والأحذية، ولذا يحصل غالب التنوع، وفي ظاهره، كما لو كان حصراً في مخبلة الجماع.

و يتحقق جمع تنوع مثل هذا عادة خارج متطلبات الحاجة النفعية، أو تكون الحاجة النفعية نسبة إلى مخبلة الجماع مخففة، أو غير مباشرة. فيُركز سلوكيات تعامله، والجمع على الاستمتاع، على تنوع سمات عينيات من المصنَّع نفسه. وغالباً ما يحقق هذا الميل إلى الجمع دعماً لهوية الفرد، لأنه يفاضل نفسه عن الآخرين، اللاجتماعيين. كما أنه يكتسب بهذه العلاقة، أو بهذا التفاضل، انتماءً معنوياً، ضمن مجموعة الجماعين للمصنَّع نفسه. بمعنى أن تكوين هوية الجماع يتداخل مع قيمة المجموعة، كما هي مقيمة من قبل الجماعين الآخرين، سواء منها القيمة المادية أو المعنوية:

«و تشمل هذه الصيغة من التنوع الولع بطراز معماري أو أثاث، مثلاً، حيث يحصل الجمع ليس في واقع الوجود، وإنما في مخبلة الفرد، سواء أكان هاوياً أو باحثاً متخصصاً يزور أبنية ذات طراز معماري معين، ويستمتع بمشاهدتها».

٣- التنوع في مخيلة الإدمان والولع

تشابه هذه الصيغة من الموقف نحو سمات الأشياء من تلك التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة: «تنوع سلوكية الجماع». ولكن في هذه الصيغة يحصل التنوع ضمن المخيلة حصراً، ولا يمتد إلى التداول وجمع المصنّعات، أو يحصل من دون أن يتحقق تنوع حقيقي لعينيات تخص مُصنَّع ما. وتمثل هذه الصيغة بالاستحواذ والانبهار بالشيء، والاستمتاع به. كما تتمثل باستمتاع المخيلة عند التعامل مع سمات مركبة، والتي عند التعامل معها يحصل تناوب في المعنى.

وفي هذا المجال من التنوع يحصل تناوب في الدلالة، حيث يقوم بعض المؤيدين الفئتين المتقدمين بمعنى أن هذه الصفة تتحقق من التنوع ضمن إرهاصات الدماغ، من دون أن يتحقق تنوع حقيقي في معالم مادة مُصنَّع ما، أو تعدد المُصنَّعات. فهو موقف استيطقي يحصل بصيغة الإدمان على التعامل مع مصنَّع معيّن، وتعلق مستحوذ. وفي هذا التعامل، يولع الفرد بسمات الشيء، ضمن صور تتمخّص في المخيلة، أي تتغير في المخيلة، أو أن سيكولوجية المخيلة ترى تنوعاً في الشيء، ولذا يتكرر الانجذاب إليه. ويتمثل الولع بشيء أو بسمة معينة، كمنحى الجلوس على كرسي معيّن، أو شرب الشاي في قده معيّن، أو ولع زيارة مبنى معين بهدف الاستمتاع بمعالمه. وما الحب العاطفي، الحب (love) الجنسي العذري، والرومنطقي منه، إلا مظهر لهذا النوع من سلوكيات التعامل الاستيطقي المتكرر في مخاض سيكولوجية الدماغ.

٤- التنوع خارج الوجود الدنيوي

تبتدع المخيلة داخل مخاض صور معيش أو كيانات خارج الوجود الدنيوي، فتفترن هويتها مع ذلك العالم المتخيّل. ولذا فهي صور وتصورات لا وجود لها في واقعية العالم المعيش، إذ إنها أوهام محضة. فتبتكر هذه الصور لأنها تعبّر عن نقص وعوز عام في العالم المعيش. فهي أداة تعبر عن توق إلى تمنيات لبديل من العلاقات، ووجود متنوع بديل للقائم والمعيش. ولأنها صور متخيّلة، لذا لا يتحدد بضروريات واقع الوجود، ولا في الطاقة المستنفدة، وبكراهها، وبكمّها، ولا بزمن تحقيقها، أو في إدامة الانتفاع منها، إذ هي صور تبتكر من قبل المخيلة فقط، وتبقى فيها، ولذا هي حرة من اضطرابات وضروريات التعامل مع خصائص المادة. فيؤمن التعامل معها، وهي في المخيلة، من غير استفاد طاقة في عالم الوجود الحقيقي، سوى تلك الطاقة التي تستند في التوسل للاقتران بتلك الصور المتخيّلة، والطاقة المستنفدة في العبادة

وفي طقوسها، أو تلك الطاقة المستنفدة في تصنيع تشبيهات بكيانات مادية، كالتماثيل والصور والمدونات، أو الأبنية والمعابد التي تهيا كملاجئ للآلهة، حيث تصبح سهلة المنال من جانب المتعبد. فهي صور في المخيلة، ولذا هي حرة من مقيدات متطلبات التعامل مع خصائص المادة، ولا يحددها سوى قدرات المخيلة على التخيل، أي قدرات المخيلة على ابتكار وتنوع الصور البديلة للعيش، وللقوى التي تدعم متطلبات هذا العيش.

و تتمثل ظاهرة هذه المخيلة بصور العالم الآخر، العالم اللادنيوي، كوصف عالم الجنة في القرآن في القرن السابع. حيث يصف القرآن سلوكية العيش فيها، ونوعية و كمية موجوداتها وتنوعها، والغلو بالاستمتاع اللامتناهي بها من حيث الكم والنوع والزمن، سواء أكان استمتاعاً جنسياً أم طعاماً أم رؤية نور الإله الأوحد. وفي صعيد آخر لهذه المخيلة، منحت الآلهة صفات وأسماء متعددة. فمنح المصريون القدماء ثلاثية اسم و صفة للفرعون، ومنح الإسلام تسعاً وتسعين صفة حميدة لله.

تتمثل هذه الصور المتخيلة بصور جهنم، كما جاء بها الشاعر الإيطالي دانتي أليغييري، في ملحمة «الكوميديا الإلهية»، في بداية القرن الرابع عشر. وفي بداية القرن السادس عشر أقدم الرسام هيرونيموس بوش (Hieronymus Bosch) (١٤٥٠ - ١٥١٦) على رسم العالم الآخر، ووصف كذلك جهنم، وما يمكن أن يتعرض له البشر من تعذيب في صور مذهلة من تنوع التعذيب.

و عند الإغريق ابتكرت صور إلهة الصيد ديانا (Diana)، وإلهة الحب فينوس (Venus)، في منحوتات وأساطير متعددة ومتنوعة. وانتشرت عند المسيحيين صورة مريم العذراء، خاصة في رسوم ومنحوتات العصر النهضة. كما انتشرت عند المسلمين صور علي بن أبي طالب المحققة من جانب المؤسسات الدينية الإيرانية. فيظهر هؤلاء برسوم ومنحوتات وبشكليات تعبّر عن تمايزهم الجمالي، وعن المثال الجمالي في مخيلة تلك الكلجريات، أي، تتمتع صور هذه الآلهة والكيانات المقدسة بجمالية نموذجية خارقة الكمال، بقدر ما تتمكن مخيلة تلك الكلجريات من ابتكار صور مثالية، حيث تعبّر عن صور المثال للجمال. فيظهر هؤلاء الآلهة برسوم ومنحوتات، وبشكليات صور تعبّر عن تمايزهم من البشر، وبهذا التمايز يكتسبون المكانة التي تجعلهم قوى خارقة في قدرتها دعم وحماية هوية الفرد والجماعة.

يسخر هذا التخيل الاستطقي بوظيفة تخفيف حدة ملل الوجود ومآسيه وآلامه، فتمنح الفرد متعة ومعنى لوجوده، بقدر ما تقتزن هوية الذات بتلك الصور. كما أنها بهذا الاقتران تمنح لذاتها صوراً لخالصية في عالم مستمتع آخر متنوع، غير العالم الدنيوي المعيش، كبديل من واقعيات العالم الدنيوي البائس. ولذا ترتبط هذه المخيلة الاستطقية بتداخل مع الحاجتين الآخرين، النفعية والرمزية.

وبهذا الاقتران بهذه الصور يؤمن الفرد لنفسه دعماً معنوياً لهويته، كما أنه بواسطتها تنهياً له صور قدرات الانتقال إلى عالم آخر، عالم سرمدي. فهذه عوالم أخرى، سواء أكانت عوالم تحت الأرض، ساكنة ومظلمة، كما عند الإغريق، أم عوالم مضيئة بقرب الآلهة ومعهم في عالمهم الدنيوي، كما في المسيحية، أم مع إله موحد، تحت حمايته استمتاع سرمدي لا نهاية أو حدود له، سوى ما تشتهي المخيلة، كما في الإسلام. ولأنها هي صور حصراً في المخيلة، لذا فهي حرة من محددات الواقع المعيش، ومن متطلبات خصائص المادة، من حيث الحجم والحركة، من المتطلبات العضوية البيولوجية، خاصة منها الجنسية. لذا تنطلق المخيلة وتتصور ما هو المستحيل. ويتمثل هذا بمعيش سرمدي، متكرر، ولكنه مسرّ إلى درجة النشوة القصوى، حيث القصور والسقوف من الأحجار الكريمة، ومأكّل لامتناهٍ في صحون ذهبية، وجنس لا تتكرر ملذاته، بل تتنوع، بالرغم من تعدد حالاته التي تتطلب تفرغاً كلياً له. وهكذا جاء وصف الجنة في القرآن وغيره من النصوص المدونة في الأيديولوجيا الإسلامية.

أو أنه عالم فوقيّ أقل طموحاً، ويعبر عن معيش أقل عوزاً، حيث يكون موقعه ليس بعيداً، وإنما يرفرف فوق رؤوس الأحياء لفترة من الزمن، لجيلين أو ثلاثة. وهناك لا وظيفة للمتوفى، أو وجود سوى ما قد يقدم إلى الجيل القائم في الأرض ويستعين بخبراتهم السابقة. هكذا تبقى العلاقة، بين الجيل الدنيوي والجيل الزائل، إلى أن يتم نسيان هذا الأخير من جانب الجيل الدنيوي القائم في الوجود. وتعاد هذه العلاقة بدورات متعاقبة تتضمن جيلين أو ثلاثة. وهكذا هي عند المجتمع الصيني.

بكلمات أخرى، يتحقق هذا التنوع في المخيلة، في تصورات بديلة لواقعية الوجود الرتيب، للحياة بكاملها، أو نكران الوجود الدنيوي، أو الرهبة منه، أو عجز تفهمه. لذا، تخفف هذه الصور، والتعلق بها، من ملل عامة الوجود، وتحقق عن طريقها نكرانه، كما نكران الزوال. كما أنها صور تغني الوجود بامتدادها إلى عالم آخر تمتلكه المخيلة، عالم غير محدد بمتطلبات واقعية العالم الدنيوي. وبهذه الحرية التي تتمتع بها المخيلة، ستقفز

إلى ابتكارات لا تحددها إلا قدراتها على التخيل. بمعنى آخر، تمتد الحاجة الاستيطيقية إلى خلاص استيطيقي، وتوسع صورها في عالم آخر يستبدل بالعالم الدنيوي المعيش.

إن تطور وعي الإنسان بوجود النفس بين الأشياء، أو الوعي بـ «الأناء» المتفرّدة، تفتقد غالب استراتيجيات التعامل مع متطلبات الوجود. لذا تتقدم هذه النفس وتبتكر وتسخر مخيلتها في ابتكار مسببات لهذا الوجود، وتبتدع قيماً له. وهذه الصور تكون مستوحاة من الواقع المحلي والدنيوي، إما توسعاً أو نكراً سيكولوجياً له.

وتبتكر المخيلة طقوساً ومراسم وفنوناً تقوم بوظيفة تنويع وتنضيج و صفل الصور التي تستحدثها في المخيلة، وتنقلها إلى واقع الوجود بصيغ مادية، كالمنحوتات والأبنية و طقوس الرقص أو اللطم، وغيرها من مراسم تعبّر عن صور مخيلتها. وهكذا تجعل منها أداة فعالة في إدامة الصورة، وذلك في دورات وجولات تسخرها بوظيفة تجاوز ملل الوجود وعيسته.

٥ - تنوع الطقوس خارج معيش الإنتاج

منذ أن أقدم الإنسان العاقل على تكوين المجتمع البشري المركّب، الذي توسع أكثر من نواة العائلة، وأدخل في معيشه دور العمل المتخصص في الإنتاج، استحدث ضمن هذا التطور معيشاً بديلاً، محتوياً ومتجاوزاً ذلك اليومي المعتاد ومكماً له. مع ذلك اليومي المعتاد، ومكماً له، أو جعل إرضاء الحاجة وتأمين البقاء يأخذ صيغتين في مته أو به: معيش الإنتاج اليومي الذي يقوم بوظيفة إرضاء متطلبات الحاجة بتكوينها المركّب، حيث يستند كامل زمن المعيش اليومي المعتاد، ويؤلف متصلة (continuum) تتضمن العلاقات الاجتماعية والإدارية والتراتبية والأيدولوجية والإنتاجية؛ محتوياً ومتجاوزاً ذلك اليومي المعتاد ومكماً له ومعيش آخر يستحدث، مكمل ومتناوب مع هذا الأول الذي يقوم بقطع متصلة الأول، وهو عبارة عن ممارسات طقوس خارجية عن الأول ومكملة له. وتلمي ممارسات هذه الطقوس فجوات القطع، وتقوم بوظيفة دعم سيكولوجي، لمتطلبات إرضاء الحاجة بصيغها المركبة والقائمة في معيش الإنتاج اليومي المعتاد. هذا ما يجعل الوجود الواعي محتملاً سيكولوجياً، وإلا لأصبح الوجود عامة ممارسة أداتيه، لا معنى لها، ورتيباً وعيشاً.

وبما أن المعيش اليومي ينهي على إرضاء الحاجة المركبة بصيغها الثلاث، فيظهر هذا المعيش، أو ممارسات الطقوس المكملة، كذلك، بثلاث وظائف: طقوس الحاجة النفسية، وطقوس الحاجة الرمزية، وطقوس الحاجة الاستيطيقية.

إن وظيفة هذه الطقوس هي دعم السيكلوجيا التي تقوم بممارسات إرضاء الحاجة النفعية. و تتمثل بدعم متطلبات الإنتاج، كالطقوس والاحتفالات التي تدعم تكنولوجيا حرفة ما، والمهارات المتضمنة فيها، ومنح المؤدي المصنّع مقاماً مهنيّاً ومعنوياً مرموقاً، لصفته الشخصية. فتؤسس هذه الطقوس قاعدة معنوية، ومقاماً اجتماعياً مرموقاً، لتلك الممارسات التكنولوجية، والحرفة والعلاقات الإنتاجية عامة التي تنبني عليها. وبقدر ما تصبح قاعدة الطقوس هذه متينة ومستقرة، كمعادن وأعراف وكليجيات تقليدية، فهي تؤلف، في الوقت عينه، قاعدة مرجعية لتماسك اجتماعي سليم. وضمن تماسك اجتماعي مثل هذا، لا يعتبر الإنتاج ضرورة لا بد منها لإدامة البقاء فحسب، وجعل البقاء ممكناً أصلاً، بل كذلك كون الإنتاج يبنّي على المعرفة المبتكرة التي تستحدثها حرية إرادة الفرد، وهو ما يجعل الوجود الواعي بذاته، يعي كونه إرادة حرة مفكرة فعالة. وهذا ما يميز الذات من الأشياء الجامدة والحية الأخرى، ويحررها من عبثية الوجود.

وهكذا أقدمت غالب الحضارات على استحداث كليجيات طقوس تدعم الإنتاج، كذلك مهارة ودقة تكنولوجيا التصنيع. وتتمثل هذه بطقوس الاحتفالات التي تعرض مهارة التصنيع، سواء كجزء من احتفال عام أو خاص بذلك العمل. فمثلاً، احتفال قص السمك في اليابان يخص حصراً مهارة هذه الممارسة، بينما احتفال عرض الدمى، كذلك، في اليابان، يتوافق ويتداخل مع احتفال تفتح زهرة الكرز.

وهناك طقوس لمعارض عديدة لعرض مهارة تربية الأزهار في مختلف أرجاء العالم. ومن بين أشهرها وأكبرها معرض چلسي للأزهار، ومعرض قصر هامبتن (Hampton) Court، وكلاهما في لندن. وهناك طقوس أخرى مشابهة في اليابان وهولندا، حيث تعرض مهارة وتطور تكنولوجيا تربية زراعة الزهور.

كما أن هناك طقوس احتفالات تعرض مختلف وجبات الطهي، بما في ذلك الموسمية، وتعرض مهارة تربية الحيوانات، متمثلة بتربية القطط والكلاب والأحصنة. فتحقق طقوس هذه المعارض هدفين: مهارة التصنيع، سواء تصنيع الجبن أو تربية الأحصنة، وفي الوقت عينه، تكون مناسبة للاستمتاع بجمالية هذه المصنّعات، ومهارة ممارسة التربية والتصنيع، سواء أكان التعامل مع أزهار أم دمي أم كلاب.

إن تعدد وتنوع هذه الطقوس، التي تدعم ممارسات تصنيع مصنّعات وتقنيات متنوعة، ومهارة تربية الأزهار، وصناعة الأثاث، مثلاً، تتوافق في أهدافها، لأن وظائفها أساساً

هي دعم سيكولوجي لقدرات إرضاء متطلبات الحاجة النفسية. وبقدر ما تكون ممارسة الطقس ذاته ممارسة مبتملة، فهو يؤلف مصدر استمتاع وتماسك اجتماعي سليم. وهكذا تمنح هذه الطقوس الفرد المصنّع مقاماً معرفياً في المجتمع، الأمر الذي يمثل دعماً لهويته، ومقامه في المجتمع.

ويعتبر أن لا يتعارض تحقيق الطقس الذي يهدف إلى إرضاء حاجة معينة، كالحاجة النفسية، مع تحقيق هدف إرضاء طقوس الحاجتين الآخرين. فكلما يرضي طقس حاجة ما بقدر مبتمل، سيكون، في الوقت عينه، ظرف دعم إرضاء طقوس الحاجتين الآخرين، أي بقدر ما يحقق طقس ما تكملة لإرضاء حاجة معينة، كطقس مقام الجلوس على كرسي السلطة، سيدعم هذا الطقس تقنية تصنيع الكرسي، وسيؤلف كذلك ظرف تحقيق تكنولوجيا مبتملة، أي تحقيق جمالية صفة الأبتمال لذلك الكرسي.

ويحصل هذا التوافق في وظيفة الطقس لأن الهدف من ممارسة الطقس هو أساساً استحداث وجود مكمل لمعيش الإنتاج، هدفه الأساسي دعم سيكولوجي للوجود الذي يكون في دور تعامله لإرضاء تلك الحاجة الخاصة. كما يفترض أن يكون في توافق مع إرضاء الحاجتين الآخرين عامة، لأن الإرضاء يحصل ضمن سيكولوجية الفرد، التي تتعامل مع المصنّعات بصفتها حاجة مركبة: النفسية والرمزية والاستيطيقية. بمعنى، أي طقس يدعم أي هدف في إرضاء حاجة ما، إذا تعارض مع الدعم السيكولوجي لإرضاء حاجة أخرى، سيكون طقساً فاسداً، لأنه يتعارض مع توازن مركب الحاجة. فطقس دعم تكنولوجيا مبتملة في إرضاء الحاجة النفسية، سيكون بالضرورة طقساً يدعم متطلبات الهوية، أي الحاجة الرمزية، كما أنه بقدر ما يتمتع بصفة الأبتمال، سيؤلف أداة استمتاع، أي إرضاء الحاجة الاستيطيقية.

ب - طقوس الحاجة الرمزية

هذه طقوس وظيفتها دعم هوية الفرد والجماعة. فبقدر ما أصبح مجتمع الإنسان مركباً، وخاصة مع ظهور الإنتاج الزراعي، فقد اتبنى على تراتيبات هرمية طبقية ومقامية جندرية^(١٣) شديدة التعقيد. فظهرت الطقوس الرمزية بهدف إدانة هذه التنظيمات الاجتماعية، وتبرير وجودها، ومنحها شرعية إدامتها، بالرغم مما تتضمنه تلك التنظيمات الاجتماعية من سلبات في علاقات البشر في ما بينهم. وتستمر هذه الطقوس في أداء وظيفتها إلى حين ظهور تنظيم اجتماعي آخر، فيستبدل به القائم. فتبتكر

(١٣) الجندر (gender) الجنس من حيث الذكورة والأنوثة.

أيدولوجيات جديدة، تتضمن وتتداخل مع عادات وأعراف وأمثال وحكم وتعاليم دينية، وتظهر معها الطقوس التي تدعمها.

وبما أن هوية ذات الإنسان تنبني على وجودين يتمخضان في الفكر والمخيلة: الأول، وهو الوجود الواقعي، المعيش اليومي ضمن تركيب مجتمع الجماعة، الذي يتضمن العلاقات الاجتماعية، بما في ذلك العلاقات الجندرية والمقامية والتراثية والإثنية والدينية، فيتحدد موقع الفرد في هذا التنظيم، بحسب ظروفه الخاصة، والفرص التي تحصل بالنسبة إليه.

أما وجود الآخر، فهو وجود في حالة اللاوجود، أي توقع الزوال. بمعنى آخر، إنه في تعامل وعي الفرد مع عالمه المعيش يومياً، أي الوعي بزوال الوجود، الأمر الذي يجعل واقع الوعي في حالة غالباً قلقه. وقد تأصل هذه القلق في سيكولوجية الفرد، سواء أرضي وأقر بالضرورة البيولوجية لهذا الزوال، أم أنكر هذا الواقع. ولذا ظهرت أيديولوجيات تعالج هذا القلق. وظهرت بصيغ أديان تمنح الوجود اليومي الممارس، وجوداً آخر، سواء في عالم آخر، فوق الأرض أو تحتها، أو عليها، تحققه قوى خارقة لادنيوية بعد حصول الخلاص. كما جاءت أديان تعالج القلق بصيغ متعددة أخرى، يحصل ابتكارها بحسب ظروفها الكلجية والتاريخية. وتعتبر وظيفة هذه الأيدولوجيات هي دعم هوية الفرد في معالجة همومه اليومية التي يتعرض لها من ظلم وتعسف ومرض وجوع ووحداية وغيرها من سلبات المجتمع المركب، وتأمين البقاء عامة.

وقد ظهرت واستحدثت طقوس وظيفتها تنظيم ممارسات فردية وجماعية تدعم هوية الفرد والجماعة، ضمن هذه المركبات الاجتماعية وازدواجية الوجود. فتمحقت للفرد صور لئماسك اجتماعي، حيث تجد هوية الذات موقعاً لنفسها بين المجموعة، أو جزءاً في كيان أكبر. لذا تشعر بقدر من الاطمئنان. ويحصل هذا الاطمئنان بقدر ما تكون هذه الجماعة متجانسة ومتماسكة.

كما ظهرت طقوس مع تقدم تركيب المجتمع، خاصة مع تطور الإنتاج الزراعي، وظهور الإمبراطوريات الزراعية، والمدن الكبيرة، وتوسع المعرفة، ومعها توسع المتناقضات في مصالح هرمية التراتيبات الاجتماعية. وهي طقوس متنوعة تدعم سيكولوجية الفرد خاصة، والجماعة عامة. ومن بين أهمها في مجال الأيدولوجيات الدينية: الصلاة والصوم والمواكب الدينية والختان والحج وتقديم القرابين إلى الآلهة والدعاء

والغشي (Trances)^(١٤). وتوسع هذه الطقوس في حالات اجتماعية مرتبكة، فتقدم المؤسسات الدينية، وتمارس طقوساً عنيفة ولاعقلانية متمثلة بحرق النساء المتهمات بالسحر، والمفكرين والعلماء، خاصة في أوروبا. وقد تمثلت بحرق الكتب والوثائق، ومثلت طقوساً دورية في أوروبا في حقبة محاكم التفتيش. ومن بين الطقوس العنيفة التي كانت سائدة في إنكلترا أيضاً، حرق القطط في الساحات العامة، التي كانت عندهم تمثل الشيطان، عن طريق وضعها في صناديق حديدية شبكية وإشعال النار تحتها. كما يُقدم المسلمون الحجاج على رجم الشيطان بالحجارة باعتباره طقساً مقوماً في أداء فريضة الحج.

و ظهرت طقوس متنوعة أيضاً في مجال دعم استقرار تنظيم المجتمع، أي دعم شرعية السلطة. منها المواكب الرسمية والمهرجانات واحتفالات النصر العسكرية، ومنها مراسم احتفال تتويج رجال السلطة، وأعياد ميلادهم، وحفلات زواجهم وزواج أولادهم، و مراسم احتفال تشييع جثامينهم وتأيينهم.

يكمن الهدف الأساسي لهذه الطقوس في تهية موقع لإرادة الفرد القلقة، وهو موقع سيكولوجي مريح، ضمن تماسك اجتماعي مستقر. إلا أنها تعكس علاقات اجتماعية متناقضة، و مواقع متباينة للأفراد والجماعات والفئات ضمن تراتيبات تكوين المجتمع المعين.

يؤلف تحقيق تماسك اجتماعي في مخيلة أفراد المجتمع قاعدة ضرورية لإدامة استقرار تماسك المجتمع. لكن صيغة التماسك، والأيدولوجيا كموقف فكري ووعي بالوجود، و الطقوس التي تستحدث لدعم هذا التماسك، معرضة للفساد بسبب ظروف تاريخية و قيادية. بمعنى أن هذه الطقوس تأخذ صيغاً تتضمن قيماً سلبية بدلاً من الإيجابية، و ظهور الطقوس ليس بالضرورة أن تكون دائماً قيماً جمالية، في كل الأديان، و الكلجريات التي تظهر في تداخل معها و تدعمها.

يكون معيار الإيجابي و السلبي هنا، احترام حرية إرادة الفرد. فالسلب هو ذلك الطقس الذي يتعارض مع حرية إرادة الفرد، و يكبتها، لأن هذه الحرية هي التي تمنح الفرد حرية تعامل مجيد مع خصائص المادة، أي قدرة و ظرف الابتكار، حيث ينبني عليها قدرة تحقيق تعامل مبتمل ضمن معيش مجتمع الدورة الإنتاجية. كما أنها الأداة الوحيدة التي

(١٤) الغشي، جمع غشية (trance) و هي شبه غيبوبة تصيب السحرة و رجال الدين في طقوس نوبة من السحر، و هذه طقوس منتشرة في أفريقيا، و يقدم على أدائها البعض من الدراويش و الصوفية.

تمتلك قدرات الابتكار في تطوير المجتمع لمعيش أفضل وأغنى، وأكثر إنسانية في صيغة التماسك الاجتماعي الذي تحققه.

ولسنا بصدد بحث إيجابية أو سلبية التكوين الفكري والبنوي للأديان الذي يبنى عليه التماسك الاجتماعي، لأن ما يهمنا هنا هو حصراً مسألة وظيفة وقيمة الطقوس التي تؤلف المعيش والممارسات المكتملة للمعيش العادي ضمن الدورة الإنتاجية، أي تلك الطقوس الفعالة ضمن الفجوات الزمنية التي تقطع اتصال الوجود عامة - ولا يهمنا هنا إيجابيات وسلبيات الأيديولوجيات الدينية والإثنية، لأن معالجتها ستكون خارج موضوعنا، بل ما يهمنا منها هو تلك الطقوس التي تستحدثها هذه الأيديولوجيات أو غيرها، والتي تقطع فجوات في اتصال معيش الدورة الإنتاجية، ودور هذه في دعم إرضاء الحاجة المركبة.

وسنشير هنا إلى طقس واحد لبيان مضمونه السلبي، وتأثيره السلبي في حرية إرادة الفرد.

إن طقس رمضان حدث مهم في معيش الفرد المسلم المؤمن والممارس له. وترتکز أهمية هذا الطقس في معيش الفرد على ناحيتين: أولاً، الامتناع عن الأكل والشرب لمدة طويلة أثناء النهار. ولذا فهو طقس يتعارض مع فيزيولوجية الكيان البيولوجي للإنسان. وثانياً، يعطل المعيش والعلاقات الإنتاجية، إلى درجة كبيرة خلال مدة الصيام، ويتعارض مع متطلبات معيش مجتمع الدورة الإنتاجية. ولسنا بصدد الإشارة إلى تأثير هذه السلبيات في معيش الدورة الإنتاجية وسيكولوجية الالتزام القسري في إرادة أفراد المجتمع. وإنما نهمنا هنا الإشارة إلى ناحية واحدة في ممارسة هذا الطقس، وهي توقيت ممارسة الطقس، وتأثير ممارسة شعائر هذا التوقيت: موعد بدء شهر رمضان والموقف المعرفي لممارسة هذه الشعائر، وتأثير هذه الشعائر كموقف من المعرفة وحرية إرادة الفرد.

الناحية الأولى التي يتعين الإشارة إليها هي موعد طقس الصيام ضمن الموسم. فقد تحدد بحسب النص القرآني أن يكون في شهر رمضان. ولكن شهر رمضان خاضع لتقويم قمري، وهذا ما يجعل الموعد متغيراً، نسبة إلى فصول السنة، وغير متسق مع مواسم السنة. بمعنى أنه لا تحصل علاقة كلجيرية متسقة بين متطلبات الطقس من لباس وتوفر الطعام ومعيش مناخ الفصل، بحسب مواسم محددة ضمن فصول السنة. لذا لا تنبني كلجريات وطقوس ثانوية لها علاقة بفصول السنة. وإنما تظهر مواعيد الطقوس

وممارستها بمعزل عن الفصل الطبيعي، ولا تتحدد به، الأمر الذي يجعل طقس صيام شهر رمضان خارج الطبيعة المُحسنة والمُتعامل معها، أي يصبح الطقس دخيلاً على طبيعة الموسم. وهكذا يبقى طقس رمضان طائفاً فوق رؤوس مواسم السنة وفي غيبيات فوقية، من غير أن يكون له قاعدة طبيعية. فتصبح قاعدته الوجود، و سيكولوجية الإرادة، وتنحصر في ممارسة طقس التعبد، والالتزام بالنص الديني، بعيداً من واقع معيش الإنسان في كوكبة تتضمن فصولاً سنوية متغيرة، لكل منها صفاتها الطبيعية.

لذلك يصبح قطع شهر رمضان نسبة إلى اتصال فصول السنة قطعاً غير منتظم، في أنه لا يرتبط بموسم معين، وإنما تتجدد العلاقة في كل سنة.

بينما هناك ارتباط وجودي بين فيزيولوجية الامتناع عن الطعام، ومدة النهار، والمناخ الذي يتعرض له ممارس الطقس، فتتجدد هذه العلاقة في كل دورة لممارسة طقس الصيام، فيصبح طقس رمضان أداة لا استقرار طبيعياً فيها، ولا توافق مع مواسم الطبيعة، وإنما ينحصر الاستقرار، أو يختزل، بحالة الالتزام بالنص الديني.

هناك، إذًا، ناحيتان يجدر الإشارة إليهما: الناحية الأولى موقع الطقس نسبة إلى أشهر السنة، ونسبة إلى فصول السنة. والناحية الثانية، هي توقيت الطقس نسبة إلى مواعده في اليوم المعين، الذي يؤلف بداية الطقس. ومن غير هذا التحديد، ترتبك وظيفة الطقس التي هي أساساً إجراء ممارسة تكميلية لدعم متطلبات الهوية القائمة في المعيش العادي اليومي في مجتمع الإنتاج.

قبل الدعوة المحمدية، ومنذ أن بدأ الإنسان يعتمد توقيتاً في إدارة معيشه اليومي، ظهر في البدء التقويم القمري، الذي يتوافق مع متطلبات مجتمع الصيد. ولكن مع ظهور مجتمع الإنتاج الزراعي، بات لا بد من اللجوء إلى تقويم شمسي.

غير أن الشهر القمري الفلكي، أي المعروف بالدورة الكاملة للقمر من السنة الشمسية، يدوم ٢٩ يوماً. لذا هناك تباين بين التقويمين: فيما تكون السنة الشمسية تقريباً ٣٦٥ يوماً، ستكون السنة القمرية تقريباً ٣٥٤ يوماً، أي هناك تباين بين الاثنين بـ ١١ يوماً^(١٥).

ومع تقدم الإنتاج الزراعي، الذي أخذ يتطلب الدقة في مواعيد إدارة الدولة ومصالح الناس المركبة التجارية والإدارية، فقد أقدمت هذه الحضارات الزراعية على اعتماد

(١٥) نضال قسوم، عماد العتي وكريم مزبان، إثبات الشهور الهلالية ومشكلة التوقيت الإسلامي، ط ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٨)، ص ٩.

التقويم الشمسي في إدارة التقويم السنوي عامة. مع ذلك، استمر تقويم الشهر القمري، بسبب التقاليد والكليجريات التي انبنت عليه^(١٦). فلجأت هذه الحضارات إلى تصحيحات شمسية، لتطابق السنة القمرية مع تلك الشمسية، ومعالجة التباين بين التقويمين.

و كانت الحضارة السومرية أول من هياً جداول دقيقة، حيث انبنت على نتائج أرصاد عديدة لمنازل القمر، أي أن هذه الجداول تبيّن التباين بين زمن الاقتران (أي تراصف الأرض والقمر والشمس)، وهو لحظة دخول الشهر بالمعنى الفلكي، وطريقة مشاهدة الهلال بالعين البشرية. وهكذا أقدمت مختلف الحضارات التي استمرت على اعتماد الشهر القمري والسنة الشمسية على تسوية التباين في عدد الأيام.

أقدم عرب الجزيرة كغيرهم، قبل الدعوة المحمدية، متبعين نهج الحضارات الكبرى، على زيادة أيام شهر ذي الحجة. وقد سخرّوا احتفالات الأسواق، كعكاظ وغيرها، واستحدثوا تسوية مناسبة بين التقويمين. وقد أقدموا على هذا الإجراء التنظيمي للتقويم، وإن لم يتمتعوا بحضارة تنبني على إنتاج زراعي متقدم، أو لم يكن لهم تنظيمات دولة متقدمة.

إلا أنه مع الدعوة المحمدية، وتأسيس دولة قريش، اعتمد رجال الدين النصّ القرآني، حيث جاء فيه «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج» (سورة البقرة، الآية ١٨٩)، وعلى أحاديث مشابهة في المعنى. فاعتمد الشهر الهلالي من جانب هذه الدولة، وبذلك ألغوا تعديل التباين بين التقويم العملي الذي كان معمولاً به في الجزيرة^(١٧).

وسيكون من المفيد أن نشير هنا إلى البعض من مواقف رجال الدين للبعض من المذاهب، وكيف أقدموا على دعم تقويم الشهر على الرؤية بدلاً من عقلانية منطق الشهر القمري الفلكي.

و نقصد برجال الدين كافة التراتيبات للذين يقودون ويسيطرون على الأيديولوجيا الدينية للمجتمع الإسلامي، وصعوداً من ملة القرية والمحلة إلى وعاظ المنابر، وإلى الكليدارية ورجال الفتاوى وقضاة الدولة والأمة، والذين ينظرون ويستحدثون المذاهب والنحل، كالشافعي والحنبلي والوهابي، وأخيراً المنظرين الجدد، كالخميني وسيد قطب وغيرهما.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٩٣.

لقد كانت حجة رجال الدين في تحديد مواعيد بدء الطقوس الرجوع خاصة إلى حديث معين. وفي ما يلي البعض من هذه الحجج التي تعبر عن مواقف المذاهب الفقهية عامة:

(١) الالتزام الكلبي: عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله يقول: إذا رأيتموه فصوموا. وإذا رأيتموه فافطروا، فإن غم عليكم فاقدروا له^(١٨).

(٢) عدم قبول علماء الفلك

- المذهب الإباضي: «لا تعتبر الرؤية بما تدرك من الآلات»، أي كالمنظار ونحوه والحساب الفلكي^(١٩).

- المذهب الحنبلي: لا يجوز عندهم الاعتماد على حسابات علماء الفلك في أية حال من الأحوال. جاء في كتاب الفروع لابن مفلح: «من صام بنجوم أو حساب لم يجزئه وإن أصاب، ولا يحكم بطلوع الهلال بهما ولو كثرت إصابتهما... لأنه ليس بمستند شرعي». وقد علل ابن تيمية هذا الرأي بقوله: لا يجوز الاعتماد على حساب النجوم، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(٢٠).

- المذهب الشافعي: يرون المنع من اعتماد قول علماء الفلك ويستنونهم المنجمين. قال الرملي في فتاوى رداً على السبكي: «الشارع لم يعتمد الحساب بل ألغاه بالكلية بقوله: نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، الشهر هكذا وهكذا. وقال ابن دقيق العيد: الحساب لا يجوز الاعتماد عليه في الصيام»^(٢١).

- المذهب المالكي: ولا يثبت الشهور بحساب علماء الفلك، ويستنونهم المنجمين، ولا يجوز لأحد أن يعتمد على قولهم، ولا يصوم المنجم اعتماداً على حسابه بدخول رمضان، «لأن الشارع أناط الصوم والفطر والحج برؤية الهلال، لا بوجوده»^(٢٢).

- عن أبي عبد الله الصادق: صيام شهر رمضان بالرؤية، وليس بالظن. وفي رواية: ولا بالتظني، أي لا يجوز من دون شهادة الرؤية، ولا يجوز بحساب فلكي.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٣) قبول أو عدم قبول النساء في الشهادة

- المذهب الحنفي: عن أبي حنيفة أنه تقبل شهادة رجلين أو رجل وامرأتين^(٢٣).

- المذهب الشافعي: لا يقبل فيه شهادة النساء.

(٤) عمومية الرؤية

- المذهب الزيدي: إذا «رآه أهل بلد لزم أهل البلاد كلها».

- المذهب الإمامي: إن الهلال إذا ثبت في بلد، فإنه لا يفيد أهل بلد آخر متباعد^(٢٤).

تبيّن لنا هذه المواقف لرجال الدين: أولاً، هناك تباين في المواقف، حيث لا يجمعها منطق تحديد شهادة رؤية الهلال و ظهور الهلال بصفته إشارة إلى بداية الشهر الإسلامي، وإلى أحد الطقوس، أي أن هناك اختلافاً على تأويل النصوص الدينية وكيفية التعامل معها والالتزام بها. هذا الاختلاف حول ظهور ظاهرة طبيعية - ظهور الهلال. وثانياً، هناك رفض وتباين جذّي نحو المعرفة التجريبية في مجال علم الفلك التي كانت في دور تأسيسها وتطورها في العالم الإسلامي.

ففي هذه الحقبة الزمنية التي كان فيها رجال الدين هؤلاء، ظهر تطور معرفي في علم الفلك في العالم الإسلامي، وأخذ دوراً طليعياً، وحقّق تطويراً مهماً لعلم الفلك، الذي بدأت به حضارات وادي الرافدين والفرس والهند والإغريق والرومان، بينما كان موقف رجال الدين النبذ، والإصرار على موقف بدائي لا عقلاني.

وكان من بين أشهر علماء الفلك في تلك الحقبة الخوارزمي (المتوفى حوالي سنة ٨٦٣م)، وعبد الله بن جابر البتّاني (٨٥٨-٩٢٩م)، والمجريطي (المتوفى حوالي ١٠٠٠م)، ونصير الدين الطوسي (١٢٠٧-١٢٧٤م). وقد تقدمت هذه البحوث خاصة التي كانت تتحقق في مرصد «المراغة» الذي أسسه هولاكو عام ١٢٦١م، والذي كان من أعظم المراصد، وقد احتوى على الآلاف من المؤلفات. وبقي هذا المرصد سنوات تحت إشراف نصير الدين الطوسي، حيث أدخلت إصلاحات معرفية فلكية على النموذج البطلمي، وبالأخص على حركة القمر^(٢٥).

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

ربما يمكن لنا أن نفكر هذا العزل بين التطور المعرفي الذي كان يحصل في مجال العلوم، ومنها الفلك، وهي المعرفة التي كان يعمل بموجبها رجال الدين، بسببين رئيسيين:

لقد اعتبر النصّ القرآني، في أيديولوجية الدين الإسلامي بكونه كلام الله، وهو الكلي المعرفة. فتتخصص وظيفة رجال الدين في تأويل النصّ، وليس تعديله أو استبداله، لأن الهدف هو الالتزام بكلام الله، وليس عقلنة تنظيم الطقوس، وتبعاً لتحقيق تماسك اجتماعي سليم. ففي هذا المفهوم الديني، يتحقق التماسك الاجتماعي السليم، بقدر ما يتحقق الالتزام الحرفي بالنصّ، أو أن التماسك الاجتماعي يكون قائماً أصلاً ضمن مفهوم النصّ، ولا يوجد احتمال أن يكون خارجه. فبالنسبة إلى رجال الدين تصبح مختلف العلوم التجريبية^(٢٦)، التي هي خارج النصّ، خارج اهتمامهم، وتخضع لتأويل النصّ، انطلاقاً من أن النصّ يتضمن كامل المعرفة. ويفترض اليقين بالنصّ وليس محاججته، لأن مفهوم الوجود السليم في الدين الإسلامي هو خضوع إرادة الفرد لإرادة الله، كما ظهرت هذه الإرادة في النصّ القرآني.

وإن حصل ارتباك لدى أفراد المجتمع بسبب الطرائقية اللامنظمة لمشاهدة الهلال، بسبب تنوع ظهوره في مختلف فصول السنة، وبسبب القلق الحاصل في بداية ظهور القمر، وبسبب اتباع أسلوب بدائي للمشاهدة، إضافة إلى تعدد شروط المشاهدة، وتعدد عدالتها لدى مختلف المذاهب، وإصرار هذه المذاهب على تفرد كل منها بيقينية قرار الطرائقية، فإن حالة مثل هذه لا تؤلف ارتباكاً سيكولوجياً اجتماعياً نسبة إلى رجال الدين، لأن تنظيم العلاقات الاجتماعية، وارتباطها بالطقوس المكتملة، يخضعان أساساً لالتزام صارم بإرادة الله. وكل من قيادات هذه المذاهب تعتبر نفسها أدري من غيرها بمتطلبات ورغبات هذه الإرادة.

إن هدف الطقوس، وظهورها في تنظيم المجتمع حينما أخذ يتطور ويتوسع ويتنوع تركيبه، هو إضفاء معنى على أدائية إرضاء الحاجة المركبة، أي إخراج هذه الأدائية من كونها سلوكيات أدائية محضة، ميكانيكية، هدفها تأمين البقاء، إلى كونها سلوكية

(٢٦) لقد جرت العادة بسمية رجال الدين بالعلماء، وهذه تسمية خاطئة، تفرد بها الدين الإسلامي، لأن رجل الدين لا يمكن أن يكون عالماً، لأن المعرفة التي يعملها تنبني على يقينية النصوص الدينية والإيمان بها، بينما العلم بمفهومه الإبيستيمولوجي هو تراكم التجربة العملية التي تبنى على الشكّ والمساءلة، وتفسد بقدر ما تكون ملتزمة يقينية. فرجل الدين، في أحسن حالاته من اقتناء المعرفة يكون العارف بالنصوص، ولذا فهو ليس عالماً، وإنما عارف بنصوص الدين الذي يؤمن به.

ربما يمكن لنا أن نفسر هذا العزل بين التطور المعرفي الذي كان يحصل في مجال العلوم، ومنها الفلك، وهي المعرفة التي كان يعمل بموجبها رجال الدين، بسببين رئيسيين:

لقد اعتبر النصّ القرآني، في أيديولوجية الدين الإسلامي بكونه كلام الله، وهو الكلي المعرفة. فتنحصر وظيفة رجال الدين في تأويل النصّ، وليس تعديله أو استبداله، لأن الهدف هو الالتزام بكلام الله، وليس عقلنة تنظيم الطقوس، وتبعاً لتحقيق تماسك اجتماعي سليم. ففي هذا المفهوم الديني، يتحقق التماسك الاجتماعي السليم، بقدر ما يتحقق الالتزام الحرفي بالنصّ، أو أن التماسك الاجتماعي يكون قائماً أصلاً ضمن مفهوم النصّ، ولا يوجد احتمال أن يكون خارجه. فبالنسبة إلى رجال الدين تصبح مختلف العلوم التجريبية^(٢٦)، التي هي خارج النصّ، خارج اهتمامهم، وتخضع لتأويل النصّ، انطلاقاً من أن النصّ يتضمن كامل المعرفة. ويفترض اليقين بالنصّ وليس محاججته، لأن مفهوم الوجود السليم في الدين الإسلامي هو خضوع إرادة الفرد لإرادة الله، كما ظهرت هذه الإرادة في النصّ القرآني.

وإن حصل ارتباك لدى أفراد المجتمع بسبب الطرائقية اللانظمة لمشاهدة الهلال، بسبب تنوع ظهوره في مختلف فصول السنة، وبسبب القلق الحاصل في بداية ظهور القمر، وبسبب اتباع أسلوب بدائي للمشاهدة، إضافة إلى تعدد شروط المشاهدة، وتعدد عدالتها لدى مختلف المذاهب، وإصرار هذه المذاهب على تفرد كل منها بيقينية قرار الطرائقية، فإن حالة مثل هذه لا تؤلف ارتباكاً سيكولوجياً اجتماعياً نسبة إلى رجال الدين، لأن تنظيم العلاقات الاجتماعية، وارتباطها بالطقوس المكمل، يخضعان أساساً للالتزام صارم بإرادة الله. وكل من قيادات هذه المذاهب تعتبر نفسها أدري من غيرها بمنطلقات ورغبات هذه الإرادة.

إن هدف الطقوس، وظهورها في تنظيم المجتمع حينما أخذ يتطور ويتوسع ويتنوع تركيبه، هو إضفاء معنى على أدائية إرضاء الحاجة المركبة، أي إخراج هذه الأدائية من كونها سلوكيات أدائية محضة، ميكانيكية، هدفها تأمين البقاء، إلى كونها سلوكية

(٢٦) لقد جرت العادة بسمية رجال الدين بالعلماء، وهذه تسمية خاطئة، تفرد بها الدين الإسلامي، لأن رجل الدين لا يمكن أن يكون عالماً، لأن المعرفة التي يجملها تنبي على يقينية النصوص الدينية والإيمان بها، بينما العلم بمفهومه الإبيستيمولوجي هو تراكم التجربة العملية التي تبنى على الشكّ والمساءلة، وتقدّر ما تكون ملتزمة يقينية. فرجل الدين، في أحسن حالاته من اقتناء المعرفة يكون العارف بالنصوص، ولذا فهو ليس عالماً، وإنما عارف بنصوص الدين الذي يؤمن به.

مدعمة بموقف سيكولوجي تسائل هموم الوجود، أي الشك بجدوى البقاء أصلاً، برتابته وعيشته. فالطقس، خارج مجتمع الدورة الإنتاجية، هو الذي يضيء، من عندياته، معنى وقيمة على سلوكيات إرضاء الحاجة، على أبتالية التعامل. وتكتسب مهارة قطع السمكة، وبستنة الأزهار، والجلوس على كرسي المقام، وبناء القصور والمعابد ونحت جمالية بدن الإنسان، والاستمتاع بتلك الجمالية، وممارسات التعبد، تكتسب هذه وغيرها من ممارسات، قيمة معنوية وعاطفية من خلال ممارسة الطقس الذي يحصل خارج الدورة الإنتاجية، ويدعمها من موقعه في خارجها.

لذا يتحقق تماسك اجتماعي سليم عن طريق إضفاء هذه القيم الإنسانية على سلوكيات التعامل. وبقدر ما تكون هذه الطقوس حرة، من آلية إرضاء الحاجة، ومكملة لها، ستمكّن من القيام بدور آلية دعم التماسك الاجتماعي، خارج المصالح المتباينة والمتضاربة ضمن الدورة الإنتاجية.

من هنا يأتي الارتباك السيكولوجي الذي يحصل بسبب لاعقلانية وفوضوية تحديد مواعيد الطقس في مثلنا حول تحديد موعد شهر رمضان، والاعتماد على شهر قمري من غير تشمسه ليحصل توافق بين شهر الطقس وشهر الموسم. كما يؤدي التباين بين موعد مشاهدة الهلال بسبب تباين فتاوي رجال الدين المبنية على رؤية ومعرفة لاعقلانية إلى إفراغ الطقس من وظيفته الاجتماعية والإنسانية. ويصبح الطقس سلوكيات يحققها المجتمع، من غير أن يكون له إرادة فعالة في إدارته، ودور في قرار مواعيده، ومن غير أن تكون له علاقة مع الوجود الطبيعي، أي مع فصول السنة والمتغيرات الحاصلة في الطبيعة، الأمر الذي يجعل الفصل ممارسات اجتماعية مجردة عن واقع وجودية الإنسان في الطبيعة كإرادة فعالة، إذ تصبح ممارسات التزام محضة تخضع حصراً لإرادة الله، ولتأويلات يتكرها وكلاؤه على الأرض. فإذا كانت وظيفة طقس العبادة تسعى إلى تهية تماسك اجتماعي سليم بين أفراد المجتمع، تصبح سلوكيات قادة المذاهب في الدين الإسلامي في مسألة تحديد طقس رمضان سلوكيات غير أخلاقية. كما أن النص الأصلي الذي أبعد موعد الطقس عن موقع محدد في موسم من مواسم السنة، وربط موعد بداية الفصل على المشاهدة بالعين المجردة، التي هي كذلك، يصبح مصدر قلق لسيكولوجية ممارسة الطقس، فيكون هو كذلك لأخلاقياً.

و الأخلاق هنا هي تلك الرؤية والسلوكيات والقيادة التي تسعى إلى تحقيق وتثبيت تماسك اجتماعي سليم. والمجتمع السليم يكون حيث تتمتع إرادات أفراد الجماعة بحرية التعامل وبالعلاقات تضامنية من جانب إرادات حرة. وتفتقد السلوكيات لفرد ما

أو جماعة الصفة الأخلاقية السليمة، إذا قبل الفرد أو قبلت الجماعة على نفسها الالتزام بإرادة غيرها ومن خارجها، أو فرضت على غيرها الالتزام.

فمثلاً، الامتناع عن سلوكيات فاسدة لا يؤلف نهجاً أخلاقياً سليماً في ما لو حصل هذا الامتناع بسبب التزام بنص أو قرار أو أمر لإرادة خارج إرادة الذات، لأن مصدر الامتناع هنا ليس من محض إرادة الفرد، وإنما مصدر خارجها. فهنا سلوكية الامتناع والموقف من السلوك سليم، لا يحصل بسبب وعي ذاتي يفترض بأن السلوكية الفاسدة ستفسد التماسك الاجتماعي، وإنما يحصل بسبب الانصياع لأمر وشرط الالتزام، بينما الموقف الذي يتسم بالأخلاق السليمة، والذي يمارس سلوكيات تحقق تضامناً اجتماعياً، سيتمنع عن الممارسات الفاسدة، لأنه يعي بأن هذه الممارسات ستفسد التماسك الاجتماعي. ويفترض موقفه من الوجود عامة بأن المعيش السليم يقتضي تماسكاً اجتماعياً تضامياً، وهو لا يتحقق بالضرورة إلا من قبل إرادات حرة.

يعتبر الفرق بين الموقفين جوهرياً، بين إرادة خاضعة ملتزمة غير حرة، وإرادة حرة متضامنة، أي الفرق بين مجتمع الالتزام ومجتمع التضامن، إذ تبني سلوكيات: الأول على التزام وخوف وخضوع لإرادة خارجة عن إرادتها، في حين تبني سلوكيات الثاني على تفاعل بين إرادات حرة، فإن تشابهت السلوكيات لهذين الموقفين لا يمكن لسلوكيات الأول أن تتصف بسلوكيات سليمة، لأن الأخلاق تكمن في مصدر الإرادة، وليس خارجها، وفي هدفها الاجتماعي، بمعنى أن التقية والالتزام يتعارضان مع حرية الإرادة، ولذا لا يؤلفان ظرفاً لموقف أخلاقي سليم.

و السبب الثاني الذي جعل رجال الدين بمعزل عن التطور العلمي هو أن أيديولوجية الدين الإسلامي جاءت أصلاً، أشبه بالإبراهيميات الأخرى، تهمل البحث في متطلبات خصائص المادة، إذ تبني علاقة مجتمع الدورة الإنتاجية مع متطلبات البيئة والتعامل معها على جدوى التعامل مع متطلبات الإنتاج، أي الوعي بمتطلبات خصائص المادة. وتنبني على هذه المعرفة صيغة تكوين وإدارة تنظيم المجتمع، وصيغة تماسكه، وعلاقات تراتبية أفراد المجتمع.

و لم يبن تأسيس الأيديولوجيات الإبراهيمية على قاعدة إنتاجية، تؤمن قوت المجتمع، والعلاقات الحرفية، بل جاءت تستند إلى قوى خارقة خارج متطلبات الإنتاج، وهي الإرادة الإلهية، الكلية القوى، أي إرادة الله. وهي الإرادة التي تتحكم في كل الظواهر الطبيعية والاجتماعية: ظهورها وجودها وحركاتها وعلاقاتها.

لذا، لم تكن مسألة خصائص المادة، وسببيات الظواهر، موضوع بحث في الفقه الإسلامي، سوى أنها ظواهر تتحكم فيها الإرادة الإلهية. هذا ما جعل رجال الدين، في الدين الإسلامي، بمعزل تام عن التطور المعرفي في العلوم عامة، وعلاقة هذا التطور في إدارة تنظيم هموم المجتمع. ويتفاقم هذا العزل المعرفي لرجال الدين، في موقعهم الاجتماعي ضمن الدورة الإنتاجية.

و لأن اكتساب قوت معيش رجال الدين هؤلاء يحصل عن طريق راتب مهياً لهم من جانب الدولة، أو تبرعات أو عطاء شعبي، وليس كحصوله لعمل إنتاج حقيقي يسهمون فيه، ضمن وعي معرفي وحسي، فإنه يجعل الفرد في تماس مع خصائص المادة^(٢٧). وهذا التماس هو الآلية الوحيدة التي تجعل الوعي يعي بضروريات المادة، وتبعاً ضروريات البقاء. وقد أدى عزل هؤلاء الرجال عن تماس عملي مع متطلبات الإنتاج، وتبعاً مع خصائص المادة، إلى افتقادهم القدرة على تفهم المعرفة التجريبية، بما في ذلك العلوم عامة، لأن العلوم الطبيعية لا تنبني إلا على الاستقراء التجريبي العملي، وعن طريق تماس واقعي مع خصائص المادة.

وهكذا اختزلت المعرفة عند هؤلاء الرجال، وانحصرت بنصوص تتضمن كلية المعرفة، أي النصوص القرآنية والحديث، لذا تفترض اليقين والالتزام. المهم هنا أن أصبحت قيادة المجتمع في المجال الديني، قيادة الطقوس الدينية المكتملة في الدورة الإنتاجية وخارجها، من جانب قادة معينين، بمعزل عن التطور المعرفي العلمي. لذا أصبحت قيادة سلبية، نسبة إلى تحقيق تماسك اجتماعي سليم. وقد تمثلت بالموقف من تحديد مواعيد طقس شهر رمضان، وعجز ربط هذه المواعيد بالمعرفة العلمية القائمة في زمنهم.

وهناك ملاحظتان تجدر الإشارة إليهما هنا:

أ- تؤلف الطقوس الرمزية أحد المقومات الرئيسية في المجتمع التقليدي التي تنبني عليها الهوية، لأن هذه الطقوس هي الممارسات الأكثر علنية، حيث يشترك فيها أفراد الجماعة كافة. وهنا يكمن مصدر كونها أداة تماسك اجتماعي. لذا يحصل اختلاف قادة المذاهب حول تحديد توقيت موعد العيد، أو إرباك توضيح الموعد، وبذلك يفسد هؤلاء أحد أهم وظائف العيد الرمزي، ويفسدون بالتالي تحقيق التماسك الاجتماعي،

(٢٧) لقد كان البعض من رجال الدين من بين المعتزلة في تماس قليل مع الحرفة في السوق، الأمر الذي جعلهم أكثر وعياً، ومدركين لمتطلبات البقاء.

و يجعلون عامل التوقيت عامل تفرقة فئوية، طائفية و مذهبية، وإرباك سيكولوجي، بدلاً من جعله عامل تماسك اجتماعي و عامل استقرار و راحة بال. هذا خاصة حينما تعلن الطائفتان: السنة و الشيعة، اختلافاً في موعد العيد.

ب- من بين أهم وظائف الطقوس الرمزية هو تهيئة صورة للاستقرار في مخيلة أفراد المجتمع، و في واقعية المعيش اليومي. و أهم ظاهرة طبيعية مستقرة، بحيث يكون جميع أفراد المجتمع في تماس مادي و معنوي معها، هي مواسم السنة. لذا ربط الدين الإسلامي الطقوس الرمزية بالشهر القمري، غير المستقرة مواعيده نسبة إلى مواسم السنة، و يكون بذلك قد أفرغ الطقس الديني من استقرارية المواسم السنوية، و أفرغه من قاعدته المادية. فتصبح قاعدة هذه الطقوس إيماناً عقائدياً، أي تلقيناً مجرداً (abstract) يفترق إلى قاعدة مادية.

كما أن من بين وظائف الطقس الرمزي، في المجتمع التقليدي، تأمين رؤية مهدئة لواقع إشكالية الزوال. بهذه الرؤية، تمنح المخيلة بديلاً للزوال، كما تمنح دعماً معنوياً، برؤية امتداد لوجود في عالم آخر، يخفف حدة الخوف من الزوال، و هو دعم معنوي سيكولوجي خداع، لأن الدعم الواقعي يتعين أن يحصل في وجود واقعي ملموس، لأن وجود الإنسان ينبنى بالضرورة على موجودات الطبيعة، و متطلبات خصائصها، و من بين أهمها ممارسة تماس واقعي مع متطلبات مواسم السنة.

إن عزل الطقوس الرمزية عن الواقع الطبيعي لمواسم السنة، يكون قد أفرغ واقع الوجود من قاعدته الطبيعية المادية، فيصبح الطقس ممارسة تفتقر إلى قاعدة مادية، بينما الوجود، و تأمين البقاء، و الحس، و الوعي به، ينبنى بالضرورة على تعامل مع واقع خصائص المادة، و إلا عجز الوعي بالوجود عن تأمين البقاء، ذلك أنه من دون تماس مع قاعدة مادية، يصبح الوجود تعاملاً مع صفات جرّدت من واقع ارتباطها الطبيعي المادي. إن تجريد الوجود بهذه الصيغة يبعد وعي الإنسان من واقع خصائص المادة، المتمثلة بمواسمها الطبيعية، فيختزل الوجود بممارسات تعبد، و يصبح تعبداً في حالة انتظار، و وجوداً يفتقد إلى الحس الاستطقي و ممارسة متطلباته، أي يفتقد إرضاء حاجة متأصلة في تكوين إنسانيته.

المعرفة و الفقه

لا شك في أن الحضارة الإسلامية أحدثت تقدماً هائلاً في العلوم و الزراعة و العلوم الطبيعية و الرياضية و الفلكية و الفيزيائية و الجغرافية، و لكن لم يكن لهذه النهضة التي

حصلت دورها المعرفي بالنسبة إلى رجال الدين ضمن الفقه الإسلامي، وما يهمننا هنا في هذه الحالة هو أن هؤلاء الرجال لم يبنوا موقفاً فكرياً معرفياً يتقبل العمل اليدوي، وتبعاً التطور المعرفي والتقاني، وأن يكون لهم دور فيه، كما حصل مع الأديرة في أوروبا خاصة، وذلك بسبب ارتباطهم الوثيق بالتنظيم العسكري وخضوعهم للسلطة المركزية العسكرية/ الخلافة، الأمر الذي سبب انزواءهم في الدين وعزلهم الكلي عن مجال الإنتاج الحرفي.

ج- طقوس الحاجة الاستيطيقية

إن ظهور الطقوس التي تدعم وجود المعيش اليومي، المتضمنة الحاجة النفعية والرمزية وممارستها، لا يشبع سيكولوجية الإنسان، لأن إرضاء هاتين الحاجتين، في واقعهما المعيش واليومي عامة، ومعيش الدورة الإنتاجية خاصة، ومن ثم إرضاءهما في المعيش المكمل بصيغه الطقوس المكملة لتلك النفعية والرمزية، سيتهي إلى مسار وجودي لا معنى له، ذلك أن إرضاء هاتين الحاجتين، سواء في معيش الدورة الإنتاجية أو معيش الطقوس، لا يمنح الوجود قيمةً خارج إرضائهما، لأن إرضاءهما يبني على هدف بقائي، وليس خارج البقاء، أي أنه وعي لوجود لا يتجاوز هموم البقاء البيولوجي المحض، ولا يسائل ما هي وظيفة هذا البقاء أصلاً. وما لا شك فيه، أن إرضاء متطلبات الحاجتين ضمن هذا البقاء يؤمن راحة البال والاطمئنان إلى سيكولوجية الفرد. ولكن بعد هذا يصبح التأمل فيه متاهة سيكولوجية، أو نهجاً لا معنى له.

لذا ظهرت لدى سيكولوجية الإنسان الحاجة الاستيطيقية، وتطورت مع تطور ظهور كيانه العاقل، وأخذت تقوم بوظيفة منح قيمة لسيكولوجية الذات داخل ذاتها. فقيمة وظيفتها لا تسعى إلى إدامة البقاء، وإنما تسخير البقاء ليتضمن معنى وقيمة مستحدثة من عند الذات، فتهدأ له القدرة على تفعيل نشوة الوعي بالوجود، أي الاستمتاع بهذا الوجود. فالاستمتاع لا يحصل بسبب تحقيق سلوكية معينة، أو اقتناء شيء، أو الحصول على مقام معين، وإنما يحصل هذا الاستمتاع في أعماق سيكولوجية الذات. ويكون شرط تفعيلها، ابتكارها في آليات نشوة سلوكيات التعامل. وهذه شروط، وظروف استمتاع، تستحدث وتبتكر في كل آنية من آليات هذه النشوة في الوجود.

ومن هنا ظهرت في معيش الإنسان منذ البدء بتكوين المجتمع المركب، طقوس الاستمتاع، أي طقوس الاحتفال بهدف لانفعي، أو هدف رمزي، وإنما استمتاع آني، تحققة قدرات حرية المخيلة بهدف تكملة وجود المعيش اليومي، ومنحه قيمة ومعنى

خارجة، وخارج متطلبات هموم الدورة الإنتاجية. وهكذا ظهرت طقوس الاستمتاع، المتمثلة بالاحتفالات والمهرجانات والألعاب الدورية والموسمية التي تخرج عن متطلبات المعيش اليومي المنبني على هموم الدورة الإنتاجية.

فالإنسان، من بين الحيوانات القليلة التي تستمتع بوجودها خارج ضروريات الإنتاج، أشبه بالدلفين (dolphin) والبعام (chimpanzee) والكلاب الأليفة، التي تقدم على اللعب، وممارسة نزوات استمتاع. وبطقوس التسلية يقطع الفرد والجماعة متصلة (continuum) سيرورة معيش الدورة الإنتاجية. أي يقطع نهج المعيش المنبني على ضروريات ومتطلبات الدورة الإنتاجية وهمومها، فيحدث فجوة في متصلة سلوكيات وعلاقات المعيش اليومي. فينتقل إلى فترات زمنية يتحرر فيها من تلك الضروريات التي تفرض ضبط سلوكيات تقنيات الإنتاج وتراتيبات العلاقات الاجتماعية (social stratifications) وهموم تكوين الهوية ودعمها. بهذا يوازن الإنسان بين الوجود كضرورة لإدامة صنف البشر^(٢٨)، وقدرة البقاء، وفي المقابل إضفاء حس بوجود ذاتي يتضمن معنى مبتكراً في آليات التعامل، على وعي هذا البقاء، ويكون منزهاً من ضروريات وهموم الحاجتين الآخرين.

وهنا تتحول الإرادة من كونها أداة تعامل آلية مع متطلبات البيئة، إلى حس يستحدث وجوداً حراً لذاته، ومع مقومات مبتكرة من مخيلته. ويحصل تحقيق هذا الاستمتاع بموجب شروط تعامل لا تحددها إلا قدرات الحرية التي تتمتع بها المخيلة.

ولذا بقدر ما تتحرر هموم المخيلة من ضروريات الإنتاج والعلاقات الاجتماعية، وتخرج عن الدورة الإنتاجية، تنطلق سلوكيات أفراد المجتمع وتنوع، وتنفلت في احتفالات، فتشعر الذات بأنها حرة لتحقيق نشوة ضمن البقاء، فتجعل منه وجوداً مستمتعاً، وتكون المخيلة قد ابتكرت بذلك قيمة للإنسانية الوجود.

تطلب الأعياد والمهرجانات والمزاح واللعب، بوصفها معيشاً خارج متطلبات وهموم الدورة الإنتاجية، تهية سلوكيات ومُصنَّعات مكملّة وموازية لرتابة والتزامات المعيش اليومي. فالاحتفال واللعب ليس استحداثاً تنوع لمصنّع، أو تنوع لتعامل ما، وإنما تنوع يقابل الوجود ككلّ، وفترات زمنية متقطعة، وجود آخر يقطع متصلة الدورة الإنتاجية والمعيش المعتاد اليومي عامة، أي أنها الآلية التي يسخرها الكيان الحي، في تحويل

(٢٨) سبيشر (species) أي صنف الكيان الحي. لذا نترجم (sex) بكلمة الجنس، ونترجم (species) بكلمة صنف البشر، أو صنف الحيوان.

الوحي، من كونه حالة عبثية، أدائية، إلى وجود يتمتع بإرادة تحرر نفسها من ضروريات البقاء، وهي تعي بقدرات حرية الاستمتاع، وتمنح هذه القدرات حرية تحقيق التنوع الذي يجعل الوجود حالة مستمتعة بذاتها.

وهكذا تتقدم المجتمعات وتُصنَّعُ مُصنَّعات كأدوات تسخرها في طقوس هذه الأعياد. وتمثل هذه المُصنَّعات بعربات المهرجانات والملابس المزينة، والأقنعة الجذابة، والقبعات المفاخرة، والمسكرات اللذيذة، والطعام الطيب، وعبق العطور الزكية، والعمارة الجميلة، وغيرها.

د- ربط الطقوس الاستيطانية بوظائف الحاجتين النفسية والرمزية

يفترض مجتمع الإنسان تماسكاً اجتماعياً منظماً ومستقراً، وإلا يصبح معيش الأفراد والجماعة في حالة فوضى وإثباط وارتباك. وقد ظهرت مع تطور مجتمع الإنسان، وتطور الفكر، ضوابط وأعراف اجتماعية تقوم بوظيفة إدارة وإدامة التماسك الاجتماعي، فتؤمن معيشاً مستقراً ومريحاً نسبة إلى غالب أفراد المجتمع. ومع تقدم تركيب تكوين المجتمع وظهور صيغ شديدة التركيب، خاصة مع ظهور الإنتاج الزراعي، وظهور الفائض في الإنتاج، وتوسع تنظيماته، وظهور إدارة مركزية سلطوية، انتقلت صورة إدارة ضبط التماسك الاجتماعي من موقعه ضمن قادة الجماعة، أو قادة القرى الصغيرة لمجتمع الصيد، إلى المدن المتوسعة المبنية على الإنتاج الزراعي، أي انتقلت من آليات السحر والأمثال ومشورة الجماعة إلى أنظمة سرمدية فوقية، خارجية واعتباطية للأفراد القادة ونزواتهم، وإلى نصوص هذه الأنظمة، والوصايا، كوصايا حمورابي، كما لو كانت خارج نزوات السلطة ولا تعبّر عن مصالحها. فأخذت هذه التنظيمات صيغ أيديولوجية دينية، كما لو كانت أزلية، أي انتقلت موقع مجلس القيادة من القرية إلى موقع خارج المجتمع، بحسب الصور الأيديولوجية التي جاءت بها الأديان المتنوعة.

لقد جلس هؤلاء القادة الجدد، الآلهة، في هذه الصور، فوق الغيوم أو الأشجار والجبال، أو تحت الأرض، بمعزل تام عن اعتباطية القادة المستأثرين بمنافع فائض الإنتاج الزراعي، وفي مأمن نقد المجتمع. وهكذا ظهرت في كثير من المجتمعات الزراعية أنظمة فوقية، دينية، تتحكّم في إدارة التماسك الاجتماعي، وفي صيغ إدارته وترابيات العلاقات الطبقية والمقامية، ورؤية الوجود عامة.

فظهرت الطقوس الرمزية مع هذه الأنظمة، وكانت وظيفتها تدعم أنظمة التماسك الاجتماعي وتمنحها شرعية أمام مجتمع متوسع، ومع مراسم شديدة التعقيد تقوم بوظيفة دعم وتثبيت أنظمة التماسك الاجتماعي.

وقد جاءت هذه الطقوس الرمزية في المجتمع الزراعي، والمراسم، امتداداً وتطويراً لتلك التي كانت قبلها في مجتمع الصيد، والمتمثلة بطقوس السحر وطقوس «الجمعيات السرية»^(٢٩) والأمثال والأعراف، وحكم المعمرين، التي استحدثتها مجتمعات الصيد البدائية.

وتنبني أهمية دور هذه الطقوس في دعم التماسك الاجتماعي في أنها تشرك عامة الناس وغالبها في مراسمها، الأمر الذي يجعل التماسك محسوساً في واقعية تفعيل إجراءات الطقوس، وخاصة في ما يخص تفعيل تكرار البعض من الممارسات، التي توحى باستمرارية وظيفة التماسك الاجتماعي واستقراره. وبهذا تؤلف عامل دعم فعال لاستقرار المعيش. لذا تتداخل وظيفة التماسك مع مفهوم العقيدة بسرمدية القوانين الاجتماعية، أي النصوص الدينية، ومتطلبات التراتيبات الطبقية والمقامية.

وبسبب أهمية هذه الطقوس الرمزية في تأمين التماسك الاجتماعي، أخذت بعض المجتمعات، أكثر من غيرها، في إضفاء تنوع في ممارسات الطقوس ومُصنَّعاتها، كتشجيع طرز الأزياء، ألوانها وأقمشتها، وحركات ومراسم المؤدين، بما في ذلك الرقص والغناء والتجويد والخطابات والمواعظ والغشيان واللطم، و«حرق النساء الساحرات»، و«حرق الققط باعتبار حرقهم هو حرق الشيطان»، وإعدام المجرمين في الساحات العامة، إضافة إلى طقوس حرق العلماء ورجال الدين والمعارضين، و«حرق الكتب»، وغيرها من تقنيات الإعلام في المجتمع التقليدي، وذلك لإضفاء سمات عاطفية وحسية وسلطوية واستمرارية ونظامية وضبطية على إدارة المجتمع. ولذا يظهر تحقق غالب ممارسات الطقوس الرمزية في دورات تتكرر في مواعيد محددة. وهكذا ظهرت الطقوس الرمزية المتمثلة بالأعياد الدينية والإثنية. وتنوعت وأصبحت عند البعض كملجأ شديدة التركيب، كالتي ظهرت في تقاليد مصر القديمة والبابلية والرومانية وإيطاليا عصر النهضة واليابان والصين.

(٢٩) ظهرت في الكثير من مجتمعات الصيد البدائية جمعيات سرية، أي تقوم بطقوس من حركات ورقص تعرض أمام الجماعة، ولكن تبقى معانيها سرية عنه، خاصة عن النساء. وهدف هذه السرية عزل نفسها في مجموعة من الرجال، وتكوين فئة ضمن الجماعة تتمتع بامتيازات، خاصة منها المقامية، دون غيرها.

إلا أنه، مهما تنوعت سمات هذه الطقوس الرمزية: الدينية والإثنية والإدارية، وتنوعت سلوكياتها وأدواتها من لباس وعربات ومسيرات وعربات وأفئعة وأجراس وصولجانات وأيقونات، ومهما تنوعت ممارساتها، من غناء وأعياد ومسيرات وتعبّد ونحيب ورقص أو لطم، إلا أنها تبقى طقوساً وظائفها تنبني على مفهوم الالتزام. لأن هذا الالتزام، وبقدر ما يكون صارماً، سيؤدي وظيفته في التعبير عن التماسك الاجتماعي المستقر، وقيادة مركزية ثابتة. سواء يتحقق هذا الالتزام تحت قيادة السلطة، المتمثلة بالإمبراطور والبابا والملك والخليفة والقاضي والأساقفة، أو بقيادة خارج المجتمع، تحت حماية أحد الآلهة المحلية، أو الإله الأكبر، أو الأوحد، كما هو في الإبراهيميات..

مقابل هذا المنحى في الحفاظ على التماسك الاجتماعي عن طريق الالتزام، والتكرار والضبط من قبل قيادة مركزية، بشرية أو إلهية، ظهرت طقوس من نوع آخر - المهرجان - الذي هو كذلك امتداد لتلك الاحتفالات العديدة الموسمية والدورية التي كان مجتمع الصيد البدائي قد ابتكرها ومارسها آلاف السنين.

وتختلف وظيفة طقوس المهرجانات والاحتفالات الاستيطيقية جوهرياً في تأمين التماسك الاجتماعي، عن الطقوس الرمزية، الدينية والإثنية والمهنية والرسومية. فكلاهما يسعى إلى تحقيق تماسك اجتماعي. ولكن، في حين ينسب الطقوس الرمزي، الديني والإثني، على تنظيم يفترض الالتزام، وتحت قيادة مركزية - يفترض التزام الذي يلغي حرية إرادة الفرد ويخضعها لإرادة خارجة عنها - تنبني بنية المهرجان، وهو طقس استيطيقي، على تنظيم تضامني، يفترض تعامل الإرادات الحرة. وهذه الحرية هي ذاتها تفترض، في الوقت عينه، وتستحدث مفهومها للحرية الشخصية، حيث يتحقق تماسك متضامن اجتماعي في تداخل وتفاعل في ما بين الحريات الشخصية المتعددة لأفراد الجماعة المتفاعلة في آليات الطقوس الاستيطيقي. فتفاعل العواطف الشخصية، وأحاسيس الوثام بين الأفراد، وتطلق في لعب وفي حرية تتجاوز الأعراف والضوابط، وتقطع متصلة مجتمع الدورة الإنتاجية، التي تهيم على معيش مجتمع الإنتاج والعبادة.

وفي حين ينسب نظام طقوس الالتزام على ضبط ذاتي ينظمه وتديره قيادة مركزية، تنبني طقوس التضامن، في المقابل، على انطلاق حرية الإرادة، حيث تتفاعل العواطف والنكتة والفكاهة والتسامح واللعب والتفاهة والطيش والتفريغ والبلاهة والمجازفة والسخافة والحماسة والخفة والسخف والهزل والمزح، والمرح، وغيرها، فتتجاوز هذه المهرجانات بهذه الإفعالات قيود الالتزام التراتبية الطبقية والمقامية، وعلاقات

الأحوال الاجتماعية المعتمدة. وتقفز وجدانية الإنسان من الالتزام المنضبط، وتنقل إلى تضامن اجتماعي متبادل حرّ، تتكر شروطه وسلوكياته في آليات التفعيل. إذاً، المجتمع بكامله، أفراد: كباره وصغاره، وذكوره وإناثه، وقادته وفلاسفته، الذي لا يلعب ولا يمزح ولا يرقص ولا يغني، يكون مريضاً، وأفرغ وجدانه من إنسانيته، أو يكون قد جرد منها، أو حرّم على نفسه ممارستها. ويكون، بذلك قد عطل قدرة من قدراته الإنسانية بإرضاء الحاجة الاستيطيقية، ويكون عجز عن منح الوجود قيمة ومعنى إنسانيين.

ولذا بقدر ما ترتبط هذه الطقوس الاستيطيقية بتلك الطقوس الرمزية والنفعية وبوظائفها، أو تخضع لمطالباتها الالتزامية، كطقوس الأديان والالتزامات الفتوية، كالإثنية، تكون قد أفرغت من وظائفها الاستيطيقية، وفقدت صفاتها التضامنية، وفرضت عليها ضوابط التزامية.

تعتبر طقوس الاحتفالات والمهرجانات من بين أهم الآليات التي يسخرها المجتمع لتحقيق تماسك اجتماعي سليم. فبدلاً من أن يحقق الاحتفال هدفه الأساسي، وهو التماسك الاجتماعي، سواء كان دينياً أو إثنياً، يصبح في هذه الحالة الالتزام بالطقوس الدينية/ الإثنية، هو الهدف. فيكون قد أخضع هدف الاحتفال الأساسي، وهو التماسك الاجتماعي، ليصبح الهدف هنا الالتزام بالطقوس الدينية. في هذه الحالة، يكون الدين، أيديولوجياً، وأحد المقومات الحادة الرمزية، ويكتسب استقلالاً من موقعه كمقوم في الحاجة الرمزية، ويكتسب حياة خاصة ونهجاً وسلوكيات لطقوسه، تصبح قوى مستقلة، أي خارج مركب الحاجة.

ومجتمع الإنسان الذي يخلو من هذه الأعياد الاستيطيقية ومصنعاتها، أو يُحرّم أو يحرّم نفسه منها، يكون قد عطل قدراته الإنسانية بالاستمتاع بطمأنينة الحاجة الاستيطيقية.

ثالث عشر: الخلل في رؤية الوجود

يولد الإنسان من غير أن يورث استراتيجيات تعامل مع متطلبات البيئة، الأمر الذي يعني أن عليه من الطفولة وحتى الوفاة، أن يتكر استراتيجيات من محض المخيلة ليتمكن من تأمين البقاء. وهو يعني كذلك أنه يتمتع بإرادة حرة، في ابتكار استراتيجيات ومواقف من الوجود تمنحه معنى، فتهيئ لموقع الذات ما يمنحها معنى، ويهيئ لها طقوساً أدائية، ما يجعل الوجود حالة سليمة ومستمتعة ما دام هو وعي بذاته.

لقد ظهرت الحاجة في تركيب مجتمع الإنسان إلى ممارسة الطقوس. و الطقس هو تلك الآلية المتضمنة رؤية و ممارسات تقوم بدعم ممارسات تحقيق إرضاء الحاجة المركبة ضمن معيش الدورة الإنتاجية. و تقوم الطقوس بوظيفة الدعم السيكولوجي لمعيش الدورة الإنتاجية، و من خارجها، أي تقوم بوظيفة منح الفكر و المخيلة فسحات من راحة و تأمل و استمتاع في تلك الفترات التي تقطع بها متصلة الدورة الإنتاجية. و ظهر الطقس مع تطور الفكر و تركيب ممارسات إرضاء متطلبات البقاء. و هو فكر يفتر إلى استراتيجيات التعامل مع البيئة. لذا عليه أن يتكرها، و يستحدث لها مرجعيات بقدر ما يتمكن من أن يراكم التجربة في ذاكرة المجتمع. فظهر الطقس ليقوم بوظيفة مكمل و مدعمة لذلك الفكر الفعال ضمن الدورة الإنتاجية، و هي وظيفة الدعم السيكولوجي. إلا أن هذا الفكر المبكر و الفعال، لا يرث أو يملك آليات قوية تتمكن من تقييم الأداء الوظيفي للطقس، في واقع الممارسة، أي جدوى دعمه لمتطلبات الدورة الإنتاجية، و كيف يتعين أن يقوم بوظيفة دعم متطلبات الدورة الإنتاجية.

بمعنى، أن مخيلة الإنسان، و قدراتها على الابتكار، لا تمتلك آلية تقييم قوية، تؤمن له معرفة جدوى سلوكيات ممارسة الطقس، في ما إذا كانت متوافقة مع متطلبات الدورة الإنتاجية أم خلاف هذا، بينما حصل واقع ظهور الطقوس أصلاً ليقوم بوظيفة الدعم السيكولوجي، كروية و ممارسة، للدورة الإنتاجية.

هذا لا يعني أن الفكر لا يمتلك مطلقاً آلية تقييم، إذ لو كان الأمر كذلك، لما تمكن صنف البشر من البقاء و تحقيق التطور الذي نقله من الإنسانيات إلى الإنسان العاقل، و تحقيق التطور الحضاري. فعندما نقول إنه لا يمتلك آليات تقييم، نقصد بذلك أنه يفقد التقييم التوتة السبرياني. لذا ينبنى التقييم في الفكر على التجربة، التي بحكم كونها تجربة، فإنها تنبنى على موقف استعادي يمتد بالزمن. و لأنه استعادي، فإنه بضرورة سببية متطلبات التقييم اللاحق بالزمن، يمتد في الزمن، و قد يمتد إلى حقبات طويلة، إلى حين يحصل تقييم لاحق، أو مناسب.

لذا، هناك احتمال أن تنزلق رؤية الطقس، و إجراءاته، و تفسد وظيفته الأساسية. فيصبح طقساً فاسداً، أي يتعارض مع تحقيق إرضاء مبتتل لممارسة إرضاء الحاجة المركبة، من حيث استفاد الطاقة و الراحة السيكولوجية، فيصبح عاملاً فعالاً في إفساد تحقيق تماسك اجتماعي سليم، سواء في مجال الحاجة النفعية أو الرمزية أو الاستطبيقية.

فبقدر ما تكون ممارسة الطقس، في مختلف صيغ وظائفه، أداة إرباك للعلاقات الطبيعية بين أفراد الجماعة، سواء أكانت تلك منها الالتزامية أم التضامنية، أو إرباك الموقف من متطلبات الظواهر الطبيعية، وكيفية التعامل معها، من حيث التوقيت والتزامن، وتوافق الممارسة مع الظواهر الطبيعية بهذا الطقس، يصبح الطقس أداة إرباك للتماسك الاجتماعي، وتبعاً إرباك سيكولوجية أفراد الجماعة.

فلذا، الحرية التي يتمتع بها الفكر، وقدرات الابتكار، معرضة لأن تصاب بخلل تقويمي، فتمرض أو تفسد، وتبخس قيمة الذات، وتفرغ من قيمتها الإنسانية، فتستغل قدرات الحرية وتصبح تابعة، خاضعة، متوسلة. وعند ذاك يوظف الوجود ويختزل بسلوكيات الخضوع والتوسل، سواء أكان هذا التوسل والخضوع لقوى دينوية سلطوية، أم قوى فوقية متخيلة.

وفي ظرف فكري مثل هذا، يتقدم المجتمع ويستحدث كيانات يمنحها الصفة القدسية، سواء أكانوا من بين أفراد البشر، في السلطة أو خارجها كالقدسين والأئمة، أم كانوا كيانات يتكرونها من محض المخيلة، كالألهة مثلاً. ويخضع غالب إرادة أفراد الجماعة لهذه الكيانات برضاء ذاتي، عن طريق التلقين، أو قوى العادة للمرجعية المشتركة.

وبما أن قدرات حرية الإرادة لا تمتلك دليلاً قوياً يقودها إلى تقييم جدوى الطقس، فتمتلك تكوين المرجعية العامة الفكرية فجوات متأصلة فيها، حيث يمكن أن تتقدم إرادات كاريزمية وتأخذ لنفسها موقعاً في هذه الفجوات، وتهيمن على إرادة الجماعة. فتفقد إرادات الجماعة إلى ممارسة طقوس إيجابية، حيث تنطلق مختلف الإرادات وتفاعل، وتؤلف كتلاً متجانسة، وتبتكر وتنافس، وتؤسس كل منها للأخرى قاعدة للابتكار والتنوع. وهكذا تظهر بين حين وآخر، هبات في حضارات من نهضة فكرية وفنية ومعلوماتية.

وفي المقابل، تظهر قيادات مريضة، تفقد إرادة أفراد المجتمع إلى طقوس سلبية كثية، تعتم حرية الإرادة، وتجعل من مجموع الإرادات كتلة خاضعة خانعة، متوسلة، خاضعة. وقد يمتد هذه الخلل في الفكر الاجتماعي إلى عدة قرون.

والفرق قليل، إذا كان هذا الخضوع والتوسل إلى إرادة فرد أو جماعة، والمتمثلة بسلطات الاستبداد، أو إلى شيء وهمي من محض مخيلة العقل المريض، كالخوف من الشيطان والألهة، والجن، والأشباح.

لذا، ما إن يحصل هذا الخلل الاجتماعي، لدى مجموعة صغيرة في المجتمع، فإن لم يحصر ويكبت، أو يهمل عامة، أو يصلح من جانب قادة المجتمع، يتوسع وسيطر على إرادة المجتمع. فتقدم إرادة هذه المجموعة الصغيرة، وتستحدث طقوساً سلبية تفرضها على تكوين المجتمع عامة. وباستمرار هذه الطقوس بالزمن، تؤسس لنفسها مرجعية فعالة، تصبح عند غالب الناس عادة، وتقرن بها هوية الكثير منهم وتبني عليها، فيستقر ذلك الخلل، وتفسد الدورة الإنتاجية سلوكياتها و مرجعيتها المعرفية. ويصبح هذا الخلل المعيش المعتاد لدى ذلك المجتمع.

الفصل الثالث

الأبتمال

لا يكتمل بحث التنوع ما لم يبحث في الوقت نفسه ضبط التنوع، لأن التنوع في واقع الوجود هو ابتكار مخيلة الإنسان، ولأن المخيلة عندما تتخيل ضمن مخاض الدماغ، لا تستنفد طاقة محسوسة، لأنها تكون خارج واقع تماسها مع المادة، أي خارج التعامل مع خصائص المادة وضرورياتها، فهي حرة في ابتكار التنوع، ولا حدود لهذا سوى عبقرية الدماغ. لذا فهي حرة في الانفلات في صورها المتخيلة، الأمر الذي يؤدي إلى إحباط وظيفة التنوع.

ولكن «التنوع» و«ضبط التنوع»، لا يفهمان، ولا يفهم واقع علاقتهما بصيغة مناسبة، ما لم يرتبط هذان المفهومان بمفهوم «الآبمال». لذا سنعالج ظاهرة الآبمال قبل أن نعالج «ضبط التنوع».

أولاً: خصائص و صفات المادة والظواهر

إن خصائص المادة هي تلك القوانين التي تؤلف الثوابت في الطبيعة، وهناك ثوابت متعددة في الطبيعة تتداخل وتتفاعل في حركاتها. ويقصد بالثوابت في علم الفيزياء بأنها غير قابلة للتغيير، أي لا يوجد قوى في الكون تتمكن من تغييرها، وإنما تتفاعل في ما بينها، وتؤثر حركات البعض منها في حركاتها وتكويناتها وتجمعاتها. فقد تمكنت العلوم المعاصرة، وخاصة في أواخر القرن العشرين، من اكتشاف أكثر من عشرين من هذه الثوابت القائمة في الطبيعة. ومن بين ما اكتشف حتى الآن من هذه الثوابت قانون «الجاذبية»، وسرعة الضوء، وعدد كبير من خصائص الموجات الإلكترونية القائمة في الطبيعة، وغيرها. هذا لا يعني تحقق اكتشاف كامل لخصائصها، وإنما أصبحت العلوم المعاصرة في دور تقدم سريع في تطورها والتعرف إليها بصيغ أكثر دقة وعددية.

تبنى خصائص عناصر المادة على الثوابت القائمة في الطبيعة. ولأن هذه الخصائص شديدة التعقيد، وقد تكون إلى ما لا نهاية، فيكون اكتشافها محدداً. ولذا تصبح المعرفة عند الإنسان دائماً في دور اكتشاف جديد لمزيد من التعرف إلى خصائصها. وربما

لا توصل المعرفة العلمية لاستيعاب مطلق لخصائصها، وقدرات حركاتها وإمكانات تجمعاتها.

ولكن ظهور الإنسان، كما الكيانات الحية من قبله، لا تنتظر لاكتشاف هذه الخصائص لتقدم على التعامل معها. وإنما تتعامل مع متطلبات البيئة بقدر ما تعي قدراتها على تعامل مبتدل، سواء أكان هذا التعامل غريزياً أم حدسياً أم تجريبياً معرفياً. بمعنى آخر، إن أي تعامل مع مادة ما، أو ظاهرة طبيعية، يفترض بالضرورة خضوع التعامل لمتطلبات خصائص المادة المتعامل معها، ولكنه لا يفترض تطابقاً بين التعامل والخصائص، وإنما يفترض توافقاً بالقدر المناسب لتأمين تعامل يؤمن البقاء، وإلا فسد التعامل، وتعرض بقاء الكيان إلى الزوال.

فالفكر، وإرادة الفرد تتعامل مع الخصائص بقدر ما تتصورها وتفهمها. لذا يكون تعامله لا مع واقع الخصائص، وإنما مع الخصائص بقدر ما يفهمها الفكر، ويكون غالباً بالقدر المناسب من توافق مع متطلبات خصائص المادة المتعامل معها، بمعنى أنه لا يمكن أن يكتمل التعرف إلى خصائص المادة، لأن هناك دائماً فجوة معرفية بين الواقع الطبيعي لخصائص المادة، والمعرفة التي يتم التعامل بموجبها. كما أن المعرفة التي يتعامل بموجبها الفكر هي عبارة عن مزيج من معرفة حدسية وحقيقة للبعض من خصائص المادة بالقدر الذي يؤهله تعامل مُجدٍ يؤمن البقاء، إضافة إلى مزج هذه المعرفة، أو إملاء فجوة المعرفة، بأساطير وأوهام وسحر وغيبيات. فيصبح التعامل مع المادة من جانب الفرد، لا تعاملاً محضاً مع الخصائص، وإنما مع صفاتها، كما هي في مخيلته. فتصبح «الخصائص» في واقع التعامل «صفات».

لذا لا بد من اكتساب الفكر قدراً معيناً من واقع خصائص المادة، ليتمكن من تعامل مُجدٍ مع البيئة الطبيعية، إذ يرث الإنسان حساً طبيعياً للبعض من هذه الخصائص التي يواجهها باستمرار. فالطفل يولد مع حسّ طبيعي لاجتذاب لخصائص الجاذبية، مثلاً، لذا يولد مع رهبة من الارتفاع.

ومع تقدم المعرفة العلمية، خاصة منها التجريبية العددية، أخذت المعرفة تقترب تدريجياً من واقع خصائص المادة. وأخذ هذا التطور المعرفي في العقود الأخيرة قدرات أسية من التطور، إذ كانت الفجوة بين الخصائص والصفات، قبل عقود قليلة، متوسعة، ومليئة بتصورات سحرية، وأوهام غيبية، وقوى إلهية حشرها الفكر بين خصائص الظواهر والمعرفة التي يتعامل بموجبها، وتبعاً القدرات التي يسخرها في

التعامل، بمعنى أن التعامل مع الظواهر والمادة يحصل دائماً بموجب قدرة المعرفة على تكييف تعاملها مع متطلبات الخصائص، ويفترض هذا قدرأ مناسباً من التوافق، وإلا عجز التعامل وفسد، وهذا ما سيعرض الفرد لخطر الزوال. يحصل هذا العجز في التعامل، إما بسبب تعارض المعرفة مع واقع خصائص المادة، حيث لا تتوافق صفات المادة في المخيلة بقدر مناسب مع الخصائص، وإما بسبب قدرة الآخر، الفرد أو الجماعة الأخرى، الانتفاع من قدرات معرفية متوافقة أكثر، أي أنها أجدر في مجال التنافس؛ وهم أجدر لأن تلك الصفات في مخيلتهم أقرب إلى واقع خصائص المادة، مما هي عند الآخرين. فيصبح تعامل الأول، مقارنة بهذا الأخير، غير مجيد، ولذا يتعرض إلى الزوال بسبب عامل المنافسة. وهكذا هو تاريخ حضارات البشر، من ظهور وضمور وأفول، كما هو تاريخ تطور الحيوان، من ظهور أصناف (species)، وتكيفها أو زوالها.

إذاً، تؤلف حالات الأبتمال الواقع الموضوعي القائم في الأشياء الطبيعية، الجامدة والحية، بينما صفة الأبتمال هي تلك الخصائص التي تعيها ذاتية الفرد، عن طريق المعرفة والحدس والتجربة. فتؤلف الصفة لخصائص المادة المعرفة الفعالة التي يتعامل بموجها الفرد، سواء أكانت مجدية ومتفاضلة مما هي في تصور الآخرين، أم متخلّفة أو عاجزة بالمقارنة بالآخرين.

ولأن خصائص حالات الأبتمال في الأشكال الطبيعية تخضع لثوابت خصائص المادة، ستظهر لحدسية الوعي بكونها صفات منتظمة تتمثل بحالات من صفات الأبتمال، فتتصف أشكالها بأنماط واضحة متمثلة بتكوينات أشكال التماثل/السمتري والتوازن والإيقاع والتناغم والتناظر ونسب التناسب، وغيرها، وذلك نسبة إلى الخطوط والسطوح والكتل والألوان والحركات. كما تظهر بصيغ أوزان وكتل وظواهر من سوائل وبخار وأشياء جامدة. وهكذا تظهر الصفات في وعي الفرد المعين، في الوعي والمخيلة، فيتعرض الفرد لهذه الحالات المتنوعة من خصائص الأبتماليات في مختلف حركاته في المعيش اليومي، بمعنى أن تعامل الإنسان مع متطلبات الوجود تبني على تعامل مع خصائص متعددة من أبتمال قائم في الطبيعة، ويعيها ويتعامل معها كصفات لهذه الحالات من الأبتمال. ومع التطور المعرفي العلمي التجريبي العددي، أخذت صفات هذه الأنماط صيغاً جديدة للمعرفة، في أنها أصبحت تتمثل بمفاهيم قوانين و ثوابت لخصائص المادة.

الخلاصة، يحصل الأبتمال في الظواهر الطبيعية بحركات لسيرورات عمياء هي ذاتها مبتملة، لأنها تخضع لضروريات خصائص (properties) المادة، فتستقر، فيحصل

الأبتمال المستقرّ نسبياً. ويحصل هذا الاستقرار النسبي عندما تستنفد الطاقة المتوفرة ضمن الحركة، سواء أكانت هي ضمن الحركة أم طاقة طارئة خارجة عنها.

و تمثل هذه الحركة، واستنفاد الطاقة، واستقرار الحركة في حالاتها البسيطة، بسقوط حجرة من أعلى الوادي إلى أسفله. فالحجرة في مسار سقوطها ستصطدم بأحجار و سطوح متعددة، وفي كل حالة من هذه سيكون مسار حركتها اللاحقة محكماً بضروريات الفعل وردود الفعل عند ارتطام الحجرة مع السطوح والأحجار في مسارها. فتؤلف كل من هذه الاصطدامات حركة مبتملة، لأنها تخضع لخصائص المادة وقوانين ثوابت الحركة الدينامية. وأخيراً، حينما تستقرّ الحجرة في أسفل الوادي، سيكون موقعها ليس حالة أمثل، وإنما حالة استقرار بعد أن تستنفد الطاقة التي كانت السبب في حركتها.

و الأبتمال في الظواهر الحية هو تلك الحالة المستقرّة نسبياً للكيان الحيّ، وهو استقرار يحصل بعد أن يتعرّض الكيان لظرف بيئي جديد يتطلب تغييراً في سلوكيات الكيان، ويفترض تغييراً في التكوين الفيزيولوجي لذلك الكيان. وعندما يحصل هذا التغير بقدر كاف، تستقر حركة التغير، وإلا تعجز قدرة الكيان عن تأمين بقاءه.

و الأبتمال في إنتاج الإنسان يحصل بقدر ما يتحقق توازن مناسب بين الطاقة المستنفدة، وقدرات المصنّع على إرضاء الحاجة المركّبة.

١ - الظواهر الجامدة

تتصف حركة الظواهر الطبيعية، الجوامد، بكونها سببية، لا تتضمن وعياً، ولا هدفاً. وتنتهي سيرورة الحركة بانتهاء الطاقة المحركة لها. وهكذا كان وصفنا للحجرة التي تسقط من أعلى الوادي، وهي كذلك في مختلف الظواهر الجامدة في الكون، سواء أكانت حركة تكوين ظهور الأجرام الكونية واصطدامها، أو حركة الشمس في المجرة، أو حركة الأرض حول الشمس. وتتوقف هذه الحركة، أو تتغير، عند استنفاد طاقة العطالة (inertia)^(١) التي تحركها أو تستديم حركتها، كدوران الأرض حول الشمس.

٢ - الكيانات الحية

تختلف الحركة جذرياً لدى الكيانات الحياتية، كالنبات والحيوان، عن تلك في الجوامد الطبيعية. فهنا الحركة شبه سببية، لا تتضمن هدفاً واعياً، وإنما تتضمن جينات تحمل

(١) وهي خاصية للمادة حيث تحافظ على وضعها في السكون أو حركة مطّردة، في ما لو لم تفاعلها قوى خارجية.

آليات تكرار نفسها، عن طريق التكاثر، فتؤلف حركة ذاتية تسعى إلى إدامة وجودها. وتحصل قدرة تأمين البقاء بقدر ما تتوافق سلوكيات الكيان البيولوجي مع متطلبات البيئة. ولكن عندما يحصل تغير في البيئة، وتبعاً لمتطلباتها، ويعجز الكيان عن إدامة البقاء، يزول. ولكن قدرة الكيان على تكرار الجينات، عندما يحصل في هذا التكاثر ظهور شاذ، ولكنه متوافق مع متطلبات البيئة المستجدة، بحكم عامل المصادفة، يتكيف الكيان البيولوجي تدريجياً مع البيئة، مع ما يحصل من تكرار جيني شاذ بقدر ما يكون متوافقاً مع متطلبات البيئة المستجدة.

و بسبب هذا التفاعل شبه الواعي المتضمن في جينات الكيان الحيّ، يصبح التفاعل المتضمن، من جهة، الطرف المتغير في البيئة، في مقابل قدرة آليات الجينات على تغيير الكيان الذي يحملها ليتمكن من التوافق مع متطلبات البيئة المستجدة. ومن هنا يستقرّ هذا التفاعل، استقراراً نسبياً. ولكن هذا الاستقرار عند الكيان البيولوجي لا يستقرّ، لأنه نسبي، ولأنه معرض لتغير لاحق في البيئة، فتبدأ دورة لاحقة من تغير الكيان الحيّ، بمعنى أن الكيان البيولوجي يحمل آلية شبه سببية، أو أنه يحمل آليات سببية، ولكنها سببية حيوية، ولذا تمتد في الزمن، وتخضع لعامل آلية التكرار التي تحملها الجينات، حيث يحصل توافقها مع متطلبات البيئة بسبب شذوذ التكرار الجيني.

و هنا مصدر إعادة التوازن بين الكيان الحيّ و متطلبات البيئة، وقدرة هذا الكيان على إدامة البقاء، و امتداد السببية في الزمن. فيتغير شكل الكيان من طير، مثلاً، مع منقار رفيع إلى عريض، و من منقار قصير إلى منقار طويل، وذلك بحسب متطلبات البيئة المتغيرة. و هنا مصدر تغير أجناس الكائنات الحية وتنوعها وتطورها في الزمن. و هناك مثل أقرب لنا، عندما انتقل الذئب البري إلى كلب مدجن، كان أول صديق للإنسان، وتطور الأساسيات إلى الإنسانيات، فإلى تطور و ظهور الإنسان العاقل.

مع ذلك، هناك محدّدات لهذا التغير و التكيف الذي من الممكن أن يحققه الكيان الحيّ. فمتطلبات كيان الشجرة، مثلاً، حصولها على ضوء الشمس المناسب، يتطلب أن تأخذ أحياناً شكلاً عمودياً لتتمكن من الحصول على هذا الضوء من بين الأشجار الأخرى، و التوزيع الجيد له بين أوراقها.

و بسبب آليات قدرات الكيان الجينية، تصبح حركة التطور، و قدرات البقاء، و ظهور الشكل الجديد، غير قابلة للتنبؤ، ولكنها تبقى سيرورات محددة بمتطلبات فيزيولوجية الكيان الحيّ. و هكذا يتحدّد ارتفاع بعض الأشجار، و لا يزيد على البعض من

الستيمترات، مع جذع لا يزيد قطره على بعض مليمترات، بينما نرى تطوراً بيولوجياً آخر لم يستقر عند هذا الحدّ، وينمو الكيان من حبة صغيرة تنقل جيناتها من حبة بحجم الطماطم، وهي تلك الشجرة المسماة «شجرة الخشب الأحمر» في كاليفورنيا، حيث تكبر وتنمو هذه الشجرة بارتفاع يصل أحياناً إلى ١٢٢ متراً، مع جذع بقطر ٧ أمتار. وهو ارتفاع ما يعادل عمارة بـ ٣٥ طابقاً.

٣- الإنسان

وبينما تستقرّ الحركة في الطبيعة لأنها هي سببية محضة، لا تستقر عند الإنسان لأنها جدلية، بمعنى أنه عندما تستنفد الطاقة في الحركة السببية، تستقر الحركة، ولا يحصل استمرار لها، أو بقول أدق، قد يحصل تعاقب حركات سببية، ولكن ستكون كل منها مستقلة عن الأخرى. ولا تحرك السببية السابقة تلك اللاحقة، وإنما تنحرك اللاحقة بسبب عامل تصادفي سببي آخر. فالسببية التي تحصل في حركة الغيم والمطر لا تؤلف نهراً إلا إذا كانت هناك تصادفية بيئية سببية أخرى. ويؤلف ظهور حبة القمح استقرار حركة الزراعة، وتنتهي الدورة بها، ولا تصبح نبتة إلا بظهور حركة سببية أخرى، أي، زراعتها وتعرضها للماء والتربة المناسبة.

إن الحركة الجدلية لدى الإنسان هي تلك السببية التي تتضمن إرادة الإنسان، والتي تتضمن هدفاً وقيماً، أي تتضمن نقل معلومات من جانب أداة واعية بنقلها وبحركتها، وهي أداة وعي دماغ الإنسان. فالمعلومات في الحركة السببية في الظواهر، كما تلك التي تسبب النمو والتغير البيولوجي، وتكون كذلك حركة نقل معلومات، ولكنه نقل غير واع. لذا تتصف هذه الحركة عند الإنسان بكونها جدلية. ولأن وعي الإرادة يكون مقوماً أساسياً بحركة نقل المعلومات خلال سيرورة الدورة الإنتاجية. فالشجرة التي يقطعها الحطّاب ويجعل منها خشباً، والخشب التي يقطعها النجار ويجعل منها كرسيّاً، تحصلان بحركة لإرادة واعية، فتحمل مادة الخشب وشكل الكرسي تلك المعلومات التي كان يتعامل بموجيها وعي الفرد الحطّاب والنجار^(٢).

ينبغي هدف إرضاء الحاجة على غريزة البقاء، ولكن وظيفة الإرادة في تكوين دماغ الإنسان هي التي تحرك سيرورة حركة الإرضاء. لذا فهو إرضاء مفترض ومبتكر من قبل الوعي نفسه، ولا يكتمل، ولا يمتلك قوانين طبيعية تحدد مسيرته، أو استراتيجيات موزّنة جينياً، أو تتضمن صوراً لجدوى سيروراته، سوى حدس معرفي، وتجربة

(٢) أرنولد هاوزر (Arnold Hauser)، مؤرخ فنون.

معرفية هي ذاتها مفتوحة، لأن قوامها هي قدرات الابتكار التي تتمتع بها حرية الإرادة. فتصبح سيروراتها، وقراراتها، وأهدافها، والقيم التي تمنحها، وميولها، وأفضليتها، وانجذاباتها، قدرات ابتكاريه مفتوحة.

وهنا يكمن مصدر أهمية التوازن في مفهوم الصفة الابتكالية عند الإنسان في تحقيق إرضاء الحاجة. وهو التوازن المناسب بين ابتكار رؤية الحاجة - الاشتناء والانجذاب والاستمتاع، وفي المقابل الطاقة المتوفرة لتحقيق أداة إرضاء الحاجة وتفعيلها لتأمين ذلك الإرضاء - المتضمنة التكنولوجيا بما في ذلك توفر المادة الخام، ومعرفة التعامل مع المادة، ومزاجية التعامل، حيث تتحقق الدورة الإنتاجية التي من خلالها يتحقق إرضاء الحاجة.

ويختلف الأمر عند الإنسان، وتخضع حركة تأمين البقاء لدماغ يفتقر بدرجة كبيرة إلى استراتيجيات تعامل مع البيئة، وفي المقابل يحمل دماغاً يتضمن قدرات ابتكار هائلة تقودها إرادة حرّة. لذا ظهر مع نمو دماغ الإنسان قدرة تقييم التعامل، وهو امتلاك الإرادة التي تقيم جدوى التعامل، ولذا تقيم مقدار جدوى إرضاء الحاجة، في مقابل الطاقة المتوفرة التي يمكن أن يسخرها في حركة هذا الإرضاء.

وبما أن الإرادة حركة واعية عند الإنسان، فإن نموها عند الإنسان العاقل قد يطور الآلية التلقائية التي يتمتع بها الحيوان ويرثها، والتي تحدد له موقع التوازن بين حركة تأمين البقاء والطاقة المستفدة. لذا أصبح على إرادة الإنسان أن تبني وتستحدث آلية الحس بهذا التوازن ضمن آليات تحريك التعامل مع خصائص المادة، أي بقدر ما تكون حركة الدورة الإنتاجية مبنية على استراتيجيات مبتكرة، كذلك ستبكر آليات تحقيق توازنها ضمن الدورة، وليس خارجها. ولكنها تبقى آليات خاضعة لحرية إرادة الفرد.

إن هذه الحرية هي التي منحت الدورة الإنتاجية عند الإنسان حرية تعيين الأفضليات. يصبح التوازن بين إرضاء الحاجة والطاقة المستفدة توازناً حرّاً ومفترضاً. فنجد الدورة الإنتاجية لدى بعض الحضارات والكليجريات تفرض توازناً معيناً ضمن مركب الحاجة، أي العلاقة بين الحاجات الثلاث.

هذا خاصة بعد أن يتمكن المجتمع من إرضاء حاجة البقاء القاعدي، أي الحاجة النفعية بصيغة من الصيغ. فيصبح تحديد التوازن ضمن مركب الحاجة حرّاً، بمعنى أن الإرادة ستطلق في توسع مخيلة رؤيتها للحاجتين الرمزية والاستيطيقية، ومنحهما أهمية وقيمة مفضلة ضمن توازن الأفضليات التي تحدّدت مسبقاً من جانب إرادة الدورة الإنتاجية.

فيتقدم المجتمع، ويسخر دورة إنتاجية يستند فيها طاقات هائلة، بعمل يدوي، أو استغلال العمل الجماعي، أو تكييف الطاقات الكامنة في الطبيعة، كالماء والهواء والأحفورية، ويحقق مصنّعات فخمة في حجمها وسعتها. فقد حققت بعض الحضارات قدرات ابتكار تميّز بصفات أبتالية هائلة، متمثلة بالأهرامات المصرية، والطرّاز المقرنص في قصر الحمراء. وقد سخرت في كلا الدورتين الإنتاجية كمّاً هائلاً من الطاقة لتحقيق علاقة مفضّلة، مقرّرة، بين الحاكم الفرعون المتوفى والإله رع، في الحالة الأولى، وفي تهينة سقف في إحدى القاعات التي يجلس فيها الحاكم مع المحكوم والزائر في الحالة الثانية. فقيمة صفة الأبتمال، وتحقيق التوازن بين المقررّين، ليس في كمّ الطاقة، وقدرة اختراعاتها، وليس في ضخامة المصنّع أو صغره، وإنما في قدرة التعبير عن مطلب ابتدئته مخيّلة فياضة، وكمّ الطاقة المناسبة لذلك، أي في تحقيق التعبير الأعلى عن متطلبات حاجة مركّبة مفضّلة، باستفاد الكمّ المناسب من الطاقة. وهنا مصدر أهمية هذين المصنّعين، نسبة إلى المجتمع الذي حققها وحقبة تحقيقها، ونسبة إلى الفكر البشري الواعي بأهمية التعبير عن الحاجة بصيغ متوازنة، والوعي بحسية الصفة الأبتالية المحمّلة في هذه المصنّعات.

إلا أن في هذا التوازن، الذي يبنّي عليه حسّ صفة الأبتمال، لا يمكن تحديد قيمة توازن الطاقة المستنفدة، من حيث الكم، نسبة إلى تحقيق إرضاء الحاجة، لا خلال سيرورة الدورة الإنتاجية، ولا من موقف استعادي تأملي لاحق، وذلك من حيث الإرضاء السيكولوجي كمقوّمات في تكون الحاجة المركّبة، لأن استنفاد الطاقة، من حيث الكمّ والنوع والكفاءة، يحصل في خصائص مادة المصنّع، كما في خصائص الطاقة المستنفدة، وكلاهما يصبح صفات محسوسة فقط، بسبب قاعدتهما السيكولوجية، ولذا لا يمكن تحديدها، وإنما تقديرها. وهذا ما يجعل تحقيق التوازن، وقيمتها، حالة نسبية، تتفرّد بها سيكولوجية الفرد الذي يحقق التعامل، سواء ضمن الدورة الإنتاجية، أو خارجها، من موقف استعادي تأملي، وذلك لأن التعامل مع المادة هو تعامل يهدف إلى إرضاء سيكولوجي وجودي.

إلا أن هذا لا يعني أن قيمة التوازن للصفة الأبتالية هي بكونها صفة حسّية وحدسية، فهي نسبية محضة. وإنها في واقعها حالة إرضاء سيكولوجي يبنّي على واقع موضوعي، لأنه واقع يبنّي على تعامل يحصل مع خصائص المادة، ولذا يبنّي على قاعدة موضوعية في تأمين الوجود، وإرضاء الحاجة، وراحة الذات المتفرّدة، وطمأننتها. فيظهر هذا الإرضاء لسيكولوجية الفرد كصفة، ولكن واقعها، بقدر ما يقترب الحسّ بهذه الصفة من

الواقع الموضوعي للتعامل مع خصائص المادة، مستحق خصائص الأبتمال و صفاته في سيكولوجية الفرد، و سبب القاعدة الموضوعية لهذه الصفة المحسوسة، الأمر الذي يجعل الحسّ بها يمتد في الزمن، ويتجاوز الدورة الإنتاجية، والكليجريات التي حققتها.

هذا ما يجعلنا نمنح قيمة لصفة أبتمالية لشكل الهرم والمقرنص في سقف قصر الحمراء، بالرغم من مرور الزمن، والموقف من الحاجة التي كانت السبب في تحقيق المصنّعين، والأيدولوجيات التي انبنت عليها تلك المصنّعات. وللسبب ذاته لا نمنح قيمة لكثير من الأنصبة التي تحققت في التاريخ، واستنفدت لها طاقات هائلة، لأن استنفاد الطاقة التي حققتها جاءت هدرًا، من دون تحقيق صفة الأبتمال. وربما هناك مثلان يمثلان هذا التباين في تحقيق صفة الأبتمال: شكل مبتمل جميل مقابل أخرق قبيح؛ الجمال الرفيع المتمثل بعمارة الجامع الكبير في القيروان والمدرسة المستنصرية في بغداد، بالمقارنة بالعمارة الخرقاء المحيطة بصحن الكعبة أو كشبة (kitsch)^(٣) قصور صدام حسين.

و بما أن قيمة الصفة الأبتمالية للشكل هي حسّ ذاتي ينشئ على موضعية خصائص الأبتمال، تظهر هذه الخصائص لحسّ الفرد عند تعامله مع الشكل بصيغ تأسست في سيكولوجية عقل الإنسان. ولذا من الممكن أن يمتد هذا الحسّ في الزمن، ويرجع إلى مصنّعات سابقة، ويحسّ ما فيها من خصائص الأبتمال بمعرفة حسية حدسية. ولكن الحس بهذه الخصائص و ما تحمل من أبتمال، ونقله ليصبح حسّاً لصفات مبتملة في المصنّعات والأشياء الطبيعية، يتطلب التدريب المعرفي والحسّي، حيث يقدم المجتمع ويؤسس كليجريات تتضمن طقوساً وأعرافاً، تقوم بوظيفة تدريب الحسّ عند أفراد المجتمع عامة. وبالرغم من هذه القدرات الحسية التي كانت تأصلت في سيكولوجية تطور الإنسان، ولكن بسبب ما تتمتع الدورة الإنتاجية من حرية لإرادة تفعيلها، تفسح هذه الأخيرة مجالاً محتملاً لإفساد هذا الحس بسبب ظروف اجتماعية أيديولوجية وإنتاجية تعليمية. وللسبب ذاته، ظهرت في تاريخ إنتاج الإنسان عمارة تتصف بالأبتمال والجمال، وأخرى لا تتصف به وتتضمّن علاقات تكوين لأشكال خرقاء. ولا نجد مثل هذا العجز الإنتاجي عند الحيوان، لأن الدورة الإنتاجية عنده تفتقر إلى قدر كبير من حرية التعامل.

تتشرك صفتا الاتساق والأبتمال في أنهما يعبران عن صورة لتركيب شكل المصنّع، بحيث يجد الدماغ عند التعامل مع الشكل أن في تركييب سمات الشكل هناك التنظيم

(٣) وهو العمل الحرفي/ الفني ذو المستوى الدوني.

الذي يوهل الدماغ لأن يصبح في قدرته التعرف إلى الدلالات والمعاني التي تحملها سمات شكل المصنّع، وذلك بسهولة مناسبة، وبقدر مناسب لتأمين تعامل مناسب.

وفيما أن الاتساق يؤلف طرائقية تهيم الظرف المناسب للرؤية التي تحقق تركيباً منظماً لسمات شكل المصنّع، بحيث يتهيأ ظرف لتلقي وتعامل مناسب مع المصنّع - أي يكون الهدف الواعي لتحقيق هذه الصفة هو تغيير مناسب بواسطة تركيب سمات شكل المصنّع ليتمكن الرؤيوي والمتلقي من تحقيق اتصال معرفي كافٍ بين المرسل والمرسل إليه، بينما صفة الأبتمال هي تعبير عن تحقيق مناسب للتوازن بين استنفاد الطاقة وإرضاء الحاجة. وإرضاء الحاجة يعني تبعاً ظرف تحقيق قدرات مناسبة للاتصال ضمن الدورة الإنتاجية، وهنا مصدر العلاقة العضوية بين صفة الاتساق و صفة الأبتمال، وتداخل تحقيق الصفتين.

ثانياً: الأبتمال والأمثل

إن صفة الأمثل، بمفهومه الدارج، هي تلك الصفة التي لا يمكن أن يحصل بديل لها أفضل، أو أن صفة الأمثل في مفهومه المنطقي هو ذلك البديل الذي يتحقق عند استمرار سيرورة التفاعل حتى يصل البديل المحقق إلى حالته النهائية، وعند ذلك تتوقف بالضرورة سيرورة الإنتاج أو التطور الطبيعي، باعتبار أن نهاية التفاعل بحالته المختمة قد حصلت، أي لا يمكن أن يحصل بديل أميز بعد هذا. لذا يؤلف مفهوم الأمثل صفةً لشيء، أو تركيباً، لا وجود له في الطبيعة، ولا في محصلات الإنتاج. بل هو حالة مفترضة في مخيلة مثالية. إنه منطق يخالف العقلانية وواقعية الوجود.

مع تطور الحضارات القديمة الزراعية في الشرق الأوسط، و ظهور مركزية السلطة، ظهر مفهوم السلطة المركزية، ومفهوم الإله المنزه، أو الإله الأعلى، وبعد هذا ظهر مفهوم توحيد الإله، فمُنحت هذه الآلهة المقام الأعلى، وتبعاً صفة الأمثل بين الآلهة والموجودات. و ظهر مفهوم الأمثل في الفلسفة، وتمثل بصيغته الأكثر انتشاراً في مفهوم «المثال» الذي جاء به أفلاطون، ومفهوم «النور المنزه» عند أفلوطين. وقد اعتمد هذا المفهوم من جانب الكثير من المنظرين في الاستيطيقية في مختلف العهود، ولم يزل مفهوماً معتمداً لدى الكثير من المنظرين المعاصرين. وهذا المفهوم، يعتبر في فحواه أن التكوين الشكلي للمصنّع الذي يتمثل بالقطعة الفنية الممتازة، الرائعة، يكون قد اكتمل واختتم، بحيث إن أية إضافة إليه أو حذف منه ستفقد من كماله. و سنشير في فقرات

لاحقة إلى اعتماد هذا المفهوم من جانب الكثير من المنظرين، فهو مفهوم يستند أساساً إلى رؤية مثالية غيبية.

وسيكون من المفيد الإشارة هنا إلى مفهومي الحد الأقصى والحد الأدنى. إن هذين المفهومين هما أشبه بمفهوم الأمل، أو أنهما مرادفان له. فهما مفهومان من المفترض أن يكونا منطقتين، ولكنهما غير واقعيين، ولا يحصلان في واقع الوجود، لأنه منطقياً يمكن تجاوز الحدود المفترضة في المنطق نفسه الذي يفترض الحدّين، في حين يعتبر مفهوم الأبتمال، كما أشرنا، وصفاً للحالة الطبيعية لحركة الأشياء، واستقرارها النسبي في حالة ما.

ثالثاً: ظهور مفهوم الأبتمال في المجال الحياتي

ظهر مفهوم الأبتمال العلمي، وأخذ صيغاً واضحة مع التطور العلمي في تفهم التطور الحاصل في العضويات، أي ظهرت مبادئه الأساسية مع تطور مفهوم آلية الاصطفاء الطبيعي التي جاء بها دارون. وقد أقدم مؤخراً كثير من علماء البيولوجيا، منذ الستينيات والسبعينيات، على تطوير مفهوم الأبتمال في المجال البيولوجي. ومن بين أهم هؤلاء: ماينارد سميث (Maynard Smith)، وداوكنس (Dawkins)، وجون دوبري (John Dupre) وغيرهم كثيرون. ويفترض مفهوم الأبتمال عامة أن التكوين الشكلي للشيء هو تلك الحالة التي تحصل نتيجة لسيرورة من تفاعل سببي، حينما يتوقف التفاعل ويستقر، بعد أن تستنفد الطاقة الكامنة في الحركة التي حصلت بين متطلبات البيئة، وفي المقابل فيزيولوجية الكيان الحي. وتستنفد قوى هذه الطاقة المحركة في هذه السيرورة، حينما تكون حققت سبب ظهورها، أي ظهور حاجة تغيّر شكل الكيان العضوي، أو البعض من فيزيولوجية أعضائه، وذلك ليصبح الكيان عامة ممتلكاً لقدرات تأمين بقائه بصورة أكثر ملاءمة مع البيئة، أو يصبح باستطاعته أن يتمتع بقدرات متوافقة مع متطلبات البيئة بالقدر المناسب.

وهكذا، تتوقف الحركة، ويستقر شكل الكيان الحي، ويواجه متطلبات البيئة الجديدة. وتنبني سيرورة هذه الحركة على تصادفية حركة الجينات عند حصول التكاثر. وفي حالة عجز تصادفية التكاثر عن إنجاب شكل يتمكن من الملاءمة مع المتطلبات الجديدة، سيعجز الكيان العضوي عن تأمين البقاء ويزول. ولذا فهي سيرورة عمياء أشبه بما هي في الطبيعة الجامدة، لأنها لا تتضمن هدفاً واعياً، سوى إدامة وجود الجينات عن طريق

تأمين بقاء الكيان العضوي الذي يحقق التكاثر، بمعنى أن سيرورة تغير شكل الكيان الحي ستنتهي حال ما يصل تغير فيزيولوجية الكيان العضوي إلى الشكل الملائم المناسب.

إن الكيان الحي العضوي لا يفكر ولا يطمح إلى مستقبل أفضل. لذا نجد بعض الأسماك التي تعيش في قعر المحيط، والتي لم تتعرض لتغير في بيئتها خلال مئات آلاف السنين، إذ لم يتغير شكل تكوين بدنها.

ولذا لا يجوز أن نتكلم هنا على خصائص المادة بحالاتها المحضة، وإنما نتكلم على خصائص المادة الفيزيولوجية التي تكون البدن، واستجاباتها التصادية لمتطلبات البيئة، بمعنى أن الكيان العضوي يتضمن قدرات على تغير فيزيولوجي حي، وهي محتملة لا تحصى، ولكنها تبقى عمياء لأنها خاضعة لعامل المصادفة في سيرورات التكاثر، أي خاضعة لآلية الاصطفاء الطبيعي، وآلية الاصطفاء الطبيعي خاضعة لعامل الشذوذ في تكاثر الجينات، وتصادفية بقاء الأنسب منها. وبقدر ما تتوافق هذه مع متطلبات الشكل المحتمل المناسب الجديد، تصبح صيغة استقرارها غير جامدة أو محتمة، وإنما تأخذ سيرورة احتمال بدائل وصيغ وانحرافات متعددة لا تحصى، بمعنى أن حركة الكيان الحي تتضمن احتمال بدائل تسلكها فيزيولوجية البدن، وتكون آليتها معرضة لعوامل المصادفة، حيث تحقق تفعيل الاستجابات الفيزيولوجية. ولأن عامل المصادفة هو الذي يختار البديل من بين الشذوذ الجيني، فهي سيرورة طبيعية عمياء.

هذا لا يعني أن وعي الكثير من الحيوانات بوجودها لا يسهم في حركة آلية الاختيار للبدائل، بل بقدر ما يكون الحيوان واعياً بطرف وجوده، يصبح عنصراً فعالاً في تحريك اتجاه آلية الاصطفاء الطبيعي.

فعند الكثير من الحيوانات التي تمارس الجنس يحصل اختيار الطرف الآخر في عملية التجماع بهدف الإنجاب والتكاثر، بسبب تفضيل للشكل، حيث يصبح اللون أو الحجم أو تكوين الشكل عنصراً فعالاً في تفضيل الطرف الآخر في التجماع. فمثلاً يكون زهاء لون ذكر الطاووس عاملاً فعالاً في اختيار الأنثى للذكر، أو يعبر هذا اللون عن صحة جيدة، الأمر الذي يجعل ذلك الذكر يتمتع بقدرات تنافس أكثر من الذكر الآخر؛ أو يعبر قرن الأيل الأكبر والتميز في شكله عن صحة وقوى الفعل، كما يكون الأداة الفعالة ساحة التنافس والمعركة على الحصول على الأنثى. هذه الخيارات واعية من جانب الحيوان. فهنا اللون الزاهي، والقرن الكبير المتميز في الشكل، يعبران عن حالات من الأبتمال في صحة الحيوان المعين، لأن تحقيق هذا الغلو في المظهر، من ألوان

و تضخيم الشكل، يتطلب استفاد طاقات كبيرة في ظرف النمو وإدامة الوجود. كما يتمثل هذا المنحى الطبيعي، إضافة إلى ذيل الطاووس، و ضخامة قرن الأيل، بضخامة فرو عرف الأسد، و احمرار عرف الديك، و كثافة فرو ذيل السنجاب، و القدرات الابتكارية و الألوان المتنوعة التي يحققها طير العريشة في بناء السقيفة التي يستقبل فيها الأنثى، أشبه باستقبال الغني عروسته في قصر ضخم. و هناك منحى ثالث تمارسه بعض الحيوانات، في إظهار تفوقها و مهارتها، و تبعاً ذكائها و صحتها، و هو تصنيع المصنعات التي تفاضلها، كالطيور و القندوس التي تحقق عمارة الأعشاش.

رابعاً: الملاءمة و الأبتمال

إن من بين مقومات الأبتمال هو ملاءمة الاستراتيجية لمتطلبات البقاء، أي أن الملاءمة هي إحدى الصفات الضرورية، و شرط لحصول خصائص الأبتمال. و الملاءمة هي الظرف النفسي لإرضاء الحاجة، بقدر ما يتحقق السرور و الإرضاء و الراحة، بكونها الحصلة للدورة الإنتاجية- أي ملاءمة وظيفة المصنّع للحاجة التي يتم إرضاؤها، و بصيغة مناسبة، بمعنى أنه ستتحقق رؤية التكوين الشكلي للمصنّع، و بالتالي تحقيقه بصيغته المادية، بحيث يفترض عند التعامل معه، بالصيغة المناسبة لسيرورات التلقي، أن يتحقق إرضاء الحاجة. و بقدر إرضائها ستتحقق سرور الذات، و راحتها و طمأننتها، و بقدر ما تهتم هذه الحاجة التي يتم إرضاؤها، ستمنح الذات لهذا الشكل قيمة و أهمية. و بقدر ما تعجز معالم المصنّع عن تأمين أداة الوظيفة الملائمة مع إرضاء الحاجة، سيتم في النتيجة تعديل التكوين الشكلي للمصنّع، أو إهماله و استبداله بشكل آخر. لذا، تنبني قيمة التكوين الشكلي للمصنّع على الملاءمة التي تعيها الذات، أي على المعرفة و المخيلة و العاطفة، لكفاءة الشكل في أداء و إرضاء الحاجة.

فهل هذا يعني أن موقف الذات من شكل المصنّع ملائم كأداة تسخره في إرضاء الحاجة، و تبعاً فإن إرضاء الحاجة الاستيطيقية، بما في ذلك الحسّ بجمالية الشيء، هو موقف ذاتي، نسبياً، كما يعتقد الكثير من المنظّرين. و الجواب، كما أشرنا، هو أن قيمة صفة الأبتمال لشكل المصنّع تنبني على موقف ذاتي. و لكن هذا الموقف يحصل من خلال تعامل الذات مع مادية المصنّع، أي مع خصائص المادة، و خصائص الإبتمال. لذا، فهو موقف ذاتي يبنى على قاعدة موضوعية خصائص المادة، و الحسّ الموضوعي الحدسي لهذه الموضوعية. و من غير هذا الحسّ الموضوعي سيصبح التعامل خارج واقعية وجودية الذات و التنظير فيه، لا أكثر من فرضيات غيبية.

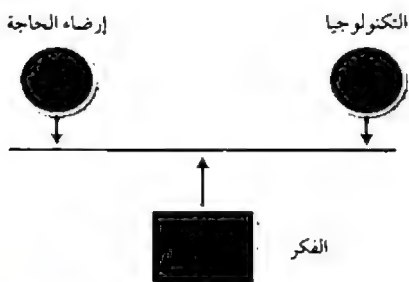
و من ناحية أخرى، فإن الدورة الإنتاجية تتضمن إرادات متعددة متباينة لإرادات أفراد المجتمع، سواء أكان ذلك بسبب تعدد الأفراد الذين يحققون تفعيل الدورة في مختلف مراحلها، أم بسبب تعدد مقومات المرجعية التي تؤلف القاعدة المعرفية للدورة. وبذلك القدر، ستتوحد الملاءمة كسلوكيات وقيم يحققها مختلف الأفراد في مختلف مواقعهم في المجتمع، ونسبة إلى المصنّع كأداة. وستتوحد هذه الملاءمات أكثر بسبب عوامل المصادفة الطارئة التي يتعرّض لها الفرد المعين. إذًا، تصبح نظرية الملاءمة فارغة، وتعبّر فقط عن حالات عينية، ذاتية محضة. لذا سيعجز مفهوم الملاءمة كنظرية عن تفسير إرضاء الحاجة الاستيطيقية ما لم يقترن الموقف الذاتي الذي يقيم الملاءمة بقاعدة مادية، وهي خصائص الأبتمال، وهي قوانين خصائص المادة التي تحدد حالة أبتمالية التكوين الشكلي للمصنّع.

و عندما تؤلف حالة الملاءمة حالة سلوكية في إرضاء الحاجة و كفاءة طمأننتها نسبة إلى الفرد المعين، فستؤلف معرفة وصفية لسلوكيات وأحداث، لذا ستؤلف معرفة نظرية لحالة الأبتمال والقدرة على تفسير الملاءمة في إرضائها للحاجة المركبة، بما في ذلك الحس بصفة الأبتمال. هذا لا يعني أن تتضمن هذه النظرية القدرة على تنبؤ شكل المصنّع، وكفاءته في إرضاء الحاجة، لأن الحاجة ذاتها، والتعامل مع المادة، هي التي ستحمل الشكل المبتكر للمصنّع، كما سلوكيات التلقي التي ترضي الحاجة، بأنها تنكيف بالإرادات المتعددة للأفراد، ومزاجهم المتباين، وقدرات ابتكاراتهم في التعامل خلال مختلف مراحل الإنتاج، وبظروف علاقاتهم الاجتماعية والإنتاجية.

اللوحة الرقم (٣-١)

أداة توازن القطبين

تحقيق صفة الأبتمال



مع ذلك، بسبب العلاقة بين سلوكيات الأفراد في تعاملهم مع مادة المصنّع، وعضوية فيزيولوجية البدن، فإن التعامل يصبح بالضرورة تعاملًا مع خصائص المادة التي تتحكم فيها قوانين ثابتة في كل مكان وزمان، وبقدر ما هي علاقات بين مادة وعضوية بدن الإنسان، التي تحدد بقدر معين من المتطلبات الحياتية العضوية والسلوكيات المقترنة بها.

خصائص الأبتمال / ظاهرة الأبتمال: تحقيق خصائص الأبتمال

و القدرة على البقاء

إن مفهوم الاستيطيّة يبني على تفهّم ظاهرة الأبتمال. لذا سيكون من المفيد أن نشير إلى بعض العلاقة الوجودية لظاهرة الأبتمال في الأشياء.

بقدر ما يعي فرد بخصائص الأبتمال في شكل المُصنّع وفي تفعيل التصنيع، سيتمتع هذا الفرد، مقارنة بسلوكيات الفرد الآخر، بقدرات أكثر تؤمن له بقاءً آمناً من الذي يعجز عن تحقيق تعامل يتصف بحالة مبتملة بالقدر ذاته. فبهين هذا التعامل الحسن بالاطمئنان النفسي، أي، بقدر ما يعي الفرد بخصائص الأبتمال، سيكون واعياً للعلاقة بين تحقيق خصائص الأبتمال وتأمين البقاء، فيشعر هذا الوعي بحسّ طمأنة الوجود. ومع نمو هذا الحسّ ونضوجه، وتأمل في خصائص الأبتمال التي يحققها، وقرنها بأشكال الأشياء الطبيعية، وحركاتها، سينمو وينضج حدسه لخصائص الأبتمال كصفات في أشكال المُصنّعات والظواهر الطبيعية. وبهذا القدر سينمو وينضج الوعي بطمأنة الوجود لدى الإنسان في معيشه اليومي، ومع هذا الوعي ستحصل نشوة الوجود.

من هنا أخذ الفرد الإنسان يستحدث ويتكر مصنّعات وممارسات وسلوكيات تؤمن له تنوعاً في متعة نشوة الوجود، يحسّها حدسياً ومعرفياً، ويمارسها بموجب طقوس تبتكرها مخيلته، حيث تكون وظيفتها ضبط التنوع وإدارة سلوكياته. وعندما أخذ يتأمل خصائص الأبتمال في المصنّعات، وسلوكياته نحوها، وتأملها فيها، وفي ما بعد تفلسفه فيها، أوجد لها صفات وتعريف، واصطلح عليها بالجمال، والكمال والرشاقة والأناقة. وبقدر ما يعجز الإنتاج عن تحقيق خصائص الأبتمال المناسبة، تظهر أشكالها للحسّ الحدسي لصفة الأبتمال، حالات من صفات خرقاء وقييحة وفاسدة ومبتذلة وملوثة. لذا يهملها ويتبذرها، بقدر ما يكون حسه الوجودي قد استوعب ضروريات الخصائص الأبتمالية في التعامل معها، ويكون اقترانها مع تلك القائمة في الظواهر الطبيعية. إن التعايش مع الأشكال التي تفتقد الخصائص الأبتمالية، واستمراره، سيفسد الحسّ الحدسي والمعرفي لها، وتبلّد صفاتها الأبتمالية، وتبعاً يعجز عن منح القيمة الجمالية للأشياء المصنّعة والطبيعية. لذا، بهذا القدر، سيفسد الحسية التي تتمتع بها وجودية الإنسان، والتي تأصلت في وعيه مع نمو وتطور هذا الوعي.

خامساً: الدورة الإنتاجية و تحقق الصفة الأبتمالية

١ - الحركة المبتملة و استنفاد الطاقة

تفترض خصائص حركة الأبتمال أن كل حركة في الوجود، سواء أكان في قياسها الميكري كالحجرات، أم في قياسها الحياتي، ذلك المتوسط كحجم بدن الحيوان، أم بقياسها الماكري ككيان الكون بأجمعه، تتضمن الطاقة التي تسبب الحركة. و ما إن تتفاعل الحركة، فإنها ستجد البديل الأقصر و الأقل لاستنفاد طاقتها. و شرط هذه الحالة أن لا تتضمن هذه الحركة إرادة، كإرادة الفرد من البشر، ذلك أن إرادة الفرد لا تمتلك معرفة متكاملة و مطلقة لحركة خصائص المادة. و لذا يكون دورها في الحركة تجريبياً، لا يتطابق مع البديل الطبيعي المبتمل للحركة المعينة.

كما أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يولد بعوز لاستراتيجيات التعامل مع الطبيعة، فعليه أن يتكرها، ولا يوجد في الجينات الموروثة دليل على كيفية تحقيق تفاعل و تعامل مع الأشياء، من دون أن تكون خارج الأبتمال، سوى تعرض الوجود إلى الخطر و الزوال.

٢ - ظهور المصنّع إلى الوجود

يظهر المصنّع إلى الوجود عندما يعي الفرد، أو الجماعة، أن هناك حاجة إلى استحداث مصنع جديد. فيتحرك الفرد الواعي بهذه الحاجة لبدء دورة إنتاجية جديدة. تتحرك هذه الدورة بتفاعل الفرد في حركة متفاعلة بين المطلب الاجتماعي و التكنولوجيا الاجتماعية، في سيرورة جدلية. و تحصل في هذه الدورة سيرورتان لحركتين متداخلتين:

أ - التفاعل بين المادة الخام، كالخشب و الحجر، و في المقابل الأدوات، كالمنشار و المطرقة و الإزميل. يتصف التفاعل هنا بسيرورات جدلية، لأنها تتضمن فكر الفاعل الذي يحرك تفعيل المادتين: الخام و الأدوات. و تتضمن سيرورات سببية، لأنها تتضمن حركة خصائص مادة الأدوات المتفاعلة مع المادة الخام.

ب - هناك سيرورة أخرى، متداخلة، و هي حركة الفكر في تفاعلها مع مادة الأدوات في تفعيلها مع المادة الخام، و هي حركة تتضمن هدف تغير شكل المادة الخام لتأخذ التكوين الشكلي المفترض مسبقاً لحركة الدورة الإنتاجية.

إن ما يهمنا في العلاقة بين شكل المصنّع كأداة ملائمة وهدف إرضاء الحاجة، هو الآلية التي تحقق الشكل ومحددات هذه الآلية، لأن وظيفة شكل المصنّع هي تحقيق إرضاء الحاجة، ومن دون هذا سيعجز المجتمع عن إدامة البقاء. لذا يتعين التعرف إلى الدورة الإنتاجية التي تجعل إدامة البقاء ممكنة.

إن البنيوية العامة لهذه الآلية هي تفاعل قطبين، يفاعلهما الفرد بصفته جزءاً من المجتمع: المطلب الاجتماعي مع التكنولوجيا الاجتماعية، وقد أشرنا إلى هذه الآلية في الفقرة السابقة، وهي الآلية التي تحقق تقدم الإنتاج، وتبعاً تهئ ظروف ظهور الكلجريات والحضارات، التي بنت تاريخ البشر. فهناك في القطب الأول، المطلب الاجتماعي الذي يتضمن حاجات الأفراد ضمن الكلجربة المعينة، كما هناك تلك الحاجات العامة التي يشترك فيها كافة أنواع البشر. أو في القطب الثاني، هناك التكنولوجيا التي تتضمن المادة وخصائصها الثابتة، إضافة إلى المعرفة المتغيرة.

فخصائص المادة هي ثابتة في كل مكان وزمان، الأمر الذي يعني أن الفرد، في أية حالة يكون، إن من ناحية المعرفة أو الوضع الاجتماعي، فهو يتعامل مع المادة نفسها. ولذا تكون قاعدة المعرفة ضمن الدورة الإنتاجية هي خصائص المادة. وهي المعرفة الأولى التي يتعين التعرف إليها، سواء كانت تعرفاً مباشراً تجريبياً، أم حدسياً، وذلك بالقدر المناسب لتأمين تعامل مجيد، وإلا لما تمكّن البقاء، مهما ابتكرت المخيلة من أوهام سحرية وإرواحية في تصورها لواقع المادة، أو تصوراتها في ما يخص كيان وجودها بين الأشياء.

فوجود المادة في الطبيعة هو دائماً في حالة مبتملة، الأمر الذي يعني أن التعامل مع أشياء وموجودات الطبيعة هو تعامل في واقعه مع حالات متنوعة من الأبتمال، ولا تحصى من الأبتماليات، في حالات حركة أو مستقرة، الأمر الذي يعني أن تعامل وعي الإنسان مع المادة، دائماً وفي كل الحالات، هو تعامل مع حالات من الأبتمال، ومنها حالات بسيطة سهلة الفهم، ومنها حالات شديدة التركيب والتعقيد.

الأبتمال في الأشياء والظواهر الطبيعية هو حالات الاستقرار التي تحصل بعد حركة لمادة طبيعية. وهي بالضرورة حركة تستنفد الحد الأدنى المطلق من الطاقة، نسبة إلى ظرف التضاديات والطوارئ التي تتعرض لها. وصورة بسيطة جداً، سهلة الفهم لحدسية الفكر، هي سقوط حجرة من أعلى الوادي واستقرارها في موقع في أسفله، وقد أشرنا

إلى هذا سابقاً، إذ ما إن تبدأ حركة السقوط، فإنها ستسير بأقصى خط نحو الأسفل و ترتطم بجسم آخر، و بسبب حركة الفعل و ردّ الفعل، ستنتقل سرعة الحركة و قوى ارتطامها، بالاتجاه المحدد و المطلق برد الفعل، نحو جسم آخر في اتجاه الأسفل، و هكذا في تعاقب من ارتطام و انبثاق إلى أن تنتهي بارتطامها الأخير في أسفل الوادي و تستقر هناك. تعلم المعرفة التجريبية و الحدسية لفكر الفرد الإنسان أبتمالية هذه الحركة. و بهذه المعرفة يكيف الفرد سلوكياته لتلائم مع اتجاه سقوط الحجرة و يتجنب أذيته له. و هكذا تتكيف حركات طيران العصفور مقابل حركة طيران الصقر، و سرعة مناورات الأسد مقابل سرعة الغزال، الأمر الذي يعني أن الفرد يواجه، كما كافة الكائنات الحية، حالات من الأبتمال في كل تعامل يحصل مع الأشياء الطبيعية، أو لا يتحقق تعامل مع الأشياء الطبيعية ما لم يكن تعاملًا محددًا بخصائص المادة، لذا يكون تعاملًا بحالة من الأبتمال. و لذا لا بد من أن يعي الفرد بقدر من واقع هذه الأبتمالية. و من دون تعامل مناسب مع حالة الأبتمال، و لو بقليل من ملاءمة مع متطلباته، لعجز الفرد على تأمين إرضاء الحاجة، و تبعاً لعجزها تأمين البقاء. ربما يؤلف ابتكار القوس و السهام حالة أعقد من سقوط الحجرة التي أشرنا إليها، إذ يتطلب التعامل مع القوس، كأداة صيد، تفعيل تصور أبتمالية شدة القوس، و شكل السهام و انسيابيتها ضد مقاومة الهواء، و الطاقة و السرعة المطلوبة لدفع السهام في الهواء، و العلاقة بين التصويب و المفترس، خاصة عندما يكون هذا الأخير في حالة حركة، و غيرها من القدرات السبريانية المرتبطة باستعمال أداة تتطلب معرفة و تقدير لتحقيق تعامل مبتمل يسعى إلى التهديف إلى شيء يكون في حالة حركة.

٤ - الاستراتيجية المستقرّة

إن هدف الدورة الإنتاجية هو إرضاء الحاجة بصيغتها المركبة، و لذا ما إن تتحقق دورة ما، و تحقق هدف جماعة معينة، فيستحق تكرارها من جانب الجماعة نفسها في دورات لاحقة، بوصفها استراتيجية ناجعة لإرضاء الحاجة المركبة، و لكونها تؤلف بديلاً مفضلاً مقارنة بالبدائل الأخرى. و المفضل يعني أنه شكل تمكّن من اكتساب قيمة إرضاء الحاجة لدى الجماعة. و يتعدد هذا الرضاء و يتنوع لأسباب تكنولوجية و اجتماعية، بما في ذلك: رغبات و نزوات سلطوية، و مصالح احتكارية، و فاشن (fashion)، أو مصالح سوقية و غيرها.

و عندما تتكرر الدورة الإنتاجية، تصبح حالة مستقرّة لشكل ما، كاستقرار طراز يمتد في الزمن. و يتمثل هذا الاستقرار باستعمال فئة من المجتمع، أو فئات متعددة، لمدة

طويلة لشكل مصنع معين. كما تمثلت باستعمال كرسي ثونية (Thonet)^(٥) في بداية القرن العشرين. وكما استعمل المجتمع السومري شكل إناء معين لمدة أكثر من ألف عام، يستعمل المجتمع اللبناني عامة صحن «الحمص» عينة من حيث الشكل واللون والقياس، وذلك من جانب مختلف الفئات والطبقات.

إذاً، بقدر ما استكرر الاستراتيجية المعينة في تحقيق الدورة الإنتاجية، ستؤلف استراتيجية مستقرة نسبياً. وستعني الاستراتيجية المستقرة^(٦)، نسبة إلى تلك الجماعة، أو المجتمع، أنها ما زالت معتمدة، وفعالة. كما ستؤلف قاعدة لتأسيس خبرة ومعرفة لظهور استراتيجيات مستقبلية جديدة، بسبب التهذيب والتحسين اللذين يطرآن عليها، أو بسبب رفضها واستبدالها باستراتيجيات مغايرة، سواء أكثر كفاءة أم أقل.

تكمن قوى تحريك تغير استراتيجيات الدورة الإنتاجية، وتعديلها أو استبدالها، في طبيعة الوعي الذي يؤمن البقاء، والذي تستورثه غريزة نوع الإنسان. وهو الوعي الذي تبني عليه المعرفة التجريبية الواضحة والحدسية الضمنية، من حيث كم ونوع خصائص الأبطال القائمة في مرحلة التصنيع والتلقي، وتوافق هذا مع إرضاء الحاجة، ووعي الجماعة بقيمة هذا الإرضاء وكفاءته. إذاً، تبني ملائمة الأداة نسبة إلى الحاجة المعينة، في الزمن، والمجتمع، على خصائص الأبطال، سواء أكان إدراكها واضحاً معرفياً أم حدسياً ضمناً.

لذا يعتبر التعرف إلى خصائص الأبطال، من حيث الكم والنوع، أساساً في تحليل كفاءة إرضاء الحاجة المركبة، بما في ذلك الاستيطيقية^(٧).

سادساً: أطوار الإنتاج

هناك أربعة أطوار جذرية اتسمت بها الدورات الإنتاجية، في السياق التاريخي لتطور الحضارات منذ أن ظهر الإنسان العاقل. وكل منها انبني على المعرفة الموضوعية، سواء التجريبية الواضحة أو الحدسية، حيث تبني للذات الواعية مرجعيات معرفية، تتضمن قواعد وأعرافاً وعادات ومناحي، وتؤلف التقاليد والعادات والمعرفة التي تحقق تفعيل الدورة الإنتاجية.

(٥) «مقام الجلوس في دار عارف آغا».

John Durpré, *The Latest on the Best: Essays on Evolution and Optimality* (London: The MIT Press, 1987), pp. 1-4.

(٧) المصدر نفسه.

و عن طريق الدورات الإنتاجية التي تحققها الإرادة، يحصل تطور الوعي بخصائص المادة، والحس بها كصفات أبتمالية تتسم بها أشكال المصنّعات. ومن خلال هذا التفعيل تقتزن هذه الصفات لأبتماليات في سمات المصنّعات، وتداخل مع تلك التي يحسّها والقائمة في الظواهر الطبيعية، حيث تؤلف كلّ منها قاعدة للحسّ بالأخرى.

وتظهر، ضمن أطوار الدورات الإنتاجية، وتختلط مع المعرفة الموضوعية أوهام وسحر وأساطير، وأحياناً أيديولوجيات تقضم القدرة على سعي الإرادة و قدرة الوقوف على معرفة موضوعية. مع ذلك، مهما كانت نسبة هذه الأوهام، وأفعالها في تعطيل تفاعل مجدّد مع خصائص المادة، فلا بدّ للدورة الإنتاجية من أن تحقق الكمّ المناسب لتأمين البقاء، وإلا تتوقف صيغة الدورة الإنتاجية وتستبدل بصيغة أخرى، وخلاف ذلك يعرض البقاء لخطر الزوال.

لذا لم يكن تطور الإنتاج بمراحل سلسلة من مرحلة إلى أخرى، بل تداخلت المراحل وتعارضت صيغها. الأمر الذي أدى إلى تباين في التفاعل الجدلي بين الحاجة الاجتماعية المركّبة والتكنولوجيا الاجتماعية. فأحياناً يكون قطب الحاجة الاجتماعية هو الفعّال والمتقدم والمؤلف لقوى تحريك جدلية الدورة الإنتاجية، فيتحقق تفهم أكفأ، وحس مرهف للأبتماليات المبتكرة والقائمة في الأشياء. وأحياناً، العكس، حيث تعجز الدورة الإنتاجية عن تحقيق مناسب لتفاعل جدلي بين المقرّرين، ويكون مكرراً ومملأً، وأحرق غير مهذب، أي هناك دور فعّال للأوهام التي تتداخل مع المعرفة في دفع جدلية الدورة الإنتاجية نحو تفعيل متسارع في تهيئة كلجريات تدعم وتهذب الناس وتدرّبهم على قدرات حسية مرهفة بالسمات الأبتمالية، والتعامل معها، وابتكارها، بينما في المقابل هناك الأوهام التي تفرغ الدورة الإنتاجية من قدرات الابتكار، فتعطل معها القدرات الحسية التي يتعامل بموجها أفراد المجتمع مع الخصائص الأبتمالية القائمة في الأشياء، والتي تصنع من جانبها، والقائمة في الطبيعة. فمثلاً، كانت الأساطير المسيحية التي امتزجت مع الأساطير الكلاسيكية التي انبعثت في العصر النهضة، حيث أصبحت القاعدة الابتكارية والحسية لتحقيق مآثر فنية هائلة. ومن قبلها أوهام مسيحية أخرى مغلفة في القرنين السادس والسابع، الأمر الذي أدى إلى رفض الكثير من الفنون، بل تحطيمها. كما امتزجت أيديولوجية الدين الإسلامي بأوهام أدت إلى نبذ الكثير من الفنون، ومن بينها النحت والرسم والموسيقى والرقص.

لذا تتكون قدرات الحس بصفات الأبتماليات القائمة في الأشياء، والمبتكرة من جانب الدورة الإنتاجية المعيّنة في تاريخ بعض الحضارات، فتؤلف مراحل حضارية،

أو موجات من حس غني و متألّق رفيع، تعبر عن أميز ما تبتكره المخيلة، و تضيف إلى سرور وجودية الذات. في المقابل، تقدم بعض الحضارات على كبت الحس، فتجفّ قدرات الابتكار، وتظهر مراحل أو حضارات كظم الحس بالصفات الأبتالية القائمة في بيئة الوجود، فتكمش المخيلة الجمعية، و تنتقل إلى عصور ظلمات، لا تليق بإرادة البشر التي ظهرت إلى الوجود لتكون حرة، و إلا لما ظهرت و ظهر معها الإنسان العاقل.

١ - طور إنتاج المجتمع البدائي

في هذا الطور من الإنتاج يندمج دور الرؤيوي مع دور المصنّع و المتلقي، و يكون المؤدي هو نفسه من يعي متطلبات الحاجة، و يبتكر شكل الأداة التي يمكن أن يحققها في مرحلة التصنيع، و التي يسخرها بهدف إرضاء الحاجة. و مع هذه الصورة التي تتحقق في مخيلة المؤدي بصفته رؤيويّاً، يتقدم و يسخر الحس و المعرفة التي تحملها مخيلته، و هكذا يفاعل المادة الخام، و يقوم بدور المصنّع. و في تفاعله مع هذه المادة، يكون قد انتقل من كونه مؤديّاً رؤيويّاً إلى كونه، في الوقت عينه، مؤديّاً مصنّعاً. و عند تفعيل المصنّع، كأداة إرضاء حاجة، كالسكين الحجرية، أو رمح الصيد، في إرضاء حاجة القنص و الصيد، يصبح المؤدي هذا هو المتلقي.

و لأن تماس المؤدي مع خصائص المادة يكون مباشراً، يكون حس الرؤيوي بالصفة الأبتالية مباشراً. و يصبح تفعيله لهذه الحركة الحسية هو، في الوقت عينه، تفعيلاً للحس بصفات الأبتاليات التي يتعامل معها من خلال إرضاء الحاجة، أي أن تفعيل الحسّ عنده يحصل في كلا الاتجاهين للدورة الإنتاجية، أي الدورة الإنتاجية التي تسبقها و التي تلحقها.

و هذا يعني أنه تصبح التغذية الاسترجاعية عنده - في الإنتاج البدائي الحرفي، العلاقة المعرفية بين الدوريتين، السابقة و اللاحقة في الإنتاج البدائي - تلقائية و متداخلة، بقدر ما يكون المتلقي له دور في مراحل الدورة السابقة للتلقي و في الدورة اللاحقة. و هذا خاصة في الإنتاج البدائي، حينما يكون المتلقي هو نفسه المؤدي الرؤيوي و المصنّع.

و مثال على قيام الفرد نفسه بالأدوار الإنتاجية الأربعة هو المرأة البدوية في الصحراء، التي تقوم بإنتاج خيمة الشعر. فهي التي تقوم بتنظيف و غزل شعر الصوف، و حياكته، و تصنيعه ليصبح قماش الخيمة، فتقوم بقصه و خياطته و جعله يأخذ شكل الخيمة. من ثم تقوم بإقامة الخيمة، و لفها عند الرحيل، و وضعها على الدواب. فهي الفرد الذي

يحقق الرؤية، و يصنع، و ينتفع من المصنّع كأداة إرضاء حاجتها، و هي بدورها تؤمن حاجة العائلة إلى الملجأ المتنقل الصحراوي/ الريفي.

لذا، في كل من هذه الأدوار، تمتد معرفة المؤدي و يندمج الحسّ بالصفات الأبتالية للأشياء المتعامل معها، و ذلك لأنها تنبني على إرضاء حاجة الفرد نفسه. لذا تتفاعل المرجعية المعرفية التي يتعامل بموجيها الفرد في مختلف مراحل الإنتاج، كمؤدّ، مع الحسّ بالصفة الأبتالية الذي يفاعله في مختلف مراحل الإنتاج، بصفته رؤيويّاً و مصنّعا و متلقياً. و يمتد هذا الحسّ و يقترن بصفات الأبتال التي يحسها الفرد في الأشياء الطبيعية. فيصبح الحسّ بالصفة الأبتالية، بسبب امتدادها في مختلف المراحل الإنتاجية، حسّاً متوسّعا و مرهفاً، فيفاعل الحسّ بصفات الأبتال التي يتكرها في شكل المصنّعات، و يحسّها في أشكال الظواهر الطبيعة.

من جهة أخرى، مع التقدم الذي حصل في المرجعية المعرفية، و في العلاقات الإنتاجية في هذا الطور، و ظهور الفرد المتخصّص نسبياً، المتمثل بالفرد الذي يصنع السكاكين الحجرية، أصبح دور هذا الفرد منعزلاً نسبياً عن صيغ الإنتاج الأخرى، أي، إذا أصبح الفرد ماهراً في تصنيع السكاكين الحجرية، و التفرّغ لهذا العمل، ربما سيفقد مهارة الصيد مقارنة بالآخر من الجماعة. مع ذلك، يتعامل هذا الفرد مع مختلف أفراد الجماعة، في تعاملهم اليومي، بالمرجعية المعرفية و الحسية نفسها. و ما يؤهله خاصة لهذا التوافق أن تربية الأطفال و تدرييهم، يكونان في بيئة تربية مشتركة، الأمر الذي يجعل النمو الحسي بالصفات الأبتالية مشتركاً و متوافقاً بين مختلف أفراد الجماعة.

إلا أن هذه الحسية المتعالية و المتفاعلة ضمن الدورة الإنتاجية، و مع الظواهر الطبيعية، تكون محدّدة بمعيش الفرد في البيئة الضيقة و المنعزلة التي يعيشها، كمعيش الجماعة البدائية في غابة محدّدة بأصناف النباتات و الحيوانات و الظواهر الطبيعية القائمة فيها، إضافة إلى أن المرجعية المعرفية التي يتعامل بموجيها تكون في دور تطورها البدائي. و لذا تكون محمّلة بأوهام و سحر يتعارضان مع المعرفة الموضوعية القائمة في المرجعية.

كما تتمثل محدّدات المرجعية المعرفية للمرأة البدوية التي أشرنا إليها، بتلك المعرفة التي يمكنها أن تكتسبها من البيئة البدوية الصحراوية البدائية. لذا تحدّد بهذا القدر قدراتها على الحسّ بتعدد صفات الأبتال.

و لكن هذه الأوهام و المحدّدات المعرفية، ليست بالضرورة متعارضة مع الحسّ بالصفات الأبتالية القائمة في الأشياء، أو تحجيمها كلياً، لأن قيمة و فعالية الحسّ

بالصفة الأبتالية لا تتحدد بسعة المعرفة الموضوعية عامة، وإنما بقدرة الحس الحدسي بخصائص موضوعية الأبتمال، و قدرة المخيلة على ترجمة هذا الحس لهذه الخصائص، وجعله صوراً لصفات الأبتمال في المخيلة. إنه تركيز على خصائص محدّدة، وتوسع التأمل فيها، وتكراره وتهذيبه و صقله، و قدرة حدسية المخيلة على ترجمة الخصائص إلى صفات من الأبتمال، فنشوة الحس بها، والتعامل معها، وجعلها مرجعية ذاتية حدسية لا واعية ينقلها من تعامل إلى آخر، تجعل التعامل مع المادة و ظواهرها، و التماس معها، «شطحة زمنية»، نشوة وجودية، تتجاوز الحس بالزمن^(أ).

ولكن علينا أن نتبّه هنا ماذا نقصد بالمعيش البدائي. إن المعيش البدائي كان يتضمن تعاملًا مع حيوانات متعددة، كالطيور في الغابات الكثيفة والنباتات المتنوعة، مثلاً. فكان غنياً جداً في التنوع و جمع من الصفات الأبتالية القائمة في أشكال و سلوكيات الحيوانات و النبات، و ما تتضمن من صيغ و تنوع و نمو في ألوانها و أشكالها.

لذا يتضمن نهج هذا الفرد البدائي حساً متوسّعاً و متنوعاً لصفات الأبتمال القائمة في الأشياء الطبيعية. ولكن هذا الحس يبقى محدّداً بأنواع النباتات و الحيوانات و الظواهر الطبيعية الأخرى التي يتعامل و ينظم معيشه بموجبها، و في البيئة التي يعيشها.

و هكذا هي صفة الأبتمال التي تحملها المخيلة مقومات، تجعل التعامل ضمن الدورة الإنتاجية يتمتع بحسّ مرهف للصفات الأبتالية.

٢- طور إنتاج المجتمع الزراعي

مع ظهور الإنتاج الزراعي، و التنظيم الاجتماعي المتوسع في المدن، و معها ظهور التراتب الاجتماعي الطبقي و المهني و المقامي، ظهر الحرفي المتخصص الذي يقوم بدور الرؤيوي و المصنّع، و أصبح أفراد المجتمع، سواء الحاكم أو التاجر أو ربة البيت، كلهم متلقين، نسبة إليه. هنا، في هذا الطور يتفرّد الحرفي، إلى حد كبير، في تماسه مع خصائص المادة في دور مرحلة التصنيع. لذا يتمتع بحسّ الصفة الأبتالية أكثر من غيره. ولكن بسبب التراتبيات الاجتماعية، و ظهور فئة مرفهة، بقدر ما هذه ستمتع بفرص التأمل و الاستمتاع بمعيشها، سيتمكّن البعض منها من تطوير قدرات معرفية، و تبعاً التعرف إلى خصائص المادة، و الصفات الأبتالية التي تظهر عليها. مقابل هذا، بقدر ما

(أ) «شطحة زمنية» الشطحة تعني الافتتان بشيء، لوقت ما، و نحصل حين التوافق الكلّي بين مهارة المؤدي و المهمة التي يقوم بتحقيقها، فيشعر هذا المؤدي بنشوة زمنية، و لذا يتجاوز عامل الوقت. انظر: Lyall Watson, *Neophilia: The Tradition of the New* (Chicago, IL: Sceptre, 1989), p. 155.

يكون معيش الحرفي كدّاً و تعباً، سيفتقد فرص تهذيب حسّه، أو سيتعارض نمو الحس عنده مع متطلبات الكدّ التي يتعرّض لها.

و بقدر ما ينبي هذا المجتمع على تفاضل اجتماعي، سيصبح التلقي لدى البعض الذين يتمتعون بهذا التفاضل بمعزل نسبي عن المرحلة الرؤيوية/ التصنيع، الحرفي. مع ذلك، تبقى كافة الطبقات من المتلقين إلى حد مناسب، تتعامل مع الحرفي، الرؤيوي/ المصنّع، بدرجة ما، بمرجعية فكرية مشتركة: الفقير والغني، العامل والحاكم، وذلك بحسب مواقع كل منهم في التراتبية الاجتماعية وعلاقاتهم الاجتماعية والمهنية.

استمرت هذه العلاقة، وبصيغ متعددة، إلى جانب علاقات متعددة، مع المتلقي، سواء أكان التاجر أم الحاكم أم عامة الناس المتعاملين مع المصنّع بهدف إرضاء حاجة ما، حتى مجيء العصر النهضوي وظهور الرؤيوي المتشخص.

و بسبب تعامل مختلف أفراد المجتمع بالمرجعية نفسها، أو مرجعيات متداخلة، بات كافة المتلقين يتمتعون بحس بقدر مناسب لمتطلبات التعامل مع المادة، والصفات الأبتالية التي تتصف بها المصنّعات، وذلك بسبب تعاملهم بمرجعية مشتركة، أو بقدر ما يكونون مشتركين بهذه المرجعية المعرفية، يصبح تعاملهم واعياً بتلك الصفات الأبتالية التي تحملها المصنّعات. وبقدر تراكم هذا الحسّ للصفة الأبتالية المحمّلة للمصنّعات التي يتعامل معها المتلقي، ستداخل وتقرن مع تلك القائمة في الظواهر الطبيعية. وهكذا سيتنوّع الحس، وقدرات إنضاجه عندهم.

أ- الأيديولوجيات والكليجريات

في هذا الطور الإنتاجي، ظهرت أيديولوجيات متعددة ومتنوعة، متمثلة بالأديان الكبرى، البعض منها شمولي، ولذا ينكر إرادة الفرد، والآخر يتبناها.

لقد أقدم بعضها على استحداث مفاهيم وسلوكيات تتغاضى في أيديولوجياتها عن وجود بعض الظواهر الطبيعية، كاعتماد تقويم يتجاهل فصول السنة الطبيعية، وقد أدى هذا الأمر إلى فقدان التوافق بين فصول السنة، والأعياد والطقوس المعتمدة من قبل السلطة اللاهوتية، الأمر الذي جعل المرجعية المعرفية وذاكرة الزمن، تفتقد الملاءمة بين واقع وجودية الذات ضمن واقع فصول السنة، الأمر الذي جعلها تبني ذاكرة الوجود على تجريدات لاهوتية، بدلاً من واقعية خصائص الظواهر الموسمية.

مقابل هذا، اعتمدت بعض الأيديولوجيات الزراعية المتمثلة بحضارات وادي الرافدين والمصرية والإغريقية، طقوساً تحتفل بالظواهر، كالمواسم السنوية، ومواسم أوار نمو الحيوان والنبات، ومواسم هجرتها. وقد انتقل البعض منها إلى الأيديولوجيا المسيحية، متمثلة بعيد الميلاد ورأس السنة، التي كانت أصلاً أعياداً تحتفل بتقويم بداية السنة الجديدة. وبالنظر إلى أن أصل هذه الأعياد كان يتبع تقويمياً قمرياً معدلاً، وبسبب اللاتوافق بين التقويمين، الشمسي والقمرى، يحصل عيد رأس السنة عند بعض الطوائف المسيحية في نهاية كانون الأول/ ديسمبر، بينما يحصل عند البعض الآخر في أوائل كانون الثاني/ يناير. كذلك بالنسبة إلى عيد الفصح، عيد احتفال ذكرى بعث المسيح، الذي كان أصلاً عيد الربيع. وكذلك بسبب اللاتوافق بين التقويمين يحصل هذا العيد في وقت متغير بين شهر شباط/ فبراير وآذار/ مارس، أي في الأحد الأول بعد البدر، وطقس عيد الفصح.

تضمّنت البعض من هذه الأيديولوجيات، محرّمات ومفاهيم وأوهاماً وسحراً، تتعارض مع البعض من الأشياء، كمحرّمات التماس مع بعض الحيوانات؛ الكلب عند الإسلام، مثلاً. مقابل ذلك، هناك كلجريات تتعلق ببعض الحيوانات، كتعلق مصر القديمة بالقطط، والكلجيرية العربية والكاخستانية بالجمال، مثلاً، والهندية بالفيل، والأوروبية بالكلب. وهذا التعلق، إضافة إلى هذه الكلجريات، يدعم التعرف إلى خصائص سلوكيات هذه الحيوانات، فتصبح الكلجيرية في تماس مع الأبتماليات التي تعرضها سلوكيات هذه الحيوانات، مما يغني المرجعية المعرفية.

ب- الأوهام وحجب المعرفة

لقد انتقلت الكثير من الأوهام والغيبيات التي ابتكرت في المجتمع البدائي إلى المجتمع الزراعي. وأقدمت مخيلة هذا الأخير على إضافة الكثير من أوهام وغيبيات جديدة، تعدّدت وتنوعت بحسب تطور الحضارة والكلجريات التي تضمّنها، والتي تحجّم قدرات المعرفة في التعرف إلى خصائص المادة، كما أنها تولّف حاجزاً معرفياً معوقاً للحس بواقع صفات الأبتمال التي تتصف بها المصنّعات، والقائمة في الأشياء الطبيعية.

تعوق هذه الأوهام التعرف إلى واقعية الخصائص، لأنها إما تتعارض مع نهج التعرف إلى الأشياء، وإما أنها تدخل نهج المعرفة وتصبح عوضاً عنها، أي أنها مفاهيم تتعارض مع صور لواقع الخصائص في المخيلة.

مع ذلك، هناك أوهام في المختلة، لا تتعارض صورها مع منهجية التعرف إلى خصائص المادة، بل إنها ابتكرت أصلاً لدعم التعامل مع متطلبات هذه الخصائص، على أن تظهر بصيغ أسطورية وحكايات وسحر وأوهام. ولذا أقدمت البعض من هذه الحضارات على استحداث كلجريات تتضمن طقوساً لدعم تفهم هذه الخصائص، وتمثل باحتفالات المواسم السنوية التي تعبّر عن الربيع، ونضوج الفاكهة، ونمو الحيوان. وهكذا ابتكرت بعض الأيديولوجيات طقوساً ومراسم دينية وشعبية تبجل فيها، وتدعم تماساً حسيّاً مع الظواهر، فتضفي على الدورة الإنتاجية هذا الحس المكتسب عن طريق هذه الطقوس.

لذا بقدر ما تكون الدورة الإنتاجية مقترنة بكلجريات تتضمن طقوساً ينظمها المجتمع، توضح دور الحرفة، والاهتمام بها، ومنحها قيمة معنوية، ستصبح الذاكرة المعرفية المرعية واعية بمتطلبات الإنتاج وخصائص المادة، سواء في مجال الإنتاج أو الظواهر الطبيعية، وسواء منها النبات أو الحيوان أو المناخ والأشياء الجامدة. فنشاهدها، مثلاً، طقوساً ومراسم، بصيغها المتطورة والغنية والمتنوعة التي تبجل الحرفة، وتمنحها مقاماً اجتماعياً مرموقاً، كما في الكلجريات اليابانية والصينية والكورية.

ومن جهة أخرى، يتصف الإنتاج في المجتمع التقليدي بقدر كبير من الأبتعال، ذلك لأنه يبنى على تعاقب الدورات الإنتاجية، مع تغير جزئي، فيتضمن تحسينات ميكرية. كما تدعم المعرفة المسخرة فيه بطقوس وأعراف وعادات. وهذه المجتمعات هي التي حققت مآثر حضارية كالتي تميز بها المجتمع السومري في المذقبات، والإغريقي في إنتاج نحتية بدن الإنسان، والياباني في تصميم الحداثق، والغرناطي في إنتاج المقرنص، والفرنسي في الرشاقة المبتلة للعمارة الغوطية، والإيطالي في الفسيفساء، والكوري في الخزفيات.

ج - حجب المعرفة

لقد أقدمت بعض الأيديولوجيات الزراعية على حجب التطور المعرفي والحسي نسبياً، لأن الأيديولوجيا التي اعتمدها تعتبر أنها تتضمن كامل المعرفة، حيث إنها ابتكرت مفهوم التوحيد المعرفي، أو الإله الموحد الذي يؤلف القدرة المعرفية الوحيدة. وبهذا الموقع بين الفكر والظواهر، يؤلف كيان معرفي يقوم بدور حاجز بين الفكر وقدراته على التعرف إلى الأشياء، والظواهر الطبيعية. وفي مقابل هذا، ظهرت أيديولوجيات لا تنكر إرادة الفرد، أو تحجبها، بل تعتبرها أساسية، كما في الأيديولوجيات البوذية.

إن تحقيق الفائض في الإنتاج، و ظهور تجمعات المدن، هيا الظروف المناسبة لتقدم المعرفة. فتمكنت حضارات المجتمع الزراعي عامة من تحقيق تقدم هائل في مختلف العلوم، بما في ذلك الفلك و الرياضيات و التصنيع و الفلسفة و غيرها. لذا نجد في هذا الطور من الإنتاج مراحل حضارية تتمتع بحس مرهف للصفات الأبتالية المتحققة في المصنّعات، و في المقابل نجد مصنّعات البعض الآخر منها يفترق لهذا الحسّ. فمثلاً، إذا ما قارنا الحسّ المرهف الذي نشاهده في النحت الإغريقي، لا نجد له مثيلاً بالدرجة التي هي عليه في النحت الروماني، و هو مفترق في الحضارة الإسلامية، سوى في صيغ أخرى، كالمقرنص في العمارة، في حين نجد تطوراً حسيّاً في تكنولوجيا الخط الصيني و الروماني و العربي، لا نجد له مثيلاً بالدرجة ذاتها التي هي عليه في الخط الإغريقي. و التطور الهائل الذي حققته الحضارة الإغريقية في المسرح، من حيث مساءلة الوجود، لم يظهر له مثل في الحضارات القديمة الأخرى. و نجد مقابل الإطناب في الخطاب السفسطائي الإغريقي و العربي، اختزالاً هائلاً في خطاب شيشيرون الروماني (١٠٦ - ٤٣ ق.م.)، كما في الاختزال الذي يحققه المسرح الياباني الـ «نو». و بينما نجد اختزالاً هائلاً و حسّاً مرهفاً في الخزفيات الكورية و العربية، لا نجد ذلك في الهندية.

تتصف التغذية الاسترجاعية في الإنتاج الحرفي المتقدم الذي ظهر و تقدم مع ظهور الإنتاج الزراعي و تكوين المدن الزراعية المتوسعة، في أنها تداولت المعرفة بين الدوريتين الإنتاجيتين. و يحصل هذا عن طريق العلاقات الاجتماعية، و ليس عن طريق إسهام حقيقي في مرحلة التصنيع. لذا استمرت علاقة متوازنة إلى حدّ كبير في تعاقب الدورات الإنتاجية، من حيث الحسّ بصفات الأبتمال، فهيأت لقاعدة معرفية تؤلف مرجعية مشتركة للحسّ بالصفات الأبتالية القائمة في المصنّعات و تلك القائمة في الطبيعة و المقترنة بها.

٣- طور إنتاج المجتمع النهضوي

مع ظهور العصر النهضوي، ظهر الرؤيوي المتشخصّ. و المتشخصّ، معماراً أو فناناً، هو الفرد الذي منح لنفسه الحق بأن يتفرد خارج المرجعية المعرفية العامة، و يضيف إليها من عندياته. و في الوقت عينه، يمنح المجتمع هذا الحق لهذا الفرد المتفرد. و بممارسة هذا الحق، أخذ دور التفرد المتعاطف مع هموم المجتمع، ليس تلك التقليدية، و إنما

المستحدثة والمستقبلية، والذي له الدور الأول في استحداثها، وابتكار آليات تحقيقها المعرفية والتعبيرية، أي أنه المعمار والفنان والعالم الذي يقوم بدور استحداث معرفة جديدة، وطرائق جديدة للتعبير عن هموم معرفية واجتماعية في دور الابتكار والتجديد. فهو، إذاً، يتمثل بشخص ألبرتي وبلاديو في العمارة، ودوناتيلو ومايكل أنجلو وليوناردو دافنشي في النحت والرسم، وبوكاتشيو وشكسبير في الأدب، ومونتي فردي وباخ في الموسيقى. لم يكن عصر النهضة قائماً بعده، إلا أن ظهور هؤلاء وعبريتهم وإنسانيتهم، هي التي ابتكرت ودعمت ظهور هذا العصر، ونموه، والتعبير عن الحسّ الإنساني الذي جاء به هذا العصر الذي انبنى على عبقرية هؤلاء المتشخصين.

ولم يحصل تطور ظهور المتشخص فجأة، وإنما جاء حصيلة لتطور دام عدة قرون، وأخذ في النضوج خلالها. بدأ في مراحله الأولى بظهور المايستروي في القرون الوسطى، خاصة منذ منتصف القرن الرابع عشر. وحصل هذا عندما أخذ المايسترو/ المعلم دوراً قديماً في إدارة مرحلة التصنيع، وابتكار الرؤية التي بموجبها يحصل دور هذه المرحلة. فقدد الحرفي التقليدي، مقابل هذا التطور، دوره كروبي، وفي الوقت عينه، أخذ المايسترو ينغزل عن التماس الحقيقي مع المادة، وتدرجياً عن مرحلة التصنيع، حيث أخذ يركّز مواهبه على هموم الرؤية والإدارة.

لقد ارتقى هذا المعمار، إلى المقام الأكاديمي، وظهر مايستريون ممارسون وبدأوا بالإطلاع على العلوم التي كانت في دور الاكتشاف، وكذلك الأدب والفنون الكلاسيكية التي كانت كذلك في دور الاكتشاف، وانتشار التعرّف إليها من جانب فئة جديدة متعلّمة. وهكذا ظهر من بين هؤلاء المعمار المتشخص، وهو القيادي الممتن، المايسترو/ المعلم المتمرس، والمطلع على العلوم الجديدة، والمستحدث لها. وقد تمثل هذا بشخص برونسكي، ومن ثم ألبرتي. وربما كان رئيس الدير سوكر من قبلهم محباً للأشياء الجميلة ويستمتع بها بصيغة هواية. ويمثل ألبرتي في هذا التطور، شخصاً عالماً، ومثقفاً، وأديباً، ومنظراً لزمانه. ومن هنا، بقدر ما أخذ هذا المعمار المعاصر الدور الأول في المرحلة الرؤيوية، وأخذ مقام المعمار المعاصر، تنازل عن دور المؤدي في مرحلة التصنيع، أو أهمليها، وتعالى عنها.

ومع ظهور ألبرتي، أصبح هذا الرؤيوي يتمتع بمقام أكاديمي وتعليمي واجتماعي مرموق. وبهذا التحول في الأدوار، فقد المصنّع الحسّ للعلاقة بين الرؤية والتعامل مع المادة الخام، بقدر ما انتقلت القيادة الرؤيوية إلى المعمار المتشخص. وأصبح

الحرفي تحت قيادة الرؤيوي، أي أخذ الرؤيوي يهيئ الصورة العامة لغالب التكوين الشكلي للعمارة. وبهذا، أخذ دور مهني اصطلاح عليه بالمصنّع. وعند تسلّم هذه الصورة المهيأة له، يقوم الحرفي، في ساحة التصنيع، بدور تفعيل هذه الرؤية المرسلّة له من جانب الرؤيوي، فيقدم على تفعيلها مع المادة الخام: الخشب والحجر والرخام والمعادن وغيرها من المواد. وبهذا التفعيل والتفاعل الحقيقي، وفي تماس مع خصائص المادة، يحقق تحويل هذه المواد من كونها مادة خام إلى مصنّع، ومن خشب خام إلى كرسيّ مصنّع، ومن حجر إلى دار.

ولكن بهذا الدور في مقامه الرؤيوي، أصبح المعمار معزولاً عن ساحة التصنيع، أي أصبحت الرؤية بمعزل عن واقع متطلبات التعامل مع خصائص المادة، خاصة عندما أخذ يسخر مواد جديدة، من غير أن يكون له تماس مع خصائصها في ساحة العمل، أي من غير معرفة واقعية بمتطلباتها، إلا عن طريق تغذية استرجاعية تتضمن معرفة الحرفي في ساحة العمل بمتطلبات هذه المواد المستجدة. وبهذه العزلة، أصبح الحسّ بالصفة الأبتالية عند المعمار يبنى على تأمل وتصور لخصائص المادة، وعن طريق تغذيات يقدمها حرفي في ساحة العمل.

مع ذلك، وفي الوقت عينه، وبقدر ما توسع تماس المعمار مع المعرفة المستجدة في العلوم عامة، واطلاعه على الفنون الرفيعة، خاصة منها المستحدثة، كالرسم والنحت، اكتسب قدرات معرفية وحسية لصفات الأبتالي على صعيدين:

(١) هناك الحسّ الحدسي والنظري المتراكم للأبتال القائم في المصنّعات، وذلك عن طريق الاطلاع المتوسع على المصنّعات، سواء كانت بصيغتها كمصنّعات، كالعمارة والعربات والأثاث، أو بصيغتها كالرسوم الزيتية والمنحوتات.

(٢) تحصل في الوقت عينه معرفة بخصائص المادة القائمة في الأشياء الطبيعية عن طريق التطور المعرفي العلمي، والأدوات المستحدثة، كالكاميرا أبسكيورا (Camera) (٩) Obscura والتلسكوب وغيرها، وتبعاً الحسّ بصفاتها الأبتالية، سواء أكان حسّاً معرفياً أم حدسياً.

(٩) ظهرت أو اكتشفت كاميرا أبسكيورا (Camera Obscura) عام ١٧٢٥ المتكوّنة من صندوق أظلم مع عدسة، حيث يتمّ عكس المنظر على لوحة داخلية، الأمر الذي يهيئ للمشاهد صورة معكوسة تبيّن الخطوط العامة للبرسكييف في واقع المنظر المشاهد. وكان لهذه الأداة دور مهم في تطوير مفهوم البرسكييف وفي طرائقه رسمه، كما في تفهم واقع العلاقات بين الأشياء القائمة في الحيز المعيّن ضمن الرسم.



و بقدر ما تداخلت و تفاعلت هاتان الحالتان في الحسّ الأبتمالي، توسعت قدرات
الرؤيوي المتشخص المعاصر. ولكن، بقدر ما أصبح بمعزل عن تماس حقيقي مع
المادة، يكون الحسّ الذي يتعامل بموجبه في حالة تناقض. فمن جهة يصبح الحسّ
معوقاً بسبب فقدان التماس الحقيقي مع المادة، ومن جهة أخرى هناك توسع هائل في
المعرفة الموضوعية، كحصيلة للتطور العلمي في مختلف مجالات المعرفة، ومجالات
معارف مستجدة تماماً. كما حصل توسع في التبادل المعرفي التقني للتجارب التي
أخذ يحققها هؤلاء الفنانون الأحرار المتشخصون، والتجارب في مجال علاقاتهم مع
المجتمع، ونظرتهم الطليعية إلى وجودية الإنسان، وفي تماسهم المعرفي والحسي
مع الفنانين المتفردين الآخرين. وبدأ هذا يحصل عن طريق النشر، وعرض أعمالهم
في الأكاديميات، وفي المعارض التجارية التي كانت قبل ذلك محتبسة في القصور.
فانفتحت معرفة هؤلاء على العلوم والفلسفة والفنون الكلاسيكية، وهي تتضمن مفاهيم
لصفات أبتمالية وعلاقات تكوينية كانت حجبت في العصور المظلمة، وأصبحت معرفة
سائدة بين المتعلمين الرؤيويين.

من هنا بدأت تحصل فجوة فكرية بين المعمار الأكاديمي والحرفي في ساحة العمل.
فعندما توسعت المعرفة العلمية والفنية لدى المعمار، أصبح بمعزل عن تماس حقيقي
مع خصائص المادة، وأصبحت المعرفة التي يتعامل بموجها نظرية، أو غير مباشرة
تصله غالبها عن طريق تماسه مع الحرفي، كما ينقلها له هذا الأخير. وفي المقابل،

أصبح الحرفي في ساحة التصنيع بمعزل عن المعرفة العلمية و الفنية التي كانت في حالة تطور و توسع. ففي حين أصبح الأول، المعمار، أمياً عامة نسبة إلى تماس حقيقي مع خصائص المادة، أصبح الحرفي كذلك أمياً عامة نسبة إلى التطور المعرفي الذي كان يحصل في المجال التعليمي و النشر و الفنون المتقدمة و المستحدثة.

إذاً، يتصف عصر النهضة بأربع حالات اجتماعية معرفية و حسيّة، استجدّت في تكوينه الاجتماعي، و في طور الإنتاج، إذ حصل تغيّر جذري في العلاقات الاجتماعية، بقدر ما حصل ذلك ضمن الدورة الإنتاجية.

(١) ظهور المعمار، و ظهور الفرد المتشخص الذي أصبح المعمار القيادي من دون منازع، و الذي يبتكر الرؤية، و يقود المجتمع في هذا المجال. و من هنا أخذ محل الحرفي المتمرّس التقليدي، كما أخذ حق الابتكار و ملكيته من المالك و الحاكم و السلطة. و لكنه أصبح في معزل نسبياً عن تماس حقيقي و مباشر مع خصائص المادة، و بهذا خسر تماساً مباشراً مع صفات الأهتمام القائمة في الأشياء. في المقابل توسّعت قدرات المعمار في التعرف إلى خصائص المادة توسعاً أسيّاً بسبب تماسه مع التطورات المعرفية العلمية و الفنون الأخرى، و هذا ما فتح له و للعمارة آفاقاً جيدة لم يكن في مقدوره الوصول إليها في السابق.

(٢) في المرحلة الأولى من تطور عصر النهضة أصبح الحرفي، الذي كان يتمتع بقيادة الإنتاج قبلها، بمعزل نسبياً عن الرؤية، بقدر ما أصبح المايسترو قيادياً و بمعزل عنه. و من ثم، فقد الحرفي تماسه مع الرؤية مع ظهور المعمار المتشخص و الأكاديمي، إلا بقدر ما يرسل إليه من جانب المعمار، و لكن هذا الحرفي حافظ على تماسه الحقيقي مع خصائص المادة. و بقدر ما أخذ التطور المعرفي الذي يبحث في خصائص المادة ينتقل إلى المختبرات و مراكز البحوث، أصبح الحرفي في ساحة العمل تدريجياً يقترب بتمييز من كونه أجيراً، و من غير رؤية فعالة، و لا دور فكرياً له فيها. و بعد أن كان هذا الحرفي يشارك المعمار في مرجعية معرفية مشتركة، في المراحل الأولى من ظهور المعمار، فقد أخذ مع التطور العلمي، حيث أصبح موقعه في ساحة العمل، يفقد هذه المعرفة تدريجياً خارج مجال تطور و تدوين و تحليل المعرفة.

(٣) و هكذا، و لأول مرة في تاريخ الإنتاج، ظهرت مرجعيات متعددة في تكوين الاتصال بين أفراد المجتمع، و خاصة الاتصال ضمن الدورة الإنتاجية. فأصبحت الدورة الإنتاجية تتضمّن مرجعيات متباينة، ليست متوافقة، و تفتقد لحركة اتصال مناسبة

بين المراحل. فقد فقد الحرفي موقعه المعرفي التقليدي في الدورة الإنتاجية. وبسبب تعدد المرجعيات المعرفية والحسية، فقد المتلقي كذلك موقعه التقليدي في الدورة الإنتاجية، سواء أكان صاحب العمل أو الحاكم أو ربة البيت.

(٤) في مختلف أطوار الدورة الإنتاجية التي أشرنا إليها، وحتى ظهور عصر النهضة، كانت الدورة الإنتاجية تتمتع بمرجعية مشتركة، بين الحاكم والمتعلم والحرفي وربة البيت. ومع ظهور مرجعيات متعددة، وفي كثير من مقوماتها متباعدة ومتباينة في قدرات استيعابها، أصبح مجتمعاً يتعامل بموجب مراحل إنتاجية تفتقد انسياباً معرفياً واضحاً، في تماس اجتماعي غير متوافق في الرؤية. وهذا الأمر أدى إلى إفساد التغذية الاسترجاعية، لأن المتلقي أصبح في حالة معرفية لا تخوله تفهيم استيعاب المعرفة التي أصبح كلاهما، الرؤيوي والمصنّع، يتعامل بموجها. ولذا أصبح غير قادر على تعامل مجيد متكامل معها، وبدأ يعجز عن أداء تعامل مناسب، وبالتالي تأمل كفو يحقق بموجبه معرفة مناسبة لهيئة تغذية استرجاعية مناسبة، الأمر الذي جعل المرحلة الرؤيوية لا تتمتع بتغذية استرجاعية مجدية. وأصبح المعمار الأكاديمي في عزلة نسبية عن الدورة الإنتاجية عامة، وهو في موقعه في المرحلة الرؤيوية. ولكن لم يفقد المعمار الأكاديمي بهذه العزلة دوره القيادي، لأن المرجعية المشتركة التي كانت تتعامل بموجها الفئات المتعلمة لم تزل فعالة إلى حد كبير.

سابعاً: طور الإنتاج الممكن

١ - ظهور المكننة

ظهرت المكننة، أو الإنتاج المكنن (Mechanized)، في أواخر القرن الثامن عشر، وكان أول ما ظهر في مجال العمارة، ومنها منشأة الحديد الصلب. فتوسع الإنتاج المكنن، وأخذ صيغه التنظيمية والمعرفية والإدارية في منتصف القرن التاسع عشر، خاصة مع عمارة الأبنية الزجاجية والمعارض وأبنية المعامل ومحطات القطار. وقد أدى ظهور المكننة إلى إحداث تغيير جذري في الدورة الإنتاجية، وفي مفهوم الإنتاج، وفي العلاقات الإنتاجية بين أفراد المجتمع. وكانت هذه تغيرات اجتماعية أكثر تجذراً مما حصل مع ظهور المتشخص في إنتاج العصر النهضوي.

في هذا الطور من الإنتاج، ظهر دور العامل الأجير الذي يقوم بوظيفة تشغيل الماكينة. فقد أصبح هذا في غالب سيرورات التصنيع الفرد المؤدي الوحيد الذي يتمتع بتماس

حقيقي وتشغيلي مع الماكينة. كما يكون الفرد في مرحلة التصنيع لا دور له فكرياً في تفعيل تغيّر المادة الخام، سوى تشغيل الماكينة، ويكون تشغيل الماكينة منظماً مسبقاً، من حيث نوع التعامل والتوقيت، قبل تفعيل دور هذا العامل، أي تكون الماكينة مصمّمة ومهيأة، والتعامل معها مبرمجاً ومصمّماً من جانب مهندسين وإداريين متخصصين، ويكون موقعهم في الدورة الإنتاجية في المرحلة الرؤيوية.

دخلت الماكينة في الدورة الإنتاجية كأداة تفعيل لتغيير المادة بين العامل الأجير والمادة الخام، وكأداة عمياء بين حسيّة الفرد العامل والمادة، ففقد العامل القدرة والفرصة على تفعيل معرفته وحسيّته مع خصائص المادة، الأمر الذي جعل التفعيل نفسه أعمى، وخالياً من التماس والحسّ البشري، أي فقدت مرحلة التصنيع العلاقة السبريانية الطبيعية، وهي علاقة حسيّة ومعرفية رافقت التصنيع منذ أن ظهر الإنتاج عند الإنسان.

أ- الممكنة والعلاقة السبريانية

العلاقة السبريانية هي تلك العلاقة الحسيّة والتأمليّة التي تحصل لدى الفرد الذي يقوم بتفعيل تغيّر المادة خلال مرحلة التصنيع، حيث تنقطع سيرورة هذا التفعيل في آليات ميكريّة، فيقدم فكر المؤدي ويتأمل بما حصل من تغيّر في المادة، في كلّ من هذه الآليات الميكريّة عند ذاك، يقرر المؤدي ما يتعيّن أن تكون الخطوة اللاحقة في تفعيل تغيّر المادة. وبسبب هذه العلاقة يعبر الشكل المحصل عن المعرفة والحسيات التي سخرها المؤدي، فيتصف التغيّر الحاصل في المادة بتلك المعرفة العامة التي يحملها المؤدي، إضافة إلى تلك التي اكتسبت من جراء ذلك التفعيل الميكري والمفاعل مع الحسّ الذي أثير في تلك الآليات الميكريّة. وما يحرك هذه العلاقة السبريانية والآليات الميكريّة المحمّلة بالمعرفة والحسّ، هي طاقة بدن المؤدي. فهنا في هذه الآليات يكون الحسّ مضاعفاً، ليس فقط بخصائص المادة التي تتعامل معها المعرفة والحسّ بأبتمالياتها، وإنما كذلك يحسّ هذا المؤدي بأنه يضيف من عنديات كيان وجوديته على هذا التفعيل، أي يعي في تلك الآليات الميكريّة بأن التفعيل يحصل بتجاوب آني ومتداوت ومتداخل مع الطاقة التي يستنفدها بدنه. وبسبب هذا الحسّ تتأثر حركاته السبريانية الميكريّة بآليات تغيّر المادة، وهكذا يمتصّ شكل المصنّع ذلك الحسّ خلال تفعيل تغيّر شكل المادة الخام.

ب- العامل ضمن التصنيع الممكن

و حينما تتدخل أداة الماكينة، كمادة جامدة، بين أنامل يد المؤدي، وخصائص المادة، يفقد تفعيل مرحلة التصنيع الصفة السبريانية التي كانت سائدة قبل المكننة، أي يفقد المؤدي المصنّع تماسه المباشر مع المادة الخام، ويصبح تماسه في هذه المرحلة ليس مع المادة، وإنما مع مادية الماكينة، فينحصر دوره في تشغيلها، وتوقيت التشغيل والطاقة المستنفدة في تشغيلها، ليس بإرادة وحس ذاتي، وإنما بموجب تنظيم مسبق لدور المصنّع، فيصبح دور المؤدي المصنّع لا أكثر من عامل أجير، من غير دور حقيقي معرفي وحسي. لذا، بهذا الدور يفقد العامل قدرات الحس بخصائص المادة، ويصبح «كما لو كان ماكينة عمياء بصيغة بشرية، تتعامل مع ماكينة من مادة جامدة هي بذاتها عمياء، وتشغل بطاقة مصدرها خارج عنها». وبقدر ما أخذ يفقد هذا الحس في دور المؤدي في مرحلة التصنيع، أخذ يفقد الحس الاجتماعي المتراكم لما كان يحصل وينضج في مرحلة التصنيع.

ولذا، فبقدر ما أصبح الحرفي في ساحة العمل أمياً أمام المعرفة الرؤيوية التي أخذ يحققها المعمار، في الوقت عينه، أصبح هذا المعمار الأكاديمي المتشخص نفسه أمياً أمام الحرفي، نسبة إلى تماسه الحقيقي مع خصائص المادة، بقدر ما انعزل المعمار عن التماس المباشر مع متطلبات ساحة التصنيع.

وكان من بين أهم الصفات العامة لطور الإنتاج الممكن أنه لأول مرة في تاريخ تطور أطوار الإنتاج، ظهر تناقض معرفي وحسي، وتأصل في الدورة الإنتاجية، بقدر ما أصبحت مرحلة الرؤيوية و مرحلة التصنيع تتعامل كل منها بموجب مرجعية متخصصة، وبمعزل نسبي عن الأخرى. فقد فقدت الدورة الإنتاجية المرجعية المشتركة التي كان قد انبنى عليها الإنتاج منذ أن ظهر الإنسان، وأخذ يصنع المصنّعات بهدف إرضاء الحاجة.

٢- التلقي في طور الإنتاج الممكن

خلاصة هذا الأمر أن من بين أهم صفات الإنتاج الممكن هي التالية:

أ- تعطل العلاقة الاجتماعية بين المصنّع والمتلقي، خاصة حينما تقوم منظمات كبيرة بتنظيم وإدارة هذه المرحلة، بصيغة معامل متوسعة، تضم عدداً كبيراً من العمال، كل منهم متخصص بجزئية سيرورة التصنيع، فيتفارق هذا العزل بسبب العزل الاجتماعي الحاصل بين المعمل والمجتمع المتلقي، إلا عن طريق السوق، لأن المعمل، كمنظمة،

لا يؤلف كياناً يتمتع بكيان ذاتي يحسّ، وإنما موقع الحس يكون قد انتقل إلى المرحلة
الرؤيوية، حيث يقوم بهذا الدور للمجتمع الرؤيوي المصنّم، فتصبح العلاقة بين المتلقي
والحسّ المتضمن في الرؤية غير مباشرة عن طريق المعمل، و ثم السوق.

ب- فقدان تصنيع المكننة الصفة السبريانية في سيرورات التصنيع، وبفقدانها هذا الحسّ
المحتل على المصنّعات، يفقد المجتمع بهذا القدر، بصفته المتلقي، فرصة و ظرف
تعامل حسيّاً مع مصنّعات تحمل حسّاً للصفات الأبتمالية، و تبعاً اقتران هذه الصفات مع
تلك القائمة في الظواهر الطبيعية.

ج- أدى الإنتاج الممكن الصناعي المتوسع إلى توسع المدن، فأبعد أفراد المجتمع
المتلقين، بدرجة ملموسة، من الظواهر الطبيعية التي كان يعيش معها قبل توسع المدن.
ففقد الفرد في المدينة بهذا القدر تماسه مع خصائص الظواهر الطبيعية، كما فقد الحسّ
بالصفات الأبتمالية التي تنبني عليها، الأمر الذي حفز الكثير من المدن الأوروبية الكبيرة
على استحداث البيوت الزجاجية كتعويض عن تماسهم مع الطبيعة.

د- مع توسع الطبقة الوسطى، وتوسع المدن، و ظهور طبقة برجوازية متعلّمة، توسع
مجال المعرفة العلمية، وانتشار التعليم، و عرض الفنون، عن طريق النشر و المعارض
و المتاحف و الاحتفالات و الطقوس الكلجيرية الفنية. فأخذت هذه المنظّمات تعرض
الرسوم و المنحوتات، و تقيم حفلات الرقص و الموسيقى خارج القصور، و تنشرها
بين العامة، خاصة الطبقة الوسطى منها. فأسهّم عدد كبير من الناس في أدائها، الأمر
الذي وسّع قدرات الناس على التعرف إلى أبتماليات الظواهر الطبيعية، كما صفات
الأبتمال القائمة في الفنون، و المقترنة بصفات الأبتمال القائمة في الطبيعة، إضافة
إلى انتشار المعرفة العلمية، في الفيزياء و البيولوجيا و غيرها من العلوم الحديثة التي
عرّفت الناس إلى موضوعية خصائص المادة، و تبعاً الصفات الأبتمالية القائمة فيها،
بما في ذلك القائمة في بدن الإنسان و الحيوان و أصناف النبات. فتداخلت هذه المعرفة
بصفات الأبتمال للظواهر الطبيعية مع تلك التي أخذت تظهر في المصنّعات، و التي
ظهرت في الفنون، خاصة منها الرسم و النحت و الموسيقى. و كان للمعمار المعاصر،
بصفته الرؤيوي القيادي، دور طليعي في تطوير هذه المعرفة و الحسّ بصفات الأبتمال.
فاحتسبت الجماعة المتلقية قدرات جديدة للحسّ بالصفات الأبتمالية.

هـ- و بسبب ظهور هذا التطور المعرفي، و تجدد التكنولوجيا في الكثير من المصنّعات،
و سرعة التطور المتطلبة في تصنيعها، عجزت الكلجريات المعرفية التقليدية عن

استيعاب متطلبات هذه المعرفة، بسبب توسعها، و تعقيد اختصاصها، كما بسبب سرعة ظهورها و استبدالها، الأمر الذي أدى إلى إحباط، أو عجز قدرات الكثير من أفراد المجتمع، إن لم يكن غالبية، عن مواكبة المتغيرات المعرفية، و تبعاً الحسية. فأدى مركب هذه العوامل إلى انهيار الحس العام لدى مجتمع المدينة، و قد تمثل هذا خاصة في المجتمع المعاصر صناعياً أكثر من غيره، أي في مجتمع إنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر.

٣- التغذية الاسترجاعية في الإنتاج الممكن

بقدر ما أصبح المتلقي يفقد المعرفة المناسبة لسيورات الإنتاج الممكن، فقد المتلقي تهيئة تغذية استرجاعية مناسبة للمرحلة الرؤيوية، بل أصبحت هذه التغذية شديدة الاختصاص، بقدر ما أصبح تصميم المصنّعات شديد الاختصاص. فأصبح المتلقي، عامة، متلقياً أمياً يتلقى المصنّعات من غير معرفة متوافقة مع التطور المعرفي في التصنيع و العلوم عامة، و فقد تماسه الطبيعي مع الصفات الأبتالية القائمة فيها. وأصبح غالب آلية التعرف إلى أدائية المصنّع و قدراته الأدائية، و جدوى الشكل في أداء إرضاء الحاجة، عن طريق الإعلان، الذي هو ذاته أصبح اختصاصاً شديد التعقيد و الاختصاص، إلا أن الإعلان لا يؤلف تجربة واقعية لجدوى أدائية المصنّع. و بسبب سعة الإنتاج من حيث الكم، و امتداد متطلبات التصميم و التصنيع و التسويق في الزمن، أصبحت التغذية الاسترجاعية، نسبة إلى مرحلة التصنيع و الرؤيوية، تستند إلى قدرات التسويق، أي فقدت العلاقة المباشرة بين المتلقي و المصنّع، و أصبح الرابط بينهما قدرات التسويق و الإعلان، و ليس معرفة موضوعية و حسية.

تؤلف التغذية الاسترجاعية تلك المرجعية المشتركة المستقرة نسبياً، التي تغذي مختلف المراحل الإنتاجية، عن طريق إيصال معلومات في اتجاه معاكس إلى اتجاه الدورة الإنتاجية. و تؤلف التغذية الاسترجاعية تلك المعلومات و الخبرة المكتسبة من جانب المتلقي، من خلال و بسبب تفعيل معرفة الفرد في مرحلة التلقي. و هذه تغذية أساسية في ربط الدورات الإنتاجية المتعاقبة.

و تحصل المعرفة التي تؤلف التغذية الاسترجاعية عن طريق تفاعل الفرد مع المصنّع كأداة وظيفتها إرضاء الحاجة المركبة. و بعد أن يتأمل فيها، و يقيّم كفاءة أدائية شكل المصنّع كأداة إرضاء الحاجة، و كفاءة قدرة التعامل، أي جدوى تكييف الشكل ليؤلف أداة فعالة، سهلة التعامل، يقدم المتلقي و يهيئ رؤية ذاتية لخبرته و تقيمه لهذا المصنّع.

وبقدر ما ينقل هذه الخبرة إلى المرحلة الرؤيوية في الدورة الإنتاجية اللاحقة، تصبح تغذية استرجاعية.

لا تحصل دورة إنتاجية ما لم تُسبق بدورة من تلقى لتغذية استرجاعية سابقة لها، حيث تصبح المعلومات المتضمنة فيها قاعدة معرفية للدورة اللاحقة، سواء أكان هذا في تحسين الشكل، أم الإضافة إليه، أم نبذه، أم ابتكار شكل جديد.

الفصل الرابع

القدرات الفكرية و الحسية التي تحرك
المرحلة الرؤيوية في الدورة الإنتاجية

في الفصول السابقة، كنا قد وصفنا الأبتمال وبيّنا خصائصه، وأشرنا إلى تفعيل الحركة بين الفكر وهذه الصفات والخصائص، أي تفعيل تفاعل الفكر مع المادة، وهو تفعيل يهدف إلى تحقيق أداة إرضاء الحاجة المركّبة، عن طريق أدائية المصنّع. وسيكون من المفيد وصف القدرات الفكرية والحسّية بصفات الأبتمال في تفعيل مبتمل في المرحلة الرؤيوية للدورة الإنتاجية.

وقبل وصف هذه القدرات الفكرية والحسّية، سيكون من المفيد أن نشير إلى القاعدة الأساسية التي تنبني عليها حركة الدورة الإنتاجية، فهناك بالضرورة ثلاث حركات ضمن الدورة الإنتاجية، متفاعلة ومتداخلة:

١ - حركة الفكر الذي يفاعل التفاعل الجدلي بين الحاجة المركّبة والتكنولوجيا الاجتماعية.

٢ - حركة الفكر الذي ينقل من الدماغ إلى المادة الجامدة.

٣ - حركة الفكر الذي يؤلف وظيفة المصنّع، أي حركية الإيصال، من المرسل إلى المرسل إليه.

إن الفكر، إرادة الفرد، هو الذي يحسّ ويعي ظهور متطلبات حاجة مركّبة جديدة، ويعي أن هناك حاجة إلى ابتكار رؤية لها، فيقدم على تحفيز تفعيل مرحلة التصنيع، حيث يتحقق تفاعل المادة الخام مع الرؤيوية المرسل إليها، وحيث يتحقق تحويل المادة من صيغتها الخام إلى شكل المصنّع، وتحفيز حركة تعامل المصنّع لإرضاء متطلبات الحاجة الفيزيولوجية والسيكولوجية لوجودية الذات، في مرحلة التلقي.

و الإرادة هنا، عند الإنسان، تنفقر إلى استراتيجيات موروثه، خلافاً لما هي عند الحيوان الآخر، لذا فهي إرادة حرّة. ولكن هذه الحرية مشروطة بمقومات المرجعية المشتركة التي كانت تعتبر حرية الفكر التي تتمتع بها الذات، هي ذاتها التي ابتكرتها، وجعلت منها القاعدة الفكرية للدورة الإنتاجية، الأمر الذي يعني أن الحرية التي يتمتع بها

الفكر، طبيعياً، هي مؤطرة بقاعدة تفعيل سيروراتها، أي المرجعية المشتركة. وبما أن المرجعية المشتركة هي كيان فكري جمعي، فهي كتلة تتألف من فكر سابق، متعدد؛ البعض منه متوافق، والآخر متضارب، والبعض طليعي نسبياً ومتفائل، والآخر محافظ ومتشائم، ومنه مسرّ، بينما الآخر كئيب. فكيان المرجعية هو كيان فكري معرفي، إلا أنه بسبب تكوينه المتضارب هو خامد، لا يتمتع بقدرات حيوية. هذا ما يجعل المرجعية المشتركة كياناً فكرياً لا يمتلك قدرات ابتكارية، لأن المرجعية المشتركة، كقوى فكرية، تكون استنفدت حيويتها عند التكوين، بسبب تكوينها اللامتسق، والأفكار المتعددة، والمتضاربة، لا المنسقة.

إلا أن الدورة الإنتاجية لا تتمكّن من تحقيق سيرورتها من غير المرجعية المشتركة، كقاعدة فكرية تستند إليها، وتجعل الحوار الاجتماعي ممكناً وفعالاً ضمن الدورة الإنتاجية، وإلا من غير هذه القدرة على الحوار، سيتوقف الإنتاج، وتعطل القدرة على إدامة الاتصال، وتبعاً البقاء.

وإذ يفترض تحريك الدورة الإنتاجية في الأساس وجود المرجعية كقاعدة له، ولكن الحرية التي تتمتع بها إرادة الإنسان لا تقبل بهذا الجمود الفكري الذي تتصف به المرجعية المشتركة، لا لسبب، إلا لأنه سيعطل التقدم المعرفي، وتبعاً قدرة البقاء لدماغ دينامي (dynamic).

إذاً، في مقابل جمود المرجعية المشتركة، أو خمولها، أو سباتها، تتقدم المخيلة الحرة، وتبتكر أداة تشغيل المرجعية. ويحصل هذا عن طريق تجمع بعض الأفكار، لبعض الأفراد الطليعيين ضمن المجتمع، حيث تبلور هذه بكيان فكر دينامي يقوم بتفعيل المرجعية المشتركة.

ويحصل هذا عن طريق تكوين فكر متجانس، يسخر كأداة تنظيم تعامل الفرد والمجموعة مع التكوين المركّب واللامتجانس الذي يكوّن المرجعية المشتركة. وقد اصطلح على هذا الفكر، أو الفكرة المتجانسة، بالـ «سكيمة» (schema)^(١). وهذه عبارة عن مختزلات وترجمات مختصرة، أو صور مبسطة، يسخرها الفكر في تعامله مع المرجعية، فيتمكّن من تحريكها، أو يسخرها كقاعدة ينطلق منها لتفهم متطلبات الحاجة الجديدة، وتهيئة رؤية لها.

E. H. Gombrich, *The Sense of Order: A Study in the Psychology of Decorative Art*, Wrightsman (١) Lectures, v. 9 (New York: Phaidon Press, 1920), p. 130.

لذلك يصبح التعامل مع المرجعية المشتركة وتفعيلها ممكناً، بالرغم من وضعها المركّب، وأحياناً يكون شديد التعقيد، بقدر ما تضم المرجعية وتعبّر عن تكوين معرفي وحسي وأيديولوجي وعقائدي، وأوهام وأساطير واختلافات معرفية فئوية وطبقية.

و يمكن وصف وظيفة الـ «سكيمة» في التفاعل مع المرجعية المشتركة، بأنها تنقل التفاعل خارج شروط المرجعية، وتجعله يخضع لشروطها التي تستحدث من جانب فئة طبيعية، بهدف تجاوز شروط التفاعل التي تفرضها عليهم خمولية المرجعية المشتركة. وهكذا يصبح التعامل الجديد مع المرجعية غير ممكن، بل كذلك يتوافق مع الرؤية الجديدة التي تتكر من جانب هذا الفكر الطبيعي في المجتمع.

وهكذا تقوم الـ «سكيمة» بدور تنظيم التفاعل بين المرجعية المشتركة والرؤية التي تكون أدخلت كقوى فكرية في الدورة الإنتاجية، أو أنها إحدى القوى المتعددة التي تسخرها الرؤية في تفعيل المرجعية بصيغة متوافقة من متطلباتها. وغالباً بقدر ما تستقرّ هذه الـ «سكيمة»، وتفقّد حيويّتها، تصبح هي ذاتها جزءاً من كيان المرجعية المشتركة، أو تبقى فعالة في تنظيم وصياغة تفعيل حرّ ضمن الدورة الإنتاجية. وتظهر الـ «سكيمة» أحياناً بصيغ فاشن أو طراز لفترة ما، أو تظهر كمعايير في التكوين الشكلي، تستحدث بسبب تطور تقني، أو متطلبات آتية بسبب ظروف معينة أو طارئة تحصل في البيئة الاجتماعية أو الطبيعية.

وما إن تستقر القوى الدينامية للـ «سكيمة» في تفاعلها مع المرجعية، بعد أن تكون قد استنفدت الدورة الإنتاجية طاقتها، تنتقل إلى حالة التأمل والتقييم ضمن مرحلة التلقي، فتؤلف البعض من قواها مقوماً في التغذية الاسترجاعية. وعن طريق سيرة التغذية الاسترجاعية التي ترسل إلى مرحلة الرؤية، تكون مرت بالمرجعية المشتركة، وتفاعلت معها، وأضافت من عندياتها لتكون المرجعية التي ستؤلف القاعدة للدورة الإنتاجية اللاحقة. وتعمل هذه الـ «سكيمة» على تفعيل الدورة الإنتاجية الجديدة، فتؤثر فيها، وتأثر بها، فتظهر سكميات دينامية جديدة، وباستحداثها تتغيّر المرجعية المشتركة.

وهنا علينا أن نذكر أن الدورة الإنتاجية هي تفاعل المقرّرين: الحاجة الاجتماعية بصيغتها المركّبة، والتكنولوجيا الاجتماعية بصيغتها المركبة أيضاً. لذا تتحرك دورة إنتاجية جديدة، إما بسبب حدث أو تطور أو اكتشاف ضمن الدورة الإنتاجية، الأمر الذي يربك التوازن المستقرّ والقائم فيها، بين الحاجة الاجتماعية والتكنولوجيا الاجتماعية، وإما بسبب تغيّر خارجي في البيئة الاجتماعية أو الطبيعية، الأمر الذي يؤلف عاملاً في

تحريك دورة إنتاجية جديدة. ومن دون هذا التباين في تكوين المقررين، لا تحصل دورة إنتاجية جديدة، ومن دون تحريك دورة إنتاجية جديدة سيعجز الوجود عن تأمين أداة البقاء.

و مهما قوي دفع تحريك دورة إنتاجية جديدة، لا يمكن أن تتحرك ما لم يكن هناك تغذية استرجاعية سابقة لها، ومتفاعلة معها، ومصدرها دورة إنتاجية سابقة، سواء تكملة لها، أو تحقيق تعديل عليها، وتنضيج لها، أو ردود فعل ضدها، الأمر الذي يؤدي إلى استحداث رؤية جديدة، ونقله جديدة لإنتاج جديد ومجتمع جديد.

و بعد هذه المقدمة للعلاقة بين الدورة الإنتاجية والمرجعية التي تؤلف قاعدة لحركتها، يمكننا أن نصف القدرات الفكرية والحسية التي تحرك مراحل الدورة الإنتاجية، ضمن المرحلة الرؤية التي تؤلف بداية تفعيل الدورة، ويفترض أن تتضمن رؤية فعالة جديدة للقدرات الفكرية والحسية التالية:

١ - وعي معرفي وحسي لمتطلبات حاجة جديدة يتعين إرضاؤها.

٢ - وعي معرفي وحسي لابتكار «سكيمة» جديدة، تمثل موقفاً جديداً يقدم عليه فرد أو جماعة.

٣ - استحداث رؤية لشكل الأداة التي عند تسخيرها ستمكّن من إرضاء الحاجة المركّبة. وهي رؤية الأداة التي تتضمن رؤية لقدرات تصنيعها، وبعد أن يفاعل الرؤيةي «سكيمة» يتعامل بموجها مع المرجعية. ويكون بهذا قد اطلع على رؤىيات أشكال و صفات الأبتماليات التي تحملها مصنّعات دورات سابقة، فتصبح المرجعية المشتركة، بهذا التفعيل، قاعدة معرفية وحسية فعالة لتحقيق الرؤية الجديدة.

٤ - وفي الوقت الذي يتحقق تفعيل المرجعية المشتركة، يكون الرؤيةي قد حقق تفعيل التغذية الاسترجاعية، التي تتضمن التأمل والمعرفة المكتسبة خلال تلقي دورات سابقة، تصف له كفاءة المصنّع في إرضاء الحاجة. وبهذا التفعيل تصبح القاعدة المعرفية في تماس معرفي مع واقعية كفاءة إرضاء الحاجة في الدورة السابقة، وليست مختصرة بالمعرفة العامة القائمة في المرجعية المشتركة.

٥ - استحداث رؤية تهدف إلى تحقيق توازن بين مقومات الحاجة الجديدة والتكنولوجيا المعتمدة في الرؤية، وبهذا التوازن، تمتلك الرؤية قدرات من صفة الأبتمال، فالرؤية تمثل هدف تأمين البقاء، والتكنولوجيا تمثل الطاقة المستنفدة.

٦ - قدرة الرؤيوي على الحسّ بالصفة الأبتالية عامة، و تسخير هذه الحسّية في تحقيق صفات مبتلة في الرؤية الجديدة.

٧ - اقتران رؤية المصنّع المستحدثة، كحسّ أبتالي لها، مع حسّ أبتالي لشكليات متشابهة قائمة في الطبيعة.

٨ - قدرة الرؤيوي على تفهم متطلبات مركب الحاجة، و التعاطف معها بامبية (empathy)^(٢) مناسبة، سواء أكانت هذه تخصّ فئة صغيرة في المجتمع أو غالب أفراد المجتمع. و سواء كانت كذلك الرسالة التي يحملها المصنّع تعبر عن وجدانية إنسانية عميقة (universal)، و هموم عاطفية و معرفية، أو أنها هموم طارئة محلية تخصّ حصراً جماعة ما. و سواء كانت الـ «سكينة» التي تسخر في تفعيل الرؤية عامة أو خاصة بمتطلبات فئة معينة ضمن المجتمع.

٩ - و بما أن الوعي و الحسّ بمتطلب مركب الحاجة لا يكتملان، و كذلك الوعي و الحسّ و القدرة على ابتكار التكنولوجيا المسخرة في تفعيل التفاعل الجدلي بينهما، لذا لا يحصل توازن مكتمل بينهما. و عليه، لا يمكن تحديد قيمة هذا التوازن مسبقاً، أو تحديد صورة متكاملة له. و سيبقى تقدير التوازن تقديراً معرفياً حدسياً. و سيعني التوازن النسبي المحقق في واقعه تفاضل أحد المقررين في تفعيل التفاعل الجدلي بين المقررين، فإن عجز أحد المقررين عن تأمين قدرات متوافقة و مناسبة مع متطلبات التقدم المعرفي عامة، سيفسد التفاعل الجدلي.

و هذا يعني أنه إذا كانت متطلبات الحاجة الاجتماعية تعبّر عن موقف للإنساني، مغلق، رجعي، فستفسد الرؤية مهما كان مقرر التكنولوجيا الاجتماعية متقدماً و طبيعياً. و في المقابل، إذا كانت التكنولوجيا المسخرة متخلّفة معرفياً، ستفسد الرؤية مهما كانت متطلبات مركّب الحاجة إنسانية و نبيلة، لأن وظيفة الرؤية هي أساساً تحقيق توازن بين إرضاء الحاجة و الطاقة المستنفدة. و ستعجز الرؤية بالضرورة عن تحقيق الصفة الأبتالية لرؤية المصنّع، التي تعبّر عن قدرة هذا التوازن.

١٠ - إن ما يحققه المؤدي الرؤيوي من تكوينات لأشكال المصنّعات، التي تعتمد من قبل أفراد المجتمع في ممارسات لاحقة، مهما كانت متوازنة و مجدية و تنصف بأبتاليات رفيعة، لا تؤلف «قوانين» يمكن اعتمادها في تحقيق رؤى في دورات إنتاجية لاحقة، لأن

(٢) التقمّص العاصفي، الاعتناق.

قبول الشكل و جدواه هي قيمة ذاتية. و المبادئ التي يحملها الشكل، كأنماط و أنساق، هي علاقات لسمات الشكل، يمكن أن يقتدى بصفات أبتماليتها، وهي أشبه باقتداء الصفات الأبتمالية القائمة في أشكال الأشياء الطبيعية، الأمر الذي يعني استحداث رؤية جديدة، لاحقة، تفترض بالضرورة ابتكار شكل جديد ليتمكن من التعبير عن المقررين اللذين حصل فيهما تغير، أي بسبب التغير الحاصل في مقومات المقررين، أو أحدهما، تعطل أبتمالية الشكل، فيفترض التفعيل الجديد ابتكار توازن جديد و التعبير عنه بقدر مناسب.

١١ - إن القيمة التي تحققها الرؤية ليست التوازن المحقق بين المقررين: إرضاء الحاجة و الطاقة المستنفدة، و لا خصائص الأبتمال المحققة في تكوين الشكل، و إنما القيمة هي الحس بهذا التوازن و الصفة الأبتمالية. و من غير التفاعل الحسي و الإبتشية (empathy) من الشكل، سيبقى التكوين علاقات مادية من دون حس تحركه أو تثير فيه نشوة الوجود. للسبب ذاته، من الممكن أن تتمتع رؤية في مرحلة تاريخية بدائية و لمجتمع بدائي، بقيم و صفات من الأبتمال رفيعة، بقدر ما تحقق من توازن بين المقررين، بينما الرؤية في مجتمع متقدم ستكون فاسدة و خرقاء، و تقتفر إلى صفات الأبتمال، بقدر ما تعجز عن تحقيق هذا التوازن.

١٢ - يقصد بالمعرفة تفعيل التفاعل الجدلي بين المقررين: يتضمن معرفة موضوعية لمتطلبات الحاجة بالقدر المناسب، أو طليعية، و معرفة موضوعية بالقدر المناسب لخصائص مقومات التكنولوجيا. ولكي يتمكن هذا التوازن من تحقيق شكل يعبر عن هموم وجودية الإنسان، يشترط أن يرضي الحاجة الاستيطيقية عند التعامل معه و تسخيره كأداة تلي، أي تكون الرؤية حققت إضفاء على الشكل، بقدر مناسب من الصفة الأبتمالية المركبة، أي الصفة الأبتمالية المتحققة في الشكل و مقترنة مع صفات أبتمالية قائمة في الطبيعة.

١٣ - وبما أن تفعيل الرؤية يبني على المرجعية القائمة، في توافق معها، ينبعث تطلع جديد، الأمر الذي يعني تهيئة كلجربة ما في أيديولوجية المجتمع، أو الحضارة القائمة عامة، الظرف الذي يحفز الرؤيوي، و يوظف قدرات حرية إرادته في استحداث الرؤية الجديدة. و بقدر ما يكون هذا الظرف هو ذاته محفزاً لرؤية جديدة، و يتضمن فسحاً و متفسات لحرية إرادة الفرد، تتمكن الإرادة من تشييط و تحفيز قدراتها الذاتية الابتكارية القائمة في دماغ الإنسان، و تنبثق المرجعية القائمة إلى الخارج، فتحقق قفزة

أو نقلة لرؤى جديدة. وهكذا تتقدم عبقرية الفرد المتفرد، فتبتدع نوادر متميزة، تتصف بقدر من صفات الأبتعال، وأحياناً بتماييز هائل. وهكذا تنتقل الحضارات وتتقدم، وهكذا تحققت المآثر البشرية. وقد تحقق هذا في مختلف أطوار الدورات الإنتاجية، سواء في العصر الحجري، المتمثل برسوم لاسكو، والمذهبات السومرية، والأهرام المصرية، وبمعبد البارثينون في أثينا؛ وقصر الحمراء في غرناطة؛ والكميناللي/برج الأجراس، تصميم غيوتو (Giotto)، في فلورنسا؛ وكنيسة كلية الملك في كامبريدج؛ وبازيليكا/ كنيسة القديس أندريا في مانتوا، تصميم ألبرتي؛ ومؤخراً في عصرنا القصر البلوري، تصميم جوزيف باكستن (Paxton)؛ وكنيسة رونشامب، تصميم كوربوزيه.

الفصل الخامس

السرور و الاستمتاع

لا شك في أن الناس عادة يَسْرُونَ عندما يشاهدون شيئاً جميلاً، سواء أكان هذا قصراً أم معبدًا أم شكل بدن حصان عربي، أم زهرة من فصيلة الزنبقة، أم مشاهدة جمالية لبدن إنسان، أنثى أو ذكر. فالإنسان عادة يجد في أشكال هذه الأشياء ما يسره، وفي مقابل هذه الأشكال والأشياء، هناك الكثير الذي يعتبره كريهاً، من حيث الشكل والرائحة والمذاق. وبالتأكيد يتفق الكثير من الناس على شكل ما بوصفه جميلاً ومسراً، ولكن في الوقت عينه هناك حالات تتباين فيها الأذواق، في قبولها وارتياحها للأشكال، أو الامتناع منها.

هذا ما يجعلنا نسأل: هل السرور بمشاهدة شكل لشيء ما هو حالة موضوعية أم أنها ذاتية محضة، كما يعتقد الكثير من الناس والمنظرين؟ هذه مسألة أقدم على بحثها ومعالجتها الناس عامة، والمنظرون في مجال شكل الأشياء. بداية يحصل هذا التباين بين موقف الناس من أشكال الأشياء والظواهر منذ أن أخذ المجتمع يتوسع، وتتنوع مصالح الأفراد، وتباين التجارب، وتتفاضل مواقع الأفراد ضمن تركيب المجتمع. وبقدر ما كان المجتمع بدائياً في تركيبه التراتبي، وبسيطاً ومتسقاً، كانت الأذواق متقاربة، أي بقدر ما كانت المرجعية المعرفية التي يحصل بموجبها، وعن طريقها، حوار أفراد المجتمع والتعامل مع الأشياء ومشاهدتها، مرجعية مشتركة وعامة، كان تلقي الناس لأشكال الأشياء وسرورها متقارباً.

لقد أصبح السؤال المحير الذي شغل المنظرين منذ أن أخذوا يسجلون ملاحظاتهم التي تمثلت بداية بحوار الفلسفة الإغريقية: لماذا نسرّ، ولماذا يسرنا الشكل، وآخر ينفرنا، ولماذا تتباين مواقفنا أحياناً، وفي أحيان أخرى تتوافق؟

لقد ظهر الإنسان العاقل، وهو يتمتع بقدرات الحسّ بصفات السرور، سواء في تعامله مع المصنّعات التي يستحدثها أم مع الظواهر الطبيعية التي تنبني على حالات من تعامل مسرّ. فأخذ يمنح أسماء ومفاهيم ومصطلحات لهذه الحالات المسرّة التي يلاقيها في معيشه اليومي، وفي مختلف الظواهر والأشياء الطبيعية، فتظهر له أشياء سارة، ولأنها

سارة تكتسب بغالبيتها صفة الجمال. وعكس هذا، فإن لم تسرّ، يهملها أو ينبذها، فيتجنّبها.

ما يهمنا هنا هو أن مخيلة الإنسان تمتلك القدرة على تصور مسبق للسلوكيات والأشكال التي تسرّ الذات عند التعامل معها ومشاهدتها، لذا تسعى نحوها.

لم يظهر هذا الحسّ بالسرور عند الإنسان العاقل فجأةً وخارجاً عن التطور الطبيعي عند الحيوانات، خاصة المتقدمة منها، بل تؤلف صفة الأبتمال في سلوكيات التعامل مع الموجودات الحالة المناسبة، بقدر الاكتفاء بتحقيق التعامل المتوافق الذي يؤمن البقاء. فتسرّ الذات، لأنه عن طريق هذا التعامل سيتحقق تأمين البقاء، أو هكذا ستكون رؤية هذا التعامل في المخيلة. إذًا، ما يسرّ الذات هو ذلك الشيء، والسلوكيات التي تؤمن البقاء، وما يتضمنه من راحة البال وطمأنة الوجود.

إذًا، السرور، هو تلك الحالة السيكلوجية التي تشعر الذات بأنها في حالة، أو تمكّنت من تحقيق حالة، حيث سيؤمن البقاء والاستمرار، سواء البقاء الواقعي في عالم معيش الوجود، أو البقاء في البعد الذي يمتد في الزمان الدنيوي، أو البقاء الذي يمتد في عالم آخر.

أولاً: الاكتفاء والمتعة

إذًا، كيف، ولماذا يتحقق هذا السرور في وعي الإنسان، عند التعامل مع بعض أشكال المصنّعات والأشياء الطبيعية؟ ولماذا يُسرّ الإنسان عندما يتحقق اكتشاف الجديد في أشكال بعض المصنّعات والبعض من الظواهر والموجودات في الطبيعة؟ ولماذا أو كيف نعلم أن معالم معينة ستسرّنا ولذا نقدم على ابتكارها وتصنيعها؟ وما هي أسس ونهج تصنيع أشكال ومعاليم نعلم أنها ستسرّنا؟

إننا نأكل بهدف إدامة البدن، تماماً كما تأكل البقرة، وكلّنا يأكل بهدف الاكتفاء. ولكننا حينما نأكل نعي أن الطعام ضروري لتأمين البقاء، فنحن واعون أن هناك علاقة واضحة سببية بين الأكل والبقاء، بينما البقرة تأكل لأنها استورثت استراتيجية تدفعها إلى الأكل.

ونحن نختلف عن البقرة، ونتميز منها، ليس لأننا واعون بعلاقة الأكل بالبقاء فحسب، وإنما بعد أن يحصل الاكتفاء، نعلم أن في الأكل متعة وسروراً يتداخلان مع تأمين البقاء. وهي متعة وسرور لا يكونان دائماً متوافقين مع متطلبات البقاء البيولوجية، أي أن

المتعة، كسلوكيات وحسّ، قد يتجاوزان متطلبات البقاء البيولوجية، ويتناقضان معها. وهذا السرور، والحس به، والسعي إليه، يميزنا من البقرة، وربما من جميع الحيوانات الأخرى. فهناك البعض من الحيوانات، كبعض الجرذان تأكل كلما توفر الطعام، وتصل إلى التخمّة، كما يصل الإنسان إليها عند البعض. فهل هناك خلل بيولوجي في آلية الاكتفاء التي يشترك فيها الإنسان مع الجرذان؟ إنها مسألة لم تحسم بعد، بينما هناك حيوانات أخرى، كالأسود والنمور والغزلان والشمبانزي، تأكل بقدر الاكتفاء. المهم هنا أن الإنسان يحقق سرور الذات ويسعى إليه. فنحن نلعب ونسرّ، كما تسرّ الكلاب والقطط والشمبانزي في لعبها.

ونحن كباقي الحيوانات نمتلك الآلية التي تعلمنا بحصول الاكتفاء. ولكن هذه الآلية تتعارض أحياناً مع السعي إلى السرور، حيث تفلت رغبة تحقيق السرور، وتعطل آلية الاكتفاء، ويصبح السرور مسمى أو هدفاً بحدّ ذاته. مع ذلك، فالإنسان عامة يسخر القدرات الحسية والمعرفة المكتسبة، الموضوعية والحدسية^(١)، فيضبط مسعى السرور، ويكفي بالقدر المناسب من السرور، وإلا من دون هذا الضبط لما تمكّن الإنسان من تأمين البقاء.

يحصل الانجذاب بقوى الدافع الغريزي، أي يحصل بقوى استراتيجيات مورثة بيولوجياً، فالبقرة تنجذب إلى العشب، وتأكله بسبب قوى استراتيجية مورثة. أما الإنسان، فينجذب إلى الطعام كذلك بقوى استراتيجية مورثة، وضمن هذه الاستراتيجية، ومن خلالها، يعني أن الطعام ضرورة للبقاء، وهذا ما يضيف على سيكولوجية البقاء الراحة والاطمئنان، أي يحصل السرور عند تحقيق تناول الطعام لأنه بهذا التعامل سيحصل تأمين البقاء، وعند العجز عن تناول الطعام، يتعرض البقاء للخطر. إن تفعيل تناول الطعام، أو إرضاء هذه الحاجة، يكون مسبقاً بالمعرفة التي تتراكم كحصيلة للتعليم والتدريب والتجربة، فتتراكم وتؤلف مرجعية فكرية، كذاكرة يحملها الفرد، وكذاكرة تشكل جزءاً من المرجعية الفكرية التي يحققها المجتمع. وتنبني هذه المعرفة على موضوعية التجربة والحدس والحس والهاجس التي تتحرّك ضمن تعامل التجربة.

(١) الحدس: يسخر مصطلح «حدس» من قبل اللغة الدارجة والتظير الفلسفي بمعان متعددة، ولذا قد يؤدي استعماله إلى بعض الالتباس أو الغموض إذا لم نحدد بأي معنى كمؤشر دلالي يسخر هذا المصطلح. فالحدس بمفهومه الغيبي، كما عند المستشرقين، هو النور الإلهي، والذي يصطلح عليه عامة بالإلهام. ما يحس الحدس الموضوعي، وهو تلك المعرفة التي تنبني على حسّ ضمني، ولكن غير قابل للتحديد والتصنيف والتنظيم المعرفي، ولذا فهو معرفة لتلك الموضوعية.

و عندما يحصل التعامل بهدف إرضاء الحاجة، وذلك بموجب معرفة مسبقة، و معرفة مستحدثة في آليات التعامل، يحصل شعور بالسرور، فالسرور يحصل بسبب وجود حاجة يتعين إرضاؤها عن طريق التعامل مع شيء خارجي؛ شيء عندما يتحقق يحصل إرضاء الحاجة، والذات الواعية بذاتها تعلم أنه سيحصل إرضاء الحاجة مع هذا التحقيق، فتُسَرّ. والسرور هو علاقة الذات بتأمين إرضاء الحاجة مع أداة ومادة تأمينها، أي أنها علاقة خارجية. فإذا كان السرور توقعٌ وتفعيلٌ إرضاء الحاجة وتحقيقها، فإن المتعة هي التأمل السيكولوجي الداخلي بحصيلة إرضاء الحاجة. كما أن المتعة حالة سيكولوجية خاصة تفرد بها الذات، ولا يظهر منها إلا سمات خارجية، وتبقى شعوراً داخلياً، سواء أقدمت الذات وعبّرت عن متعتها أم لا، وتبقى انعكاساً لما يحصل داخل سيكولوجية الذات، فتُسَرّ الجماعة، وتعبّر عن سرورها بحركات وإيماءات، كالتصفيق والابتسام والضحك. لكن المتعة تبقى حالة متفردة خاصة لا مجال للإفصاح عنها، سوى مظاهرها. فحينما يتحقق السرور بتعامل مع المستحب والجذاب والفاتن والمبهج والمنشط، تتحقق المتعة بالوجود بقدر ما تتحسّس أحاسيس الذات بالشم واللمس والنظر والسمع والتذوق.

ثانياً: الجمال

الجمال هو قيمة لصفة شكل مصنّع أو لظاهرة طبيعية، تمنحها الذات لهذا الشكل، فتراكم هذه القيم وتؤلف مرجعيات معرفية، مشتركة وخاصة ذاتية، تسخرها الذات والجماعة في تقييمها لصفات الأشياء. وقبل أن نصف هذه القيمة، ومقومات تركيبها، وشروط ظهورها، وإفسادها، سيكون من المفيد أن نشير إلى البعض من مفاهيم قيم الجمال التي جاء بها الفلاسفة. وقد جاءت مصطلحات: الفن والجمال والاستيقية، غالباً، مرادفة في التنظير الفلسفي. وتعني غالباً القطعة الفريدة الفنية الجميلة، والتعامل معها، وتذوقها أو تصنيعها من جانب فنان. مع ذلك، جاءت مفاهيم هذه المصطلحات بحسب مقولات مفهوم الاستيقية لدى الفلاسفة والمنظرين المتنوعة، ربما أهمها:

١ - الإلهام، الاستشراق، المثال.

٢ - تعبير عن هموم المجتمع، والتعبير عن الأيديولوجيا - الدين، الطائفة، الإثنية، التراتيبات الاجتماعية.

٣ - الاتقان في العمل / التصنيع.

يتحقق سرور الذات عند وعيها أو حسنها أو حدسها ومعرفتها بأن إرضاء الحاجة سيتحقق عند التعامل مع شيء ما، وسيتحقق هذا الإرضاء بواسطته. من غير هذا الإرضاء، تشعر الذات بأن بقاءها مهتدد، فالسرور هو تلك العلاقة بين الذات والشئ، أي أنه يحصل عند التفاعل مع شيء خارجها. ويحصل السرور عندما تكون الذات في دور التعامل معه، وبقدر ما يؤلف بالنسبة إليها أداة إرضاء الحاجة. وبقدر ما يتوافق حصول هذا السرور مع مزاجية الذات في آليات التعامل، تستمتع الذات. فيؤلف حصول السرور ظرفاً تحصل فيه متعة الذات. ولكن ليس كل سرور يسبب المتعة، لأن المتعة هي حالة توافق ظرف السرور مع مزاجية الذات في تقبل ذلك السرور، أي تحصل المتعة فقط بقدر ما يتوافق ظرف السرور مع ظرف مزاجية الذات في تقبل ذلك السرور.

و حينما يحصل السرور عند التعامل مع شيء، يكون تعامل خارج الذات، كتعامل الذات مع مصنع، أو شيء آخر يسخر كأداة إرضاء الحاجة. ويتحقق السرور بقدر ما يحصل هذا الإرضاء، بينما المتعة تحصل في داخل سيكولوجية الذات، كتأمل استعادي وتألمي للسرور. ولأن المتعة تحصل مع تأمل استعادي ذاتي، هي حالة نفسية تتفرد بها الذات، وللسبب ذاته، يفترض حصول المتعة في حالة تزامن مزاج سيكولوجي للذات المتفردة بقبول هذا السرور، أو عندما يكون السرور حالة سيكولوجية موضوعية نسبياً، لأن شرط الحصول هو تعامل مع شيء خارج الذات، سواء كيان قائم أو متخيل. فتحصل المتعة، كامتداد للسرور، وتكون حصيلة لتأمل استعادي ذاتي لذلك السرور في سيكولوجية الذات.

وفي سيرورة حصول سرور الذات عند تعاملها مع شيء، وتمتعها بهذا التعامل، تكون الذات منحت من عدياتها قيمة للحس بهذا الاستمتاع، لأنها استمتعت، وبقدر ما استمتعت. وعند منح هذه القيمة لذلك الاستمتاع، تكون الذات، في الوقت عينه، قد منحت في تلك الأنبيات التفاعل، أي القيمة ذاتها للشكل الذي حصل التعامل معه، وبسببه حصلت المتعة، والسرور أصلاً. وعند تكرار هذه السيرورة من التعامل، وحصول السرور والاستمتاع، واقتران هذه القيمة المستحدثة في آليات المتعة، بقيم قائمة في الذاكرة، يتحقق نقل صور لهذه القيمة إلى الذاكرة، فيحصل تراكم هذه القيمة مع قيم مشابهة لتؤلف ذاكرة الذات.

و بتفاعل قيم متشابهة ضمن حوار مجتمع الجماعة، و تفاعل حوارى بينهم، و من خلال المرجعية المشتركة، تتوسع المرجعية المشتركة، و تضم قيماً متعددة متشابهة و مقترنة، لتؤلف خزين المرجعية المشتركة. و هكذا ستتوسع المرجعية المشتركة الفعالة، حيث يقدم أفراد الجماعة على تشغيلها في التماور و تداول القيم في ما بينهم، فتتعدّد صور قيم الاستمتاع و تتنوّع. و هكذا تتوسّع الصور لمفهوم الاستمتاع في ذاكرة الذات، و المتفاعلة مع المرجعية المشتركة، و تبعاً في ذاكرة الجماعة، فتتوسع و تنضج.

فالجمال، إذًا، هو تلك القيمة التي تمنحها الذات لصفات الأبتمال لشكل الشيء، الذي كان التعامل معه سبب ابتداء السرور، و هو سرور حصل في توافق مع مزاج الذات، و كانت الذات قد استمتعت به، و منحت قيمة ذاتية في المخيلة. و بقدر ما تفرّن قيمة هذا الاستمتاع بالصفة المبتملة لشكل الشيء، تكتسب القيمة المفضّلة، و بهذا تكون قد اكتسبت صفة الجمال، أو اكتسبت مصطلح الجمال.

و هذا يعني أنه بقدر ما تنقل صورة لصفة من الأبتمال إلى ذاكرة ذات الفرد المعين، و تتراكم فيها، و من ثم تنتقل إلى ذاكرة المجتمع، تتراكم صور لصفات الجمال في المرجعية المشتركة. الجمال، إذًا، قيمة ذاتية، تنبني في سيرورات لتعامل ممتع، و يكون بالضرورة تعاملًا مع خصائص الأبتمال التي يحملها الشكل المتعامل معه.

إن مصدر الجمال، كموقف و تصور، ينبني على حسّ و حدس و معرفة ذاتية للصفة الأبتمالية لتكوين شكلية الشيء، و هي صفة أبتمالية تتوافق مع متطلبات الحاجة و تدعم إرضاءها. و في المقابل، مع هذا المصدر هناك مصدر آخر يسبب حصول قيمة الجمال، و هو موقف و معرفة موضوعية تنبني على بحث تجريبي علمي موضوعي في اكتشاف أبتمالية الشكل، لأن اكتشاف خصائص الأبتمال في شكل الشيء هو اكتشاف معرفي يدعم قدرات إرضاء الحاجة عند التعامل مع الأشياء. و ليس بالضرورة أن تخصّ هذه المعرفة واقعية معيش الفرد الإنسان و أهمية بقائه، و إنما تخصّ عامة تطوّر عمومية المعرفة، و توسع الوعي بالأشياء عامة.

و حينما نتكلم على الجمال، لا نتكلم في الواقع على شيء قائم في الوجود بحدّ ذاته، و إنما على تفاعل يحصل بين حسّ الذات، و في آليات التفاعل مع خصائص الأبتمال، أي نتكلم على ذاتية الحسّ بصفات الأبتمال القائمة في شكل الشيء.

الجمال، إذًا، هو قيمة في المخيلة، أي قيمة للشكل كصورة في المخيلة لحالة خصائص الأبتمال. و تمنح هذه القيمة للشكل بقدر ما تتمكّن المخيلة عن طريق الحدس

والمعرفة من التعرّف إلى صفة الأبتمال. إنها قيمة تمنح لحالة الحسّ بالتوازن الحاصل بين استنفاد الطاقة وقدرة الشكل على إرضاء الحاجة، حينما يكون التعامل مع شكل المصنّعات ممتعاً، ونسبة إلى الشكل الطبيعي حينما تحسّ الذات باستقرار الحركة التي كانت السبب بحصوله لتوافق مع إرضاء الحاجة، ولا يؤلف هذا الشكل خطراً عليها. ولذا يصبح الشكل مسرّاً، وتستمتع الذات بالتعامل معه. ولأن سيكولوجية الإنسان هي هكذا، فإنها تُسرّ وتستمتع بالتعامل مع الصفة الأبتمالية، فتمنح هذه الذات قيمة لصورة هذه الصفة. وهذه قيمة مفضّلة تمنح عند حصول حالة الاستمتاع، أو للاستمتاع نفسه. كما أنها قيمة تمنح، في آن، لصورة الشكل الذي كان أداة الاستمتاع. لذا، حينما تقارن هذه القيمة بقيمة أخرى وبشكل آخر، تكون مقارنة حدسية لجمالية الصفات الأبتمالية لشكلية الأشياء.

هناك، إذاً، علاقة مباشرة بين صفة الأبتمال ومنح الشكل قيمة جمالية. ومن غير هذا الوعي والحسّ بصفة الأبتمال في تطور حضارة الإنسان، لعجز الإنتاج عن تعامل مبتل مع الأشياء، وتحقيق الصفة المبتملة في شكل المصنّعات، ولعجز تبعاً عن تحقيق ابتكار الحضارات وتقديمها. لذا يفترض الحسّ والحدس والمعرفة بعلاقة الشكل مع إرضاء الحاجة، الحسّ بالصفة الأبتمالية، فتمنح الذات قيمة لهذا الشكل بقدر ما يؤلف أداة استمتاع بالنسبة إليها، ويصبح شكلاً يحمل، أو محمّلاً، قيمة جمالية.

«إن قدرة الإنسان على هذا الحسّ بالصفة الأبتمالية هي في الواقع قدرته على منح قيمة لما هو متوافق مع تأمين البقاء وراحة بال الوجود، وهي حصيلة لتحقيق التوازن المناسب بين متطلبات إرضاء الحاجة واستنفاد الطاقة في تحقيق هذا الإرضاء».

وهذا يعني أن الحسّ بجمالية الأبتمال هو حسّ موضوعي، بقدر ما يعي هذا الحسّ خصائص الأبتمال لواقع تركيب كتل مادية الشيء. إن الجمال قيمة ذاتية، ولكنها تنبني على علاقة حسّية موضوعية.

إن ما يسرّ الذات هو حالة ذاتية مزاجية متفرّدة، ولكن قاعدة تفاعلها الخارجية المادية والبيولوجية تكون أحياناً متطابقة، وأحياناً أخرى متشابهة مع الحالات المتعددة للأفراد الآخرين. لذا هناك اتفاق وتوافق عام بين هؤلاء الأفراد على منح قيم جمالية لكثير من الأشياء، فنجد اتفاقاً عاماً على جمالية غالب أشكال الأشياء في المجتمع التقليدي، ويحصل هذا الاتفاق بقدر ما تكون المرجعية الفكرية والتدريب الحسي مشتركين.

ثالثاً: تباين قيم الجمال وإفسادها

بقدر ما أخذت الإرادة تشتهي، مع تطور تكوين المجتمع، و تسعى إلى تنوّع جديد في معيشتها، تنوّع إنتاج المصنّعات، وأخذ يحقق أشكالاً جديدة مبتكرة أحياناً، وأحياناً أخرى غير مبتكرة، بقدر مناسب أو رفيع، أو بينهما. وهكذا أخذت قيم الجمال تتباين في مختلف المجتمعات، وفي المجتمع المعين.

وتحسّ الذات بصفة الأبتمال القائمة في خصائص الظواهر الطبيعية، وتمنحها قيمة استحسان، بقدر ما تؤلف هذه الظواهر، نسبة إلى الوعي بالوجود، مقوماً يتوافق مع تأمين البقاء. لذا تُسرّ الذات وتستمتع بالتعامل معها، وتمنحها قيمة جمالية. ويتحقق هذا السرور والاستمتاع خلال العلاقة الحسية والمعرفية بخصائص الظواهر بحسب كيفية تسخيرها وتشغيلها في تأمين البقاء. ولذا، يتباين الموقف من أشكال حالات الأبتمال القائمة في الظواهر الطبيعية. فنجد، مثلاً، ظاهرة ما تنبذ لأن الذات تعتبر بأنها تؤلف خطراً على بقائها. ونجد الظاهرة نفسها تستحسن بعد أن تكتشف الذات قدرات وطرق تشغيلها، كأداة تأمين البقاء والاستمتاع. فتكتسب، عند ذاك، قيمة استحسان، وجمال، نتيجة للمعرفة المستحدثة والمكتسبة.

ومن جهة أخرى، بما أن صفة الأبتمال في الدورة الإنتاجية تبتكر وتكون حصيلة للتفاعل الجدلي الحاصل بين المستقطبين والمقرّرين: متطلبات الحاجة الاجتماعية المركّبة، وفي المقابل المستقطب الثاني، التكنولوجيا الاجتماعية، أي الطاقة المستنفذة في هذا التفاعل، تستمتع الذات بقدر ما تحسّ وتعني أنها تمكّنت من تحقيق صفة الأبتمال في هذا التعامل. وكذلك الأمر عند تعامل التلقي، تستمتع الذات بقدر ما تكتشف وتحسّ بصفة الأبتمال في شكل المصنّع، وتمكّن من تعامل هو ذاته مبتمل مع الشكل المبتمل.

لذا، تؤدي الدورة الإنتاجية في العلاقة الجدلية بين هذين المستقطبين، إلى تغير في تقييم صفة الأبتمال، وتبعاً في تقييم المصنّع كأداة تأمين البقاء والاستمتاع. فالمصنّع القائم، يكتسب قيمة جمالية عند تصنيعه، بقدر ما يكون قد حقق الصفة الأبتمالية، وبقدر ما تحسّ الذات بهذه الصفة ودورها في قدرات تأمين البقاء، وتسخيرها كأداة استمتاع. وبقدر ما يتحقق ظرف مناسب للتعامل مع هذا المصنّع، كأداة تأمين الوجود، يكتسب موقعاً مناسباً في جدلية المنافسة، مقارنة بالمصنّعات الأخرى التي توظف في إرضاء الحاجة نفسها، أو ضمن صنفها.

مع ذلك، يفقد المصنّع وظيفته في إرضاء الحاجة، بسبب فقدانه الموقع المناسب في جدلية المنافسة، وهذا لا يعني زوال صفة الأبتمال، ذلك أن علاقات تكوين الشكل، بوصفها علاقات لخصائص المادة، ستبقى قائمة لأنها علاقات كانت انبثت في مادية المصنّع. ولذا تبقى كصفة مسبقة، حصلت في الماضي، ومعرضة لتفعيل جديد لاحق. وعند ذاك تمنح قيمة من موقف استعادي، أو حين سلفي، أو ظهور ولع جديد بالصفة الأبتمالية التي يحملها شكل المصنّع. وهذا تماماً ما يحصل لبعض المصنّعات، كالتحف الفنية، والآثار، والخرائب، أو المصنّعات التي تحققت من جانب مجتمعات وحضارات سابقة.

لقد منحت قيم جمالية لمعبد البارثينون (Parthenon) في أثينا القرن الخامس ق. م، ولقبة الصخرة في القدس في القرن السابع، ولجسر موسار في القرن الثامن، في زمن تصنيعها. ولكن الحس بالصفة الأبتمالية التي تحملها أشكال هذه المصنّعات معرض أن يتفاعل في حقبات زمنية لاحقة. وبهذا يتحقق إحياء الحس بالصفة الأبتمالية التي تحملها أشكال هذه المصنّعات. ويحصل هذا بقدر ما يتمكن حس الذات بتفعيل التعرف إلى صفة الأبتمال، بشرط أن يتوافق التفاعل مع مزاجية الذات، فيحصل إحياء القيمة الجمالية، لهذه المصنّعات، وتكرر في الزمن.

رابعاً: الوفرة والفائض في الإنتاج، وإخفاق تحقيق صفة الأبتمال

يختلف إنتاج الإنسان جوهرياً عما يحققه الحيوان، وتبعاً تختلف علاقة الإنسان بالظواهر الطبيعية اختلافاً جوهرياً، إذ كلما تقدمت تكنولوجيا الإنتاج، ظهرت قدرات جديدة تحقق الفائض. وقد أخذ الإنسان يحقق الفائض من موقف واع، ويسعى إليه، وهيأت له فرص عديدة ومتنوعة الراحة واللهو واللعب والسمر. وقد استطاع المجتمع البدائي، مجتمع الصيد، أن يحرر جزءاً كبيراً من الوقت خارج متطلبات إنتاج أداة تأمين الحاجة النفعية. فأخذ يستنفد طاقة متزايدة في إرضاء الحاجتين الآخرين: الرمزية والاستيطيقية، وذلك باستحداث طقوس لدعم الهوية والاستمتاع، واستحداث كلجريات اللعب والاحتفالات وغيرها من ممارسات اللهو والسمر.

وبسبب القدرات الإنتاجية عند الإنسان، تم تحقيق الفائض منذ القدم، وتحقق التقدم الحضاري، بما في ذلك تأسيس تنظيمات متفرغة لإدارة المجتمع، وظهور دور المتخصص في الإنتاج وابتكار الفنون ومختلف الطقوس.

ومع ظهور الإنتاج الزراعي، ظهر الفائض، الأمر الذي جعل من الممكن إدامة البقاء عن طريق استهلاك الكم المتوفر من الفائض، نسبة إلى الآخر، من دون تعامل مجد مع خصائص الأبتمال، أو ضرورة تحقيق توازن للدورة الإنتاجية، أي أنه أصبح من الممكن أن يفسد التعامل، وهذا بسبب اعتماد صيغة إنتاج غير مجدية. وبقدر ما يدخل عامل الفائض في العلاقات الإنتاجية، كعامل خارجي، في دورة تصنيع مصنع معين، يتوفر قدر من الطاقة، لهذه الدورة، ويكون من مصدر خارج عنها، ومستمد من قدرات الفائض المتوفرة.

هذا يجعل تفعيل الدورة من دون تحقيق توازن بين إرضاء الحاجة والطاقة المستنفدة، وذلك مقارنة بالصيغ الأخرى من التصنيع. وبهذا التدخل الخارجي في الدورة المعنية من جانب قوى خارجة عنها، تفقد هذه الدورة التوازن، ويُفقد التوازن بين مختلف الدورات ضمن الإنتاج عامة. فيصبح من الممكن الاستمرار والدعم بطاقة خارجية لدورات تصنيع بعض المصنّعات، بينما تفقد دورات أخرى الدعم، فيختل التوازن بين الدورات، وتفسد علاقات الإنتاج الطبيعية.

غير أنه لم يكن لهذا الدعم الخارجي لدورة ما، أو الخلل في التوازن بين علاقات الدورات، تأثير سلبي في المراحل الأولى من تطور الإنتاج، وذلك في مختلف صيغ الإنتاج التقليدي وإنتاج المجتمع الزراعي عامة. ولم يكن ظهور محسوس لهذه الظاهرة المتناقضة في الإنتاج، وذلك لأسباب متعددة. ومن بين أهمها ببطء سيرورات تعاقب تجديد متطلبات الدورات الإنتاجية، التي تكون جزئية بحكم بطء تطور الإنتاج. فتتأخر الفرصة والوقت المناسبان لاكتشاف الخلل الحاصل في علاقات توازن الدورات، فتتحقق تسويتها.

وبقدر ما كان تطور الإنتاج بطيئاً، تحققت تسويات منافسة ضمن تعاقب الدورات الإنتاجية، وكانت تكيف أدوار المؤدين، في مختلف مراحل الدورة الإنتاجية، مع متطلبات التطور.

وبسبب هذا التعديل والتسويات المتجزئة والمتعاقبة، تمكن الإنتاج التقليدي عامة، ما قبل التصنيع، من تحقيق درجات من صفات الأبتمال في مختلف مجالات إرضاء الحاجة.

مع ذلك، هناك حالات لحضارة تعجز عن تجديد ممارسات الإنتاج بصيغ مبتكرة، متوازنة في إرضاء الحاجة واستنفاد الطاقة، وتظهر فيها كالجريات فاسدة، فتتلوّث

أشكال المصنّعات، و يتبلّد الحس المتعامل معها. و من بين مسبّات و صيغ مثل هذه الحالات الكلجيرية، نذكر ما يلي:

١ - القيادة الفاسدة

عندما تهيم على قيادة حضارة المجتمع فئات جاهلة، عنيدة و فاسدة، تستهلك الفائض من غير أن تقدم على التجديد و الابتكار المنافس و المناسب، و هذا تماماً ما حصل في إنتاج الوطن العربي، بدءاً من القرن الخامس عشر مقارنة بالإنتاج الأوروبي عامة.

٢ - التقنيات المتأخرة

عندما يستورد الإنتاج تقنيات و سلوكيات لا يتمكّن من استيعابها، تنهار بنية المعرفة لكلجيرية الإنتاج، و يدخل المجتمع عصر انحطاط حسيّ. و هذا ما يحصل في الوقت الحاضر في إنتاج الوطن العربي، خاصة في مجال العمارة و التأثير المتزلي، بدءاً من بداية القرن العشرين.

٣ - حصول تقدم أسرع من قدرات استيعابه

إنه كذلك الأمر، أو مشابه في مظاهره، حينما تتقدم حضارة ما، و تكون في دور تقدم سريع، حيث لا تتمكّن المرجعية المعرفية و الحسّية الفعالة من استيعاب صدمة التطور السريع، فتتفكك الكلجيرية الحسّية أمام هذا الزخم المعرفي التقني. و هذا تماماً ما حصل في عمارة البعض من المناطق الصناعية في إنكلترا في منتصف القرن التاسع عشر. و هو كذلك ما يحصل في عمارة الطرق الرئيسية في الولايات المتحدة.

٤ - استيراد الطرز

حينما استوردت طرز و تكنولوجياية التأثير المتزلي الأمريكي إلى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية خاصة، لم تتمكّن كلجيرية التأثير المتزلي هناك من استيعاب متطلبات المعرفة للتغيّر من الطراز الياباني إلى الحديث الأمريكي بالسرعة المناسبة، فتلوّث تأييد المنازل.

- من بين أسوأ حالات ظاهرة التلوّث الحسي ما حصل في تلوّث البيئة المعمّرة، نجد ذلك في مدن كالقاهرة و بغداد و دمشق، بعد منتصف القرن العشرين.

- تغالي أحياناً رغبة تعدد التنوع عند تحقيق الجديد والاستمتاع به، قبل إنضاج الدورة الإنتاجية ومن غير تحقيق توازن مناسب. فتزلق الدورة في رؤية وتصنيع مصنّعات تعجز أشكالها عن تحقيق قدر مناسب من الأبطال. وهنا مصدر ظهور مُصنّعات مبتذلة تفنقد حتّى لصفة الأبطال، واستمرار تصنيعها يؤدي إلى ظهور كلجريات إنتاجية فاسدة خرقاء. تتمثل هذه الظاهرة أحياناً بظهور موجات فاشن هجينة وزائفة.

- إن توفر الفائض لمدة طويلة يجعل مخيِّلة الجماعة تشعر بأنها غير مهذّدة، لذا لا تعي ضرورة المنافسة والتجديد. فينعكس هذا على سلوكيات التعامل، فتكسل قدرات الابتكار، وتعجز عن تجديد سلوكياتها وموقفها من الوجود عامة، ومقارنة بالآخر. وهذه ظاهرة اجتماعية من بين أهم أسباب عجز استمرار الحضارة.

- تظهر أحياناً قوى اجتماعية مبنية على أيديولوجيات وعلاقات اقتصادية ومقامية تعبّر عن عقائد وترعى مصالح لبعض الفئات في المجتمع، فتفرض على المجتمع عقائد وسلوكيات تمتد في الزمن وتصيغ عادات وتقاليد. وتظهر بصيغ تقاليد وعادات ومراسيم وطقوس وسلوكيات دينية وإثنية ومقامية، وفي شكل وطرز الملابس والمأكّل والعمارة والتأثيث وغيرها من الممارسات الاجتماعية، فتعطل القدرات الحسّية للمجتمع في مجالات معينة من قدرات التعبير التي نمت مع تطور حسّية الإنسان. وهذه قدرات سخرها الإنسان في التعبير عن الحاجتين الرمزية والاستيطيقية، منذ أن وعى وجوده. وبقدر ما تسخر هذه القوى في كبت البعض من القدرات الحسّية، تؤلف قوى سلبية في كبت أو تشويه إرضاء الحاجة الاستيطيقية. ويتمثل هذا بموقف مسيحية العصور المظلمة نحو الرقص والجنس، والإسلام من الموسيقى والرقص والنحت والرسم.

إن إهمال ممارسات هذه الحسّيات، وكتبتها والاستخفاف بأهميتها، كمجالات حسّية للتعبير عن الحاجة الاستيطيقية، والاستمتاع بالوجود، من جانب أيديولوجيات دينية أو إثنية أو سياسية، تدفع الناس إلى ممارستها بصيغ مبتذلة، وذلك لأنها تؤلف حاجة طبيعية، ولأن ممارساتها في حالة مثل هذه لا تُدعم بتنظيم اجتماعي كلجري يتضمن التدريب والتشقيف والتضييق. فتبتلّد القدرات الحسّية في هذه المجالات وتصبح ميمات (meme)^(٢) سلبية ضمن المرجعية الحسّية للمجتمع.

(٢) والميمات هي أصغر وحدة كلجيرية مستوية، أشبه بالجينات التي هي أصغر وحدة وراثية بيولوجية. وتمثل الميمات بالسلوكيات والعقائد والمناحي وغيرها من مقومات الكلجر، ترثها الناس من الطفولة ضمن التربية البيئية والتعليم الابتدائي، فتفاعل هذه الوحدات الكلجيرية مع القدرات الجينية، وتصبح قوى سيكلوجية تثبت في وعي الفرد. كان أول من اقترح بصياغة مفهومها، البيولوجي ريتشارد دوكنز.

تفاعل هذه الميمات الكلجيرية السلبية مع القدرات الحسية الجينية الموروثة، فتبلدها. وما إن تصبح هذه المناحي ميمات سلبية، تكون قد تثبتت في مرجعية وعي المجتمع، وتنتقل من جيل إلى آخر. وكلما امتدت في الزمن، تصبح كلجريات سلبية تقليدية، وسيعجز المجتمع عن تجاوزها وإصلاح سلبياتها إلا بجهد كبير، قد يمتد إلى عدة أجيال. وربما من بين أهم مظاهر هذا التبلد الحسي هو تلوث عمارة المدن، كما يتمثل بلباقة اللباس والزي واللغة وغيرها من مقومات الحضارة.

خامساً: المنافسة

المنافسة متأصلة في تركيب مجتمع الإنتاج، ذلك أن دماغ الإنسانيات تطور واكتسب قدرات ابتكارية، فأخذ يسخرها ويغير البيئة المعيشة. فاكسب الإنسان العاقل من قدرات الابتكار، كماً ونوعاً، أكثر من الإنسانيات الأخرى التي كانت سابقة له، والتي تزامنت معه. وكانت هذه القدرات التي اكتسبها هي التي مكّنته من الاستمرار في البقاء، في حين زالت الإنسانيات الأخرى. فتمكّن بالتالي من إسكان الكرة الأرضية كافة. حصل كل هذا بحكم قدرات الابتكار التي اكتسبها الإنسان العاقل. وهناك علاقة جدلية بين التنافس والابتكار، وكل منهما ظرف وجود الآخر، وتنشيطه.

وهذا يعني أن كل فرد من بين الجماعة في مجتمع الإنسان العاقل يتمتع بقدرات ابتكارية تتجاوز القدرات الاستراتيجية الموروثة بيولوجياً، أو من الأدق أن نقول: بقدر ما أخذت هذه القدرات تتطور، فقد الإنسان قدرات استيرات استراتيجية. وفي المقابل، اكتسب قدرات ابتكارية، حيث أخذ يغير البيئة المعيشة، لا بموجب استراتيجيات موروثة، وإنما بموجب ابتكار يستحدث من قبل إرادة الفرد، والقدرات التي أصبح يحملها دماغه، والمتفاعلة مع ظرف المنافسة مع الآخر.

وهكذا، بقدر ما يتمكن الفرد أو الجماعة من ابتكار أداة/ مصنع للتعامل مع البيئة، فإن هذه الأداة معنية أكثر من غيرها بتحقيق توازن: بين إرضاء الحاجة والكمّ من الطاقة المستنفدة، فتتقدم الجماعة وتهمل الأداة التي كانت قائمة في مجتمعها، وتبني استعمال الأداة الجديدة المبتكرة، أي تلك التي يعتبر شكلها الأكثر أتمالاً. فيحصل هذا الانتقال و التطور بسبب هذا التنافس بين ما هو مجد والأكثر جدوى في إرضاء الحاجة، وتأمين البقاء. فإذاً، التنافس بين جدوى التقنيات متأصل في تركيب مجتمع إنتاج الإنسان العاقل.

فمثلاً، إذا أقدم أحد أفراد الجماعة وابتكر سهماً يتصف بتوازن أكثر جدوى، ستقدم الجماعة و تتبنى استعمال هذا السهم الجديد، ويهمل القديم. وإذا عجزت هذه الجماعة، لسبب من الأسباب، عن تبني هذا الابتكار، وحصل أن علمت به جماعة أخرى، أو أقدم أحد أفرادها وابتكر سهماً يتوازن مشابه أكثر جدوى، فيختل توازن قدرات البقاء بين هذين الجماعتين، فتعرض الجماعة الأولى لضغط تغير تقنيات الأداء و سلوكيات و علاقات معيشتها، لتتمكن من تأمين التوازن بينها، وإلا لعجزت عن تأمين موقعها و مقامها مع الأخرى، ما يؤدي إلى زوالها.

و هكذا كان نهج العلاقة بين قرى مجتمع الصيد البدائي التي كانت في جوار و تماس، و انتقل نهج التوازن هذا بقدر ما تقدم مجتمع الإنسان، من قرى الصيد البدائي إلى قرى الإنتاج الزراعي، و من ثم في ما بين المدن الكبيرة، و في ما بين الإمبراطوريات الزراعية الكبرى. و كذلك هو النهج الذي حدّد العلاقات بين الحضارات الصناعية الكبرى. و هكذا اختل التوازن بين هذه الحضارات الصناعية، و تلك التي تخلّفت تقنياتها و سلوكياتها و أيديولوجياتها، و التي تمسكت بتقاليد المجتمع الزراعي.

لقد خسرت المجتمعات التقليدية الزراعية موقعها في التوازن الذي كان قائماً، و أصبحت مجتمعات متخلّفة، تابعة، و مهيمناً عليها، و أخذت موقع المجتمع المتخلّف، الثالث، و المعوز و الفقير و البائس.

و هذه المنافسة لا تنحصر في التكنولوجيا بمفهومها الضيق في مجال التصنيع، وإنما تشمل المنافسة كذلك في مجال رؤية الوجود: و هي رؤية حرية الإرادة و تهية الطرف المناسب للابتكار و التنوع. كما أنها تؤلف ظرف تنضيج قدرات الحسّ و الاستمتاع بالوجود، و إضفاء معنى للذات الواعية بقدرات إرادتها الابتكارية.

سادساً: ظهور التلوّث و الفوضى

و لكن مع ظهور البيئة المعمرّة الملوثة، أي ظهور العمارة و الأشياء التي لا تتصف أشكالها بالصفة الأبتمالية، ظهر في بيئة الإنسان ظاهرة جديدة، لم تكن قائمة في ماضي وجوده، إذ لم يتطور دماغ الإنسان و يظهر إلى الوجود في ظروف لاقت تلوثاً بيئياً، الأمر الذي يعني أن دماغ الإنسان لا يمتلك آلية تؤهله لتعامل مجيد مع بيئة لا تتألف من أشكال مبتعلة.

إن التنوع مهما تعدد، وتركب، ما زال يتألف من أشكال مبتملة، فيبقى ضمن قدرات دماغ الإنسان في التعامل مع صيغ من انجذاب أو إهمال أو نبذ.

ولكن التكوين الشكلي لأشكال البيئة الملوثة يختلف جوهرياً عن التنوع المركب القائم في الظواهر الطبيعية. فبينما يتسم شكل الظواهر الطبيعية، بحد ذاته، بصفة الأبتمال، وتؤلف تجمعاته وتركيباته صيغاً من الاتساق، تتقدم القدرات الحسية للمخيلة، وتنظم منها صيغاً من الأنماط، بينما الأشكال التي تؤلف التلوث لا يتسم غالبها بصفة من الأبتمال، بل إنها خرقاء. ولذا لا تتمكّن المخيلة من أن تجد في تجمعاتها ومركباتها صيغاً من الاتساق، ولذا لا تتمكّن من تنظيم أنماط منها، فتؤلف بالنسبة إليها حالة من الفوضى.

غير أن دماغ الإنسان لا يمتلك آلية يتمكّن بموجبها من التعامل المجدي مع حالة من الفوضى، وذلك لأنه لم يظهر إلى الوجود في دور التدريب على التعامل مع فوضى الأشكال في مراحل تطور ظهوره. فلو كان ظهوره هكذا، لو هن وعجز عن أداء تعامل مجيد مع متطلبات البقاء، ولما تطور، وتعرض البقاء للخطر، أو لظهر دماغ الإنسان بصيغة أخرى، ليس كما هو عليه.

كما أن الفوضى هي تعدد أشكال لا تتصف بالأبتمال، ولذا لا تتمتع بالضرورة بتنظيم متسق بينها. إنها حالة مستجدة في تاريخ وعي الإنسان للتعامل مع البيئة المعيشة، لأنه لم يكن لها وجود قبل أن أقدم الإنسان المعاصر واستحدث تلوث البيئة المعمرّة، والمتضمنة أشكالاً خرقاء، وخاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وما إن يجد دماغ الإنسان أنه يعجز عن قدرات اكتشاف الأنماط والاتساق في علاقات التكوين الشكلي للأشياء، فإنه يرتبك ويحبط في تعامله معها، ويعجز عن تعامل مجيد مع الأشياء. وفي حالة مثل هذه، ترتبك سيكولوجية الفرد وتفقد راحة البال والطمأنينة الوجودية، لأنها تشعر بعجزها عن تعامل مجيد مع متطلبات تلك الأشياء. فيعطل تعامله معها، وينبذها، أو يهرب منها، لأنه في ما لو استمر لو هن وتعرض البقاء للخطر.

إن الدماغ لا يمتلك الآلية التي تمكّنه من التعامل مع فوضى قائمة في علاقات أشكال الأشياء. ولذا، إذا استمر التعامل مع فوضى، سيعجز عن الاستمرار في هذا الضغط السيكولوجي، ويوهن، وسيسعى الدماغ إلى إيجاد مخرج لهذا العجز الوجودي، الذي يؤلف مأزقاً فريداً نسبة إلى تكوين الدماغ، لأن الفوضى غير قائمة في الطبيعة، ونادراً

في التعمير التقليدي، ولم يظهر التلوث البيئي إلا في بعض المدن الكبيرة، وفي مناطق محدّدة منها، خاصة بعد منتصف القرن التاسع عشر.

فلا حيلة عند الفكر سوى أن يعطل قدراته الحسيّة لفترة من الزمن - وهذه آلية يسخرها الفكر كلما واجه أزمة نفسية لا يتمكّن من حلها. وإذا استمرت هذه الأزمة بقدر تفوّق قدراته على تحملها، يمرض بحالة من العُصاب.

ولكن إذا وجد نفسه محتبساً مع أشكال ملوثة، كمعيش في مدينة ملوثة مثل مدينة القاهرة في السبعينيات، وبغداد التسعينيات، ولا يمتلك حرية إهمالها، لأن معيشه فيها، لا مهرب له منها، فإنه سيلتجئ إلى آلية جديدة، تفرض على الفكر، وهي تبدّل قدراته الحسيّة.

بهذا يجمد الفكر قدراته التنظيمية لاتساق الأنماط، ويجمد الحسّ بتوازن أبتمالية الأشكال، فيستحدث للوجود رؤية جديدة لا تتضمن أنماطاً، وإنما وجوداً غير مميّز، يتألف من تكوينات لا تنظم بتنوع متسق، أي يقدم الفكر ويجمّد قدراته الحسيّة، ويصبح التعامل مع عموميات مضبضة، لا تتضمن أشكالاً متميّزة ومتسقة، فتجرّد المخيلة من الحسّ بأبتمالية الأشكال.

ولكن هذا لا يحصل إلا بعد أن يقدم الدماغ على تجميد قدراته الطبيعية، وتبدّل قدراته الحسيّة. وبقدر ما يحصل هذا نسبة إلى الفرد المعين، ويكون تبدّل حسّ ذلك الفرد، يفتقد الوعي حسّاً مرهفاً بالوجود، ويفقد التعامل مع الأشياء، وذلك الحسّ الذي اكتسبه دماغ الإنسان هو حصيلة لتطور علاقات مع الأشكال الطبيعية المبتعلة، وتنوعها وتنظيمها بأنماط.

وفي حالة معيشية مثل هذه، يصبح أمام الفكر أحد النهجين: إما معيش مرتبك، مثبط، بسبب الفوضى في علاقات أشكال الأشياء في بيئة ملوثة - وهذا لا يمكن أن يدوم، لأن الفكر لا يتوقف عن أداء وظيفة تعامل مُجدٍ مع متطلبات البيئة، بصيغها المبتعلة - وإما يقدم الدماغ على تبليد قدراته، فتعطل هذه القدرات الحسيّة، وعندها يتمكّن من إدامة المعيش بصيغة غير مرتبكة، ولكنها تفتقر إلى الحسّ بصفات أبتماليات أشكال الأشياء، وتعيش وعياً بليداً مع بيئة أقدم على تصنيعها فكر تبدّل أو يتبدّل بحكم معيشه فيها. فيفرغ التعامل حسّاً متعاطفاً مع الوجود، وحب الوجود، أي تبدّل الحاجة الاستطبيقية في وعي الفرد الإنسان.

سابعاً: العتق/ الباتينا^(٣)

بدأت حركة النهضة في إيطاليا في القرن الرابع عشر، ووصلت إلى أوجها في القرن السادس عشر. وفي القرن الخامس عشر استعمل مصطلح «النهضة» (Renaissance) ليعبر عن إحياء المعرفة والفنون الكلاسيكية عامة. وكان لكتاب المؤرخ والرسام والمعمار جورجيو فساري (Giorgio Vasari) (١٥٥٠ - ١٥٧٤) دور كبير في تحديد وتعريف مفهوم تطور الفنون، حيث سجل فيه تطور تاريخ الفن بدءاً من الفنان غيوتو (Giotto) (١٢٦٦ - ١٣٣٧) إلى مايكل أنجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤)، نظراً إلى أن هذه الحقبة تؤلف المرحلة المؤسسة لهذه النهضة.

وبقدر ما يهمننا عصر النهضة في هذا الفصل، إضافة إلى كون النهضة نقلة فكرية جذرية في تاريخ البشر، في المعرفة والفنون ورؤية الوجود، كانت في الوقت عينه نهضة نقل وتقليد وتأثر بالأنماط التكوينية للطرز الكلاسيكية. فظهر مصطلح «النهضة» (rinascita) ليعبر عنها ويصفها. وانتشرت في البدء مفاهيم هذه النهضة بين الأتباع والمعجبين بالعالم والشاعر الإيطالي پترارك (Petrarch) (١٣٠٤ - ١٣٧٤)، الذي أقدم على ترويج الامتثال بطراز الأدب الكلاسيكي، والإعجاب بمختلف آثار ورفات الحضارة الكلاسيكية. وأقدم، من بين ما أقدم، على جمع النقود الرومانية. وامثل غيره هذا المنحى، فأقدم من بعده پوغيو براتشيوليني (Poggio Bracciolini) (١٣٨٠ - ١٤٥٩) على التفتيش وجمع المنحوتات والنصوص الرومانية. وكان في هذا الجو المعرفي أن تطوّر منحى حب الآثار الرومانية والبحث والتنقيب عليها.

ومن بين الرسّامين المشهورين الذين تتبّعوا الآثار الكلاسيكية وتأثروا بمعالها، كان رفايللو (١٤٨٣ - ١٥٢٠) الذي عبّر عن هذا الأمر باهتمامه بال «فرسكو» (fresco)^(٤)، حيث، من خلال جدارية «مدرسة أثينا» (١٥٠٩) يظهر في هذا «الفرسكو» فلاسفة إغريق، كسقراط وأفلاطون وأرسطو. وقد جاء تكوين الصورة بصيغة برسبكيتفية ضمن حيز واسع، وبقوة تعبيرية لم يتحقق مثلها من قبل أو من بعد. ومن بين الفنانين الآخرين الذين اهتموا بالآثار الرومانية، وله تأثير في ظهور وتنضيج كلجربة الاهتمام بالآثار الرومانية، كان المعمار والرسام جيوفاني باتيستا پيرانيسي (Giovanni Battista

(٣) ال باتينا (Patina)، العتق، هي صفة لشكل الأبتال، حيث إنها تعرّض الشكل لعوامل تعرية تمتد في الزمن، عند ذاك لا تفقد صفة الأبتال من قيمتها الاستطيقية، بل يضاف إليها شكل التعرّي كقيمة استطيقية. وقد اصطلح بـ باتينا على التعري الذي يمنح قيمة استطيقية مضافة إلى الشكل.
(٤) فرسكو: هي رسوم جدارية تحقّق على الجبس قبل أن يجفّ.

(Piranesi) (١٧٢٠ - ١٧٧٨) الذي نَقَب عنها، ورسم بعض «الخرائب» التي كانت قائمة في روما.

لقد أخذ بيرانيسي ينقُب ويرسم الخرائب بأجيات (etches) تضمّنت الآثار الرومانية. وأظهر فيها علاقة التكوينات بين الضياء والظلام بصيغ وبدقة تعبيرية دراماتيكية مذهشة. لذا لم تزل هذه الأجيات تُعد من بين أهم ما تحقق في مجال هذا الفن، فعَرَف بيرانيسي الآثار الرومانية وجماليتها للناس، وأضفى عليها برسوم أجياته جمالية متميّزة، وقيمة فنية استثنائية.

وعندما أخذ البعض يفتش عن الآثار الرومانية وينقُب عنها، ظهرت بعض المنحوتات البرونزية التي كانت مدفونة تحت الأرض ومتأكسدة، أي ظهر التأكد على سطوحها، بألوان الأخضر والشذري المتنوع. فاكسبت ألوان التأكد قيمة بحدّ ذاتها، بوصفها تمثل القدم، وحضارة عظيمة كانت قائمة في أرض روما وغيرها. كما أنها تعبّر عن امتداد ذلك الزمن في الحاضر، وحضور القدم في الحاضر.

وقد كان الصينيون قد اكتشفوا هذه التكنولوجيا وسخّروها باستحداث باتينات على المنحوتات والأدوات البرونزية بصيغ مرقطة ومتنوعة الألوان، حيث لم يتحقق مثل لها في أي مكان آخر.

والباتينا هي تلك الطبقة التي تكون عادة خضراء اللون، وتتكوّن طبيعياً على مادة النحاس والبرونز، إما بسبب التأكد، أو بسبب عامل المناخ. ويمكن أن يحقق صناعاً بإجراء عملية تأكسد سطح المادة، ويتحقق هذا عن طريق تعريضها لأحد الحوامض، وذلك بهدف إضفاء سمة القدم عليها، وتبعاً الجمال والقيمة اللذين يقترنان به. وقد أخذ النهضويون يثمنون هذا اللون ويمنحونه قيمة استيطيقية.

عبر منحُ قيمة وأهمية فنية للخرائب المعمارية عن منحى جديد، ظهر في أوروبا مع الحركة الرومنطيقية، بينما في غالب تاريخ تعمیر البشر، كانت المصنّعات القديمة تهمل، وخاصة إذا كانت تعود إلى حضارة أو أيديولوجية أخرى أو مغايرة لها، فتستبدلها بجديدة، وأحياناً تستعمل موادها لبناء أبنيتها الجديدة. وربما استلني الرومان في بعض الحالات من هذا المنحى، لكنهم أداموا الأبنية القديمة، كالمعابد التي تعود إليهم، وأحياناً إلى أديان غيرهم ضمن مستعمراتهم، ولم يكن قبل الحركة الرومنطيقية حنين سلفي إلى عمارة الماضي. ولكن مع منح القيمة للآثار والخرائب الرومانية، خاصة في إيطاليا، ظهر هذا الاهتمام، وقد عبّر عنه بشعار ظهر على غلاف

كتب كبه البرتي في عام ١٥١٠، يقول: «نتعلم من الخرائب العظيمة التي كانت عليها روما».

انتقل هذا الحب للخرائب من الرسوم، كما جاءت في أعمال بيرانيستي و كلود لورين (Claude Lorraine) (١٦٠٠ - ١٦٨٢)، و جاكوب فان رويسدال (Jacob van Ruisdal) (١٦٢٨ - ١٦٨٢) إلى واقع بناء خرائب في تصميم اللاندسكيبات (landscapes) في باركات القصور الكبيرة في أوروبا. وقد علّق غوته على أحد هذه الرسوم بقوله: «لقد انتصر عناء الزمن على ما لم يتمكن من تحقيقه الإنسان». ويقصد بهذا أن القيمة الجمالية التي يحققها تلف الزمن للخرائب لا تتمكن من تحقيقها سمات الأبنية الجديدة، و هنا مصدر ظهور مفهوم العتق في الفن.

و كان في الكثير من الأحيان (etchings) التي حققها بيرانيستي بنسخ متعددة، والتي انتشرت في أوروبا، أثر كبير في منح الخرائب قيمة فنية استيطيقية، وهي هيات الحسّ الأوروبي لحبّ القديم، ولظهور الحنين السلفي الرومنطيق، بما في ذلك حبّ الخرائب في تصميم اللاندسكيبات (landscapes).

ظهرت هذه الخرائب في تصميم اللاندسكيبات في منتصف القرن الثامن عشر في إيطاليا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا. وكان أول ظهور للخرائب في العمارة بطرز رومانية أو كلاسيكية عامة. ومن ثم ظهرت بأشكال خرائب بطرز العمارة الغوطية. ويعتقد جون هاريس (John Harris) بأن أول ظهور لهذه الخرائب تزامن مع إحباط الفكر ضد العقلانية التي جاءت بها الديكارتية. وربما من الأصح أن نقول: جاءت الحركة الإنسانية، وأخذت تهتم ليس بفتة أو دين معينين، وإنما بتاريخ الإنسان عامة، وما حققه في الماضي، وهو حبّ التعرف إلى واقعية تاريخ الحضارات. وهذا منحى للتعرف خارج مفهوم الأساطير اللاهوتية، أو متناقض مع المفهوم التاريخي اللاهوتي الإبراهيمي، الذي كان سائداً على الفكر الأوروبي القروسطي.

لم يكن مفهوم كتابة التاريخ من دون ذكر أحداث السلطة المنتصرة، و تمجيد إنجازاتها وتقديسها، سرّاً لتمجيد عقائد دينية، وإضفاء السمة التقديسية عليها، وعلى رجالها وأحداثها، ومزجها بمعجزات وأساطير. كما أن ظهور كتابة للتاريخ سعت إلى الموضوعية، كما نجدها في الطبري والمسعودي والتوحيدي ومسكويه وغيرهم، كانت محصورة بأمة معينة. وجاء ابن خلدون في القرن الرابع عشر ليحلل العلاقة بين تكوّن السلطة والمجتمع، ولكنها كذلك جاءت محصورة بمجتمع معين، وبقيت

دراساته السوسولوجية مدفونة في كلجيرية ذلك المجتمع إلى حين ظهور الاستشراق في أوروبا في القرن التاسع عشر.

ولكن قبل هذا الأمر، وقبل ظهور الإنسانية مع عقلانية ديكارت وعصر النهضة، ظهر مع الفكر الفلسفي الإغريقي المؤرخ هيرودوتس في القرن الرابع ق. م.، فبحث وكتب في تاريخ الشعوب والأمم، لا لأمة معينة، أو لدين أو إثنية معينة، وإنما لمنطقة بكاملها. وكان هذا المنحى قد اقترن بعقلانية وإنسانية الفلسفة الإغريقية، وقد توقف عن كتابة التاريخ والاهتمام بهجوم الشعوب عامة مع مجيء الموجة الإبراهيمية، المتمثلة بالمسيحية والإسلام. فطمست الإنسانية الإغريقية في هذه الأيديولوجيات، إلا بقدر ما تمكّن الفلاسفة وكتاب التاريخ من تجاوز هيمنة اللاهوت الإبراهيمي. وكان على حضارة الإنسان أن تنتظر نحو تسعة عشر قرناً قبل أن يظهر فكر يبحث في عمومية تطور الحضارات، وقد حصلت تنشئته مع عصر النهضة.

انبنى رجوع الفكر النهضوي إلى تاريخ حضارة سابقة، وإلى عقلانية وإنسانية الحضارة الكلاسيكية، وتمجيد منجزاتها، إذًا، على منحنيين جديدين: أولاً عمومية إنسانية التاريخ، وثانياً الاهتمام بقيم استيطانية وطرزية أنجزت من قبل حضارة سابقة. بهذا الأمر تجاوز عصر النهضة الأيديولوجيات الدينية الضيقة، وأخذ يتمتع ويتعاطف مع أديان وأساطير ومفاهيم فنية سابقة، وخارج حضارته، كما أخذ يستوعبها ضمن حاضره. وعبر عن هذه العلاقة بين العقل الإنساني النهضوي والحضارة الكلاسيكية، باهتمامه بسمات الباتينا والخرائب، إضافة إلى اهتمامه بمقومات الحضارة الكلاسيكية الأخرى^(٥).

انتقل مفهوم الباتينا والخرائب، ومنحه قيمةً جمالية، إلى مفهوم العتق في العمارة، فأصبحت سمة العتق دلالة على قدرة الفكر ومهارته في تحقيق مصنّعات: عمارة، حديقة، أثاث، عربية، وأي مصنّع آخر يتمكن من أن يمتد مادياً في الزمن، وتحمل أشكاله سمات التعرّي والإشغال والتأكسد وإصابتها بالفطريات، أي تقبل أشكالها قوى تلف الزمن. وما سمة العتق التي تحملها هذه المصنّعات إلا تعبير عن قدرات فكرية ومهارة أدائية متميّزة.

(٥) نحن هنا لا نسعى إلى تقليل أهمية المعرفة والفلسفة والإنسانية التي جاء بها المفكّرون العرب، كالتوحيدي وسيويه والجاحظ، وغيرهم. ولكن الحقيقة لا تنكر بأنهم لم يتمكنوا من تجاوز عقيدة التوحيد، والأيدولوجيا الإبراهيمية عامة. فالوقف التوحيدي يتعارض مع تعدّد قوى الظواهر الطبيعية، ولذا يبقى موقف معرفي من الوجود، بقدر ما يكون مؤمناً، خارج قدرة البحث في واقع قوى وعلاقات الظواهر.

تعتبر الپاتینا والخرائب في الظاهر، كما لو كانا مناحي فنية ثانوية عرضية، ولكن واقعهما يؤلفان منحى سيكولوجياً عميقاً في وعي الإنسان بوجوده. وقد توسع هذا المفهوم، بعدما تمكّن من أن يخرج تدريجياً من زمن الله، وأخذ يؤسس زمن الإنسان. ومع عصر النهضة، وظهور المفاهيم الإنسانية والعقلانية، بدأت تؤسس تدريجياً مفاهيم زمن الإنسان، وتتعامل بموجبه، وتتجاوز زمن الله. ففي زمن الله، يكون وعي الوجود في حالة انتظار موعد الخلاص. وهذا موعد يحدده الله، وليس زمناً يتحكّم فيه الإنسان. وتمثل هذه الرؤية للخلاصية (Salvation) بالإبراهيميات، وبالإسلام خاصة.

ومع ظهور العقلانية في القرن السابع عشر، مع هوبس وديكارت، أخذ الوعي ينظر إلى الزمن الذي يتضمّن سيرورات ظهور المصنّعات والمعرفة، بكونه تفعيلاً من جانب إرادة الإنسان، ويكون إرادة الإنسان هي القوى التي تحقق إدارة تنظيم المجتمع، وإرضاء متطلبات الوجود. كما أنه زمن يتحقق فيه تلف الأشياء وعقها.

وعندما يكون التلف دلالة على الزوال، يكون العتق دلالة على قدرة الاستمرار في الزمن. وبقدر ما أصبح الوجود ضمن زمن الإنسان، أصبح العتق يقترن بقدرات امتداد ما يحقق الإنسان في الزمن. وبهذا الاقتران تمتد هوية الذات مع العتق، من الماضي إلى الحاضر. فالپاتینا هي دلالة على امتداد عمل البشر في الزمن. كما أنها تعبّر عن الفكر والعقل الذي حقق العمل في زمان سابق. فعن طريق سمة العتق، ونوعيته وكفاءته، يلتقي فكر الحاضر مع فكر الماضي، وذلك عن طريق السمات الدلالية التي تعبّر عن الفكر والعاطفة والحسّ التي تحققت في مادة المصنّعات. فتمتد هذه الدلالة في الزمن مع امتداد مادية هذه المصنّعات؛ وبتراكمها واندماجها ضمن المرجعية المشتركة الفعالة، ستصبح مقوماً فعلاً في ذاكرة المجتمع.

يؤلف التعامل مع سمات المصنّعات تعاملًا في زمنين: زمن الماضي، وزمن الحاضر، فيلتقي هذان الحسّان الحاصلان في زمنين متباعدين، لأن الصفة الأبتمالية التي تحملها المصنّعات لهذين الزمنين تؤلف دلالة الوصل بين حسّ المتلقين في الزمنين المتباعدين. فيتوافق التعامل والحسّ المحرّك له، ولكن لا يتطابقان مطلقاً، ذلك أن كل مرحلة من تلقي وتفعيل الحسّ بالصفة الأبتمالية، تؤلف حالة فريدة وآنية لحسّ ذاتي، حيث تتكرر قدرات الحسّ القيمة التي تمنحها لتلك السمات في آليات حدث التعامل.

فإذا كان هذا ممكناً في اتجاه ما في حركة الزمن من الماضي إلى الحاضر، يصبح من الممكن أن يحصل حوار مشابه، ولكن في الاتجاه المعاكس، من الحاضر إلى

المستقبل، بين الحسّ والقدرات الابتكارية لفكر الحاضر، مع ذلك الفكر المتلقي في المستقبل. وهكذا، مثلما امتدت هوية رجل الماضي إلى الحاضر، يصبح من الممكن أن تمتد هوية رجل الحاضر وتجاوز رجل المستقبل. تكمن أهمية هذا الحوار الذي يمتد في كلا الاتجاهين، الحاضر إلى الماضي، والحاضر إلى المستقبل، في أنه يعبر عن قدرات الإنسان التي تمتد في الزمن. فهو زمن ينبي ويستند إلى مهارة العمل. لذا هو زمن من صنع الإنسان، وفي ذاكرة الإنسان، وهو أداء تفعيل الدورة الإنتاجية في هذا الزمن، وتفعيل إرادة الفرد مع المادة، سواء أكانت هذه الإرادة واعية بقدراتها أم لا. إذاً، يحصل تفعيل زمن الإنسان، أو زمن الإرادة، بقدر ما تكون مخيلة وفكر الإرادة واعين بقدرات إرضاء متطلبات الوجود. لذا سيختلف تحقيق الزمن تماماً عن زمن الله، إذ في زمن الله، تكون المحرك الوحيد هي قوى الإلهام، التي يكون مصدرها الوحيد هو الله. كما أنه زمن ينتهي بخلاصية، يحدد موعدها الله، ونوعها ومن يتفع منها. لذا، نجد في أيديولوجية المؤمن بالإبراهيميات أن زمن الله يلغي زمن الفكر، ولذلك عجز المجتمع عن الاهتمام في تاريخه وآثاره، سوى ذلك الذي ينحصر في هموم العقيدة نفسها. ولأنه تاريخ ينبي على أيديولوجيا غيبية، فيكون انتقائياً، ويتشوّه عنده واقع الأحداث.

لقد كان أفلاطون في نظرية المثال أول من أوضح ووصف علاقة وجود الذات مع الزمن عندما يكون خارج إرادتها وتفعيلها. «المثال» في نظرية أفلاطون هو الشكل «الأمثل» لأشكال الأشياء وهو يكون قائماً في موقع فوقى، خارج إرادة الإنسان. في هذه الحالة، يصبح تفعيل إرادة وفكر وحسّ الإنسان في تحقيق شكل ما، لا أكثر من استعادة في الذاكرة، وجزءاً مستسخماً من «المثال» الأصل. لذا يبقى دائماً جزئياً ومتدياً نسبة إلى «المثال»، وليس ابتكاراً حقيقياً، وإن سعى إلى تحقيق ابتكار يكون تابعاً للقوى والمعرفة التي يمنحها الله للإنسان. والتعامل مع المثال هو تفعيل ذاكرة لشكل قائم قبل تحقيق الشكل في الوجود الدنيوي، بمعنى أن قدرات الإنسان هي التلقي، وليس الابتكار، إذ إن الابتكار يعود إلى قوى خارج العالم الدنيوي. وهذه القوى عند أفلاطون هي الـ «دميورج» (Demiurge)، خالق الكون المادي، وفي الإبراهيميات هي قوى الابتكار التي يمنحها الله للإنسان عن طريق ما يصطلح عليه بالـ «إلهام».

هناك شرطان لظهور زمن الله في الأيديولوجيا الإبراهيمية، وكلاهما ينبنيان على مفهوم التوحيد. والتوحيد هو حصر جميع قوى الظواهر الطبيعية والاجتماعية المتعددة بقوة واحدة، حيث تتعطل قوى الظواهر المتنوعة والقائمة والفعالة في واقع الوجود،

و تختزل بواحدة. فيتضمن هذا الكيان: كل القوى و المعرفة و الإرادة، و يكون قائماً في كل مكان و زمان، بل يُحدث الزمان و المكان.

و الشرط الأول الذي يبني عليه زمان الله هو تعطيل حرية القدرات الابتكارية لإرادة الفكر، فتعطل في المخلّلة العلاقة الطبيعية بين الإنتاج و الزمن الذي تحصل فيه الدورة الإنتاجية، حيث تكون القوى الابتكارية المؤدية هي القوى الحقيقية الفاعلة، سواء أكان هذا في المخلّلة أم في واقع التعامل. فزمن الله هو الرؤية الغيبية التي تجعل الزمن المتعامل معه في وعي الفرد حالة مجردة عن الواقع، لأن قوى الظواهر و الابتكار المحققة ضمنه تنتقل إلى القوى الموحّدة، أي الله، فتصبح رؤية الحركة بقوى إرادته و كامل المعرفة عطاءً منه، أي إلهاماً. بهذا يتعطل دور الفكر في تشغيل الدورة الإنتاجية، و تصبح إرادة الإنسان عرضية في زمن الله، و تابعة و انتكالية^(٦).

و الشرط الثاني هو ظهور عقيدة الخلاصية ضمن مفهوم التوحيد، و إكمالاً له. و تحول هذه العقيدة الزمن، في المخلّلة، إلى حالة مستقرة، شبه مجمّدة، في دورة الانتظار للانتقال إلى العالم الآخر، و ذلك إلى حين يصدر قرار إلهي في حصول يوم الخلاص. فيصبح واقع الزمن مختزلاً في وجودين لمحتطين: المحطة الأولى هي الولادة و معيش العالم الدنيوي، و هو معيش انتظار تحت مراقبة الله، و وكلاته على الأرض، و ذلك إلى حين يصدر قرار إلهي بحصول موعد الخلاص. و يكون الهدف الأول لمعيش الفرد في عالمه الدنيوي هو إرضاء متطلبات الله و الفرائض التي وضعها عليه عن طريق وكلاته. و المحطة الثانية تؤلف العالم الآخر، حيث ينقل الإنسان إليه في معيش و زمن يحدد الله شرطه و ظرفه كذلك.

و هكذا تصبح رؤية الوجود، بدلاً من أن يكون الزمن فيها سيرورات تفعيل قدرات الفكر و تحقيق متطلبات الوجود و إدامته، سيرورات متعاقبة في إرضاء الحاجة التي تنبني على دورات إنتاجية متعاقبة. و يصبح الحاضر، في الرؤية التوحيدية، انتظاراً طارئاً لوجود أخروي، حيث يكون وعد المعيش في ذلك العالم، معيشاً مستقراً و مريحاً و ممتعاً، خاصة بصيغته الإسلامية. المهم، أنه لا يتضمن جهداً فكرياً، أو طاقة إنتاجية، أي

(٦) تتضح هذه العلاقة بالاستعمال اليومي للغة، حيث يظهر اسم الله، باعتباره القدرة المحركة لكل شيء، في مختلف دلالات معاني الحوار الاجتماعي. فتبين لنا هذه الاستعمالات المتكررة، سواء متقصدة أم عفوية، عجز إرادة الإنسان، و انتكالية وجودها في زمن الله. و كان البعض من الأيديولوجيات، القائمة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، يضيف ضميراً قبل الاسم بدلالة العبودية. فجاءت الكثير من الأساء تقدمها كلمة «عبداً»، للدلالة على عبوديتها لأحد الألفه. و قد اعتمدت الدعوة المحمدية هذا النهج، و وسّعت استعماله، فأصبح الاسم و الذات التي تحمله محسبين في زمن الله، مدى الحياة، و يتحقّق تذكير الفرد بهذا الاحتباس في كل مناداة له.

سيكون وجوداً في ذلك العالم معفى من عمل وإنتاج وجهد وابتكار فكر الإنسان. لذا تتداخل عقيدة الخلاصية مع واقع قوى حرية إرادة الابتكار، وتعوقها، وتعطل الكثير من قدراتها الطبيعية، لأنها عقيدة، ورؤية للوجود، فتعطل الفكر وتجعله انكالياً.

و الزمن، حتى وإن يتلى بأيدىولوجيات زمن الآلهة والخلاصيات، والسحر قبل هذا، فإنه في واقعه هو زمن الذات الواعية بمعيش وجودها. وهو معيش يتضمّن ازدواجية الوجود: البقاء والزوال. لذا تقدم المخيلة، وتسعى إلى تجاوز الزوال، مسخرة صيغاً متنوعة من امتداد في زمن المستقبل، ما بعد واقعية الزوال.

هناك مسعى إلى امتداد هوية الذات، وذلك عن طريق إنجاب الذرية، وتهيئة مقومات إدامتها، واستمرارها في الزمن. وتعمل الذات على أن تؤمن لهذه الذرية ملجأ لمستقبل مناسب، مع قدر من قدرة المعيش بإحدى الصيغ المتوفرة في البيئة الاجتماعية التي هي فيها. فتطمئن الذات إلى أن هويتها ستمتد في الزمن عن طريق امتداد الذرية، واستمرار ذكرى لها في ذاكرة وزمن هذه الذرية.

كما يكون تعمير القصور والمنشآت مصنّعات مادية تدوم في الزمن، فتؤلف مقومات مادية ومعنوية وفكرية، كأداة ذاكرة، وظيفتها أن تتذكر الذات الزائلة، أو الذات التي لا تزول، بسبب إدامة هذه المقومات، بحسب الصورة في مخيلة تلك الذات.

إن وظيفة الأنصبة التذكارية هي أساساً استحداث أداة مادية تتمكّن من الامتداد في الزمن لتحقيق ترابطاً معنوياً بين الماضي والحاضر والمستقبل. وقد أقدم البعض على تهيئة قبور ضخمة ومريجة ومؤثثة، مع حرس وحاشية في بعض الحالات، وذلك لتأمين معيش مريح آمن في العالم الآخر.

وهناك نهج آخر لامتداد الوجود في الزمن، وهو امتداد الفكر والقدرات الحسية التي تُحمل على مصنّعات يحققها الفرد قبل الزوال، والتي تتمثل بالابتكار. بهذا ستمتد هوية الذات، والفكر الذي حققته، بامتداد مادية المصنّعات التي تحمله، فيحصل لها على وجود يمتد في الزمن. وهنا مصدر أهمية العمل الفكري نسبة إلى إدامة الهوية، عن طريق الابتكار والتحقيق في مجال الفكر: كالفلسفة والمعرفة عامة، كما عن طريق العمارة والفنون والشعر. وبعملها هذا، تمنى مخيلة الذات أن تستمر أهمية إنجازاتها الابتكارية في الزمن، وعن طريقها يمتد موقع لهويتها في الزمن، وتطمح لأن يكون إلى ما لا نهاية، لأن أساس نكران الموت، هو رغبة الامتداد في الزمن إلى ما لا نهاية.

أخذت الخرائب و الباتينا، إذًا، في المفهوم الذي بدأ يظهر في عصر النهضة، مع عقلانية القرن السابع عشر، وظيفة دلالية لبيان وجود لسلف متميّز، وهو سلف يتمتع بقدرات معرفية وفنية تمتد في الزمن إلى الحاضر، والخرائب و الباتينا دلالة مادية على تلك القدرات. لذا، منحت هذه المقومات المادية أهمية معنوية، من قبل العصر النهضوي، وأصبح التعامل معها مقوّمًا فعالاً في التشديد على زمن الإنسان، ودعمه. فامتدادها في الزمن دلالة ملموسة على تفاضل الصفات الأبتالية التي حققها السلف المعين، مقارنة بتلك التي حققها السلف الآخر، والتي زالت.

إذًا، يسرّنا العتق لأنه يؤلف أداة دلالية تربط بين الماضي والحاضر، وبهذا الربط يجد الحاضر موقعاً لنفسه في الزمن، فتصبح رؤية الزمن هنا من صنع إرادة الإنسان، ويصبح ضمن قدرة التحكم فيه. فالمنطق الذي يحقق التعامل مع العتق، يقول: إذا تمكّن السلف من تحقيق امتداد في زمن الحاضر، ستمكّن ذرية الحاضر من الامتداد في زمن المستقبل، أي، بما أن مآثر سلفنا تمكّنت من الاستمرار في الزمن، مقارنة بمآثر سلف الآخر التي عجزت عن ذلك، فإن ذلك يعني أنها تتضمن وتحمل صفات أبتالية تميّز من غيرها، وإلا لما تمكّنت من الاستمرار والامتداد في الزمن. ويعني هذا كذلك، بما أننا ذرية ذلك السلف، فنحن بحكم الواقع امتداد لسلف متميّز. واقتراننا به، يؤلف دلالة بأننا سنحقق صفات أبتالية لأشكال المصنّعات، التي ستمتد في الزمن، وستمتد هويتنا معها. وبتعلّقنا بالباتينا، واقتراننا بها، أو محافظتنا عليها، سيحفزاننا على الحفاظ على الصفات الأبتالية التي حققها أسلافنا، أي أننا نمتلك الحسّ الذي يؤهلنا لأن نستمتع بتلك الصفات. كما أننا بمنح قيمة فنية ومعنوية للخرائب و الباتينا، نحقق سابقة الحفاظ على مصنّعات تتمتع بصفات أبتالية متميّزة، فنكون بهذا قد أسسنا نهج الحفاظ على منجزات السلف واستمتاعنا بها، الأمر الذي سيؤدي بدوره إلى الحفاظ على منجزات الحاضر واستمتاع الأجيال اللاحقة بهذه الإنجازات.

لم تكن نقلة استحداث زمن الإنسان حدثاً متفرّداً بنفسه، ذلك أنه تزامن معه ظهور زمن الكون. وهو زمن ظهر مع كوبرنيكس، في القرن السادس عشر، عندما نقل مركزية الكون من الأرض إلى الشمس. وقد أخذ زمن الكون يتطور ويتوسع مع اكتشاف تعدد المجرات، وتوسع الكون معها في الزمن والسعة، وخاصة منذ الربع الأول من القرن العشرين.

لقد كان الزمن الذي يعيشه الإنسان قبل عصر النهضة، وابتداء من زمن السحر، الذي ظهر مع مجتمع الصيد، وذلك بمختلف صيغه، وما يتضمن من مرض وموت وعواصف وغيرها، من الأحداث التي تهدد البقاء، وهي تفسر بكونها حصيلة، أو بسبب سحر أقدم على ممارسته قبيلة معادية أو فرد ضد فرد آخر، إذ لم يكن هناك مفهوم آخر لهذا «السبب». وهكذا عاش مجتمع الصيد أكثر من مئة ألف عام في زمن السحر. إن تكوين عقل السحر يختلف في جوهره عن عقل الدين، لأن ممارسة السحر ليست مدونة أو مقننة، لذا يتمتع الفرد بحرية خيار ممارسة السحر واختيار الساحر، و مواعيد ممارسة السحر. لذا كان الفرد حرّاً، بهذا المعنى، في تحكّمه في زمن السحر، وإجراء طقوسه. كما يتمتع الساحر بحرية ابتكار مراسم السحر و مواعيدها وأدواتها، من غير أن يكون لفكر المجتمع مرجعية مدونة و مقننة تحدد حرية ممارسة السحر عامة، فحرية ممارسة السحر أشبه بحرية استعمال الأمثال الشعبية.

ومع ظهور الزراعة والمجتمع الزراعي قبل سبعة آلاف عام أو أكثر، تأسست الأديان لأول مرة وظهرت في الفكر، ومعها تأسست الدولة المركزية. وضمن تنظيمها، ظهر موقع أو دور الآلهة وطقوس الدين في مجتمع الإنسان. و بينما أقدمت الدولة على احتكار إدارة تنظيم مجتمع المدينة، و سلوكيات أفرادها، أقدمت المنظمات الدينية على احتكار إدارة متطلبات المجتمع السيكلوجية، و استبدلت غالب دور السحر. ومع هذا التحول البراديغمي (paradigm) في وعي المجتمع، ابتكر دور الآلهة، التي تنوّعت في قدراتها و وظائفها الاجتماعية والطبيعية.

لقد دخل الإنسان زمن الآلهة، سواء أكانت الرؤية تعدد الآلهة أم مركزيتها أم توحيدها. وبقدر ما أصبحت عقائدها مدونة و مقننة و مركزية أو موحدة، فقد الفرد، بهذا القدر، والمجتمع عامة، حرية تنظيم الزمن و قدرة التحكم فيه. فأصبح زمن الفرد تابعاً لزمن الآلهة التي ابتكرها واعتمدها. و يمثل هذا التحديد لتنظيم زمن الفرد بزمن الله، خاصة في الأيديولوجيا الإبراهيمية.

و بسبب اختزال العقل الزراعي عامة بزمن الآلهة، كانت رؤية الزمن تنحصر بسلوكيات هذه الآلهة، و بقدراتها على تحريك الظواهر، و امتداد هذه السلوكيات في الزمن، بما في ذلك «خلق» الأشياء و الظواهر. لذا كان العقل محتبساً في زمن محدد بهذه السلوكيات.

لقد جاء عصر النهضة بالعقلانية والإنسانية، و استحدث معه زمن الإنسان. لقد أصبح زمناً يتحكم فيه الإنسان، أي له دور فعال في تحقيق الدورة الإنتاجية، و في قرار تنظيم سلوكيات المجتمع، و حق ابتكار مفهوم الوجود و تصوره.

لذا كان تأسيس مفهوم زمن الإنسان نقلة فكرية جذرية في تاريخ تطور فكر الإنسان، وقد عبّر عنها بصيغ مختلفة، في مجالات الفلسفة والأدب والفن والعمارة. وكانت إحدى صيغ التعبير عن الاستمتاع بهذا الزمن المكتشف عن طريق الولع والاستمتاع والاهتمام بأحد المظاهر الحضارية لمجتمع سابق، أي منجزات السلف. وهنا يأتي موقع الاهتمام بالخرائب والپاتينا.

و كانت المجتمعات الزراعية قد عبّرت عن نفسها عندما انتقلت من مجتمع الصيد إلى المجتمع الزراعي، عن طريق ابتكار الأساطير التي تعددت وتنوّعت، بحسب زمن ظهورها وظرف المجتمع الذي ابتكرها. لذا تؤلف أسطورة طرد آدم وحواء من الجنة تعبيراً فعلياً عن الانتقال من عيش وفرة الغابة، كما في مخيلة الأسطورة، إلى عيش الكد الزراعي.

ولا يخلو الولع بالخرائب والاهتمام بها في القرن الثامن عشر، ومن بعده، من منحى رومنتيقي غيبي، وهو الحنين إلى منحى لاعقلاني، يؤلف ردود فعل ضد العقلانية الديكارتية، ومفاهيم العقلانية الأخرى التي ظهرت ضمن الحركة الإنسانية والتنويرية عامة. مع ذلك، فهو منحى تداخل مع ذلك الاهتمام في طرز الحضارات الأخرى، واعتبر الحاضر عبارة عن حضارة ضمن تطور تاريخي، وتعاقب مراحل، في تطور الحضارات. فبدأ الاهتمام بالخرائب، تلك الخاصة بالحضارة الرومانية، بوصفها سلفاً لإيطاليا النهضة، إلا أن هذا الاهتمام الرومنتيقي تداخل كذلك مع التطور المعرفي العقلاني ليؤلف بحثاً في تفهم التاريخ. فبدأ البعض بمغامرات تجارية، وبهوية البحث عن آثار السلف، وكان نموذجها الصارخ التاجر الألماني شليمان (Heinrich Schliemann). ومن بعده المنقبون الإنكليز الأوائل المحترفون في علوم الآثار المستجدة، مثل إيفانز (Arthur Evans) في كريت، وإلغار (Edward Elgar) في أثينا، ولايارد (Austen Henry Layard) في العراق.

من هنا أخذ يتبنى علم الآثار بعد أن مهد طريق الولع بالخرائب، والتنقيب الاعباطي في إيطاليا، للذين سبق إليهما الرحالة الأوروبيون في تلك المرحلة. وظهر من هذه الحركات التنقيبية والاهتمام بالخرائب، رسوم الأحيات ليرانسي، والحملة المعرفية التي أقدم عليها نابليون في مصر، وعلم الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر.

و كان ظهور علم الأنثروبولوجيا بمثابة علم جديد لا يبحث في تطور الحضارات، وإنما في أصل الحضارات والكليجريات التي تتضمنها، خاصة منها البدائية، وذلك

ليتمكّن الباحث من اختزال ظواهر الكلجريات، و يتعرّف إلى سيورورات ظهورها وأصل تكوينها.

وقد أدى تداخل كل هذه العلوم مع تلك في المجال الفيزيائي إلى تغيّر الرؤية إلى الزمن. وهكذا ظهر مفهوم جديد للزمن، وهو مفهوم يتضمّن طبقات زمنية متداخلة، لكل منها قياساتها: فهناك زمن الكون، الذي يمتد إلى مليارات الأعوام، وهناك الزمن البيولوجي الذي يمتد إلى قليل من مليارات الأعوام، والذي يتحدّد بعمر الأرض، وهناك زمن الأساسيات والإنسانيات، وآخرها في تسلسل تطورها جاء زمن الإنسان، الذي يمتد إلى أكثر من مئة ألف عام. وهناك زمن مجتمع الصيد والسحر الذي ظهر مع الإنسان العاقل، وامتد إلى ما قبل عشرة آلاف من الأعوام. وظهر بعد هذا زمن الإنتاج الزراعي والمدن والأيدولوجيات الدينية، وامتد إلى حين ظهور عصر النهضة والصناعة والمكننة، ومعه ظهر مفهوم الحق والتفرد والعقلانية. ومن هنا انتقلت العمارة ومختلف الفنون من صيغها التقليدية التي ظهرت في المجتمع الزراعي وما قبله، والتي تفتقر إلى التعبير الذاتي المتفرد، فظهر زمن الحداثة، ومعه ظهر الشخص والفنان والفن.

المراجع

١ - العربية

كتب

- باقر، طه. ملحمة كلكاش. بغداد: وزارة الإعلام، [١٩٧١]. (سلسلة الثقافة العامة)
- البهنسي، عفيف. فلسفة الفن عند التوحيدي. بيروت: جدار الفكر المعاصر، ١٩٨٧.
- الجادر جي، رفعة. حوار في بنية الفن و العمارة. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٥.
- حرب، علي. العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢.

٢ - الأجنبية

Books

- Arieti, Silvano. *Creativity: The Magic Synthesis*. 2nd ed. New York: Basic Books, 1976.
- Davis, Fred. *Fashion, Culture, and Identity*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1992.
- Durpré, John. *The Latest on the Best: Essays on Evolution and Optimality*. London: The MIT Press, 1987.
- Gombrich, E. H. *The Sense of Order: A Study in the Psychology of Decorative Art*. New York: Phaidon Press, 1920. (The Wrightsman Lectures, V. 9)
- Nietzsche, Friedrich. *The Will to Power*. London: Vintage Books, 1968.
- Storr, Anthony. *Solitude: A Return to the Self*. New York: Free Press, 2005.
- Watson, Lyall. *Neophilia: The Tradition of the New*. Chicago, IL: Sceptre, 1989.



فهرس

- أ -

أليغيري، دانتى: ٩٤

الأبتهال: ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٦-٦٧، ٧٣،

٧٦، ٩٨، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥-١٢٦،

١٣٠-١٤٢، ١٤٥-١٤٦، ١٤٨-

١٥٠، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦،

١٦٨-١٦٩، ١٨٦-١٨٧

إيسن، هنريك: ٨١

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم: ١٠٤

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ١٩١

الاتساق: ٥٨، ٦٤

أرسطو: ١٨٩

الازدواجية: ٥٥، ٧٦-٧٨

الاستطيقية: ١٣، ١٥-١٦، ٢١، ٢٣-٢٤،

٢٧، ٣٠-٣١، ٣٨-٤٠، ٥٠-٥١،

٥٥-٥٦، ٧٢، ٧٩، ٨٢، ٨٧، ٩٣،

٩٥، ٩٨، ١١٣، ١١٦-١١٧، ١٢٩،

١٣٢، ١٣٧، ١٧٦

أفلاطون: ١٨٩، ١٩٤

ألبرت (أمير كونسورت): ٣٥

ألبرتي، ليون باتيستا: ١٥١، ١٦٩، ١٩١

الالتباس: ٧٦، ٧٩-٨٣، ٨٥

ألتوسير، لويس بيار: ١٧

العید، ابن دقیق: ١٠٤

إلغار، إدوارد: ١٩٩

الإنتاج البدائي: ١٤٤

الإنتاج الزراعي: ٣٢، ٨٦، ٩٨-٩٩،

١٠٢، ١١٣، ١٨٢، ١٨٦

الإنتاج الصناعي: ٣٣

الانتقاء: ٦٣

الأنثروبولوجيا: ١٦

الإنسان البدائي: ٥٧، ٨٦، ٨٨

الإنسان العاقل (homo sapiens): ٤٧،

٤٩، ٥١، ٧٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٤٤،

١٧٣، ١٨٥

الأنهط: ٦٤-٦٥، ٧٠، ٧٣، ١٨٩

الأيديولوجيا: ٨٨، ٩١، ٩٥، ٩٩، ١١٣،

١٤٩، ١٦٨، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠

إيفانز، آرثر: ١٩٩

- ب -

الباتينا: ١٩٧، ١٩٩

باكستن، جوزيف: ٣٥، ١٦٩

البثاني، عبد الله بن جابر: ١٠٥

بترارك، فرانسيسكو: ١٨٩

بتهوفن: ٨١-٨٢

برانشيوليني، بوجيو: ١٨٩

براكستيليس: ٩١

برغر، بيتر: ١٧

برونلنسكي، فيليبو: ١٥١

بريوستر، ديفيد: ٧١

بلاديو، أندريا: ١٥١

بنوية المجتمع: ١٩

بودون، غيوتو دي: ١٨٩

بوش، هيرونيموس: ٩٤

بوكاتشيو، جيوفاني: ١٥١

بومغارتن، ألكسندر غوتليب: ١٥

بونابرت، نابليون: ١٩٩

بونتي، جيو: ٥٦

بوندون، غيوتو دي: ١٦٩

البيئة الاجتماعية: ٢٢

بيرانيسي، جيوفاني باتيستا: ١٨٩، ١٩١، ١٩٩

تطور الفنون: ١٨٩

التغذية الاستراتيجية: ١٦٥

التفاعل الجدلي: ١٦٧-١٦٨

التقدم المعرفي: ١٦٤

التكنولوجيا الاجتماعية: ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٠

تكنولوجيا الإنتاج: ٣٢

التماسك الاجتماعي: ٩٧، ٩٩، ١٠٠-

١٠١، ١٠٦، ١٠٩، ١١٣-١١٧

التنميط: ٧٣-٧٤

التنميط الاستطقي: ٧٦

التنميط الرمزي: ٧٥

التنميط التفمي: ٧٥

التوق إلى الاستقرار: ٦٧

التوق إلى التنوع: ٦٨-٦٩

التيار الوهابي: ١٠٣

- ث -

الثوابت الطبيعية: ١٢٣

الثورة الصناعية: ١٨

- ج -

جانيري، شارل إدوار (لوكوربوزيه):

٥٩، ٨٤، ١٦٩

الجماع: ٩٢-٩٣

الجمال: ٣٩، ٩١، ١٧٦، ١٧٨، ١٨١

جياكوميتي، ألبرتو: ٩١

- ت -

تأمين البقاء: ١٣، ٢٣-٢٥، ٢٩

تأمين الوجود: ٢٣، ٣٠، ٣٧، ٤٩

ترنر، جوزيف: ٩١

التطور الحضاري: ١١٧

التطور العلمي: ١٠٨-١٠٩، ١٣٣، ١٥٤

- ح -

الحاجة الاستيطانية: ٢٤، ٢٧، ٣٠-٣١،
٣٨-٤٠، ٤٣، ٤٥-٤٦، ٤٩، ٥١،
٦٩، ٧٦، ٨٦-٨٧، ٩١، ٩٦، ٩٨،
١١١، ١١٦، ١٨٤

الحاجة الرمزية: ٢٤، ٦٣، ٦٩، ٩٦، ٩٨،
١١٦

الحاجة القاعدية: ٢٤، ٣١

الحاجة المركبة: ٢٣-٢٤، ٣٧، ٣٩، ٤٠،
٨١، ٨٩، ٩٨

الحاجة النفعية: ٢٣، ٥١، ٥٩، ٧٥، ٩٢،
٩٦-٩٨، ١١١، ١١٧

حرية الفكر: ١٦٣

الحس الاجتماعي: ١٥٧

حسين، صدام: ١٣١

الحضارات الزراعية: ١٣٢

الحضارة الإسلامية: ٦٧، ١١٠

الحضارة الإغريقية: ٦٧

الحضارة الأكديّة: ٦٧

الحضارة الكلاسيكية: ١٩٢

الحضارة المصرية: ٦٧، ٩٠

حيلة التحزر: ٦٣

- خ -

الخرائب: ١٨١، ١٩٠-١٩٣، ١٩٧

الخلل الاجتماعي: ١١٩

الحميني، روح الله الموسوي: ١٠٣

الخوارزمي، محمد بن موسى: ١٠٥

- د -

دارون، تشارلز: ١٣٣

دافنشي، ليوناردو: ١٥١

داوكنس، ريتشارد: ١٣٣

دوبري، جون: ١٣٣

الدورة الإنتاجية: ٤٠، ١١٢، ١١٥، ١١٧،

١١٩، ١٢٨-١٣٢، ١٣٨-١٤٦،

١٤٩-١٥٠، ١٥٤-١٥٧، ١٥٩-

١٦٠، ١٦٣، ١٦٥-١٦٦، ١٦٩،

١٨٠، ١٨٢

دوركهايم، إميل: ١٩-٢٠

دوناتيلو: ١٥١

ديكارت، رينيه: ١٩٣

ديور، كريستيان: ٥٦

- ذ -

الذاكرة المكتسبة: ٦٠

- ر -

راحة البال: ١٣، ٣٠، ٧١، ٨٩، ١٧٤،

١٧٩، ١٨٧

راحة النفس: ٧٢، ٧٨

الراحة السيكلولوجية: ١١٧

الرمزية: ١٣، ٢٣-٢٤، ٣١، ٣٧-٣٨،

٩٨، ١١٣-١١٥، ١١٧، ١٢٩

رودان، أوغست: ٩١

الرومنطيقية: ٩٣، ١٩٩

رويسدال، جاكوب فان: ١٩١

روي، فان دي: ٥٦

- ص -

رين، كريستوفر: ٥٨

الصادق، أبو عبد الله: ١٠٤

- ز -

- ط -

زيمل، جورج: ٧٧

الطوسي، نصير الدين: ١٠٥

- س -

- ظ -

سانزيو، رفايللو: ١٨٩

الظواهر الاجتماعية: ٣٧

سقراط: ١٨٩

الظواهر الطبيعية: ٢٣-٢٤، ٣٤، ٣٧-

السلسلة الرياضية: ٦٦، ٧٠

٣٩، ٤٧، ٥١، ١١٨، ١٢٥-١٢٦،

سمث، ماينارد: ١٣٣

١٤٩، ١٧٣، ١٨٠-١٨١، ١٨٧،

السنة: ١١٠

١٩٤، ١٩٢

السوسيولوجيا: ١٦، ١٩-٢٠

- ع -

السيكولوجيا: ١٣-١٥، ٢١، ٤٦

العاطفة: ١٣٥، ١٣٩، ١٩٣

سيكولوجية الإنسان: ١٥، ٢٧، ٣٩،

العاطفة الإنسانية: ٧٢

٤٦-٤٧، ٥٥، ٦٧، ٨٨، ٩٣، ٩٦،

عشية الوجود: ٢٥، ٤٦

١١١

عصر النهضة: ١١٤، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٥،

سيكولوجية الذات: ١٤-١٥، ٢١، ٤٧،

١٩٨

١١٧، ١١١

العلاقات الاجتماعية: ٢٧، ٣٦، ٣٩، ٤٧،

سيكولوجية الفرد: ١٧، ١٣١

٦٣، ٧٥، ٧٧، ٨٧، ٩٦، ٩٩، ١٠٠،

١٠٦، ١١٢، ١٤٧، ١٥٤، ١٥٧

- ش -

العلاقات الإنتاجية: ١٤٥، ١٥٥

الشذوذ الجنسي: ١٣٤

العلاقات الجنسية: ٧٥

شكسبير، وليام: ١٥١

العلاقات الطبقة: ١١٣

شليان، هنريش: ١٩٩

العلاقة بين الفكر و سيرورات التصنيع:

٣٥

شيشيرون الروماني: ١٥٠

العلاقة السبريانية: ١٥٦

الشيعة: ١١٠

- نشوة الوجود: ٤٧، ٥٠-٥٢، ٧٢، ١٣٧،
١٦٨، ١٤٦
- المخيلة الجمعية: ١٤٤
- نظام البساطة: ٧٠
- المذهب الإباضي: ١٠٤
- التفعية: ١٣، ٢٣-٢٤، ٣١، ٣٧-٣٨،
١١٣، ٩٨
- المذهب الإمامي: ١٠٥
- نيتشه، فريدريك: ٧٦
- المذهب الحنبلي: ١٠٣-١٠٤
- ه -
- المذهب الحنفي: ١٠٥
- هاريس، جون: ١٩١
- المذهب الشافعي: ١٠٣-١٠٥
- هويس، توماس: ١٩٣
- المذهب المالكي: ١٠٤
- هوغارث: ٥٨
- المشكال (kaleidoscope): ٧١
- هولاكو خان: ١٠٥
- المعرفة التجريبية: ٩٠، ١٠٥-١٠٦،
١٠٩، ١٤١
- هوية الذات: ١٣
- المعرفة العلمية: ٩٠، ١٠٩، ١٢٤، ١٣٥،
١٥٤
- هبرودوتس: ١٩٢
- هيوم، ديفيد: ٥٩
- و -
- المعرفة المكتسبة: ٢٩، ٦٠
- الوجود الدنيوي: ٢٤، ٢٦، ٧٦، ٩٥
- الملاءمة: ١٣٥-١٣٦
- الوجود المتخيل: ٢٤
- ملل الوجود: ٣٠
- ورنغر، وللم: ٨٨
- المنافسة: ١٨٥
- الوعي الإنساني: ٢٧، ٣١، ٣٨-٣٩، ٤٦،
٦٨، ١١٢، ١١٦، ١٢٥، ١٣٧-١٣٨،
١٩٣، ١٨٨
- المنظومة الرياضية: ٦٦
- الوعي الوجودي: ٧٨، ٩٥
- موريس، دسموند: ٨٥
- ولفلن، هنريخ: ٦٨
- موزارت: ٨٣
- ميد، جورج: ١٧، ٧٧
- ميد، هربرت: ١٩
- ي -
- يوريدس: ٨٢
- ن -
- النشوة الاستيقية: ٤٩

مع تطور الإنسان العاقل، حيث غدا الفكر يُطلق قدرات التفكير والمساءلة ويتأمل في واقع وجود الذات، بات هذا الإنسان يعي عبثية وجوده الذي لا معنى له. فما إن يؤمن هذا الإنسان القدرة على البقاء من خلال البعدين النفعي والرمزي في مركب الحاجة لديه، حتى يشعر بالملل من تكرار هذا الدور، فتقدم قدرات الابتكار التي يتمتع بها الفكر، بتفاعلها مع القدرات المعرفية والحسية، على ابتكار أداة الاستمتاع بالوجود، المتمثلة بالبعد الثالث، أي البعد الاستطقي بوصفه وعياً سيكولوجياً بضرورة تجاوز ملل الوجود وعييته.

هذا الكتاب هو دراسة في سوسيولوجية وعي الإنسان وحاجته لصفحة الجمال. يعرض ويحلل علاقة الإنسان بالعمل وحاجاته المعيشية والسيكولوجية لهذا العمل منذ نشوئه ككائن عاقل، وتأثير التطور الحضاري في التوازن بين الدوافع النفعية والرمزية في مركب الحاجة لديه وبين الدوافع الجمالية المهددة بالحصار عند الإنسان المعاصر، وبخاصة مع التطور الحضاري وصعود الثورة الصناعية وما رافقها من مكننة وتلوث للرؤى البصرية لمعالم البيئة المعمرة.

رسالة الجادرجي

معمار ومنظر وكاتب، من مواليد بغداد عام ١٩٢٦. مؤسس ومدير المكتب الاستشاري العراقي (١٩٥٢ - ١٩٧٨). تولى عدة مناصب إدارية في العراق بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٨٠. استأذنته في جامعة هارفرد (١٩٨٣ - ١٩٨٦). حائز أكثر من جائزة؛ وعضو فخري في الجمعية الملكية البريطانية للمعماريين منذ عام ١٩٨٢، وفي المعهد الأمريكي للمعماريين منذ عام ١٩٨٧. من مؤلفاته: حوار في بنوية الفن والعمارة (١٩٩٥)؛ المسؤولية الاجتماعية لدور المعمار (١٩٩٩)؛ في سببية وجدلية العمارة (٢٠٠٦)، وغيرها.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعبي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb

التمن: ٩ دولارات

أو ما يعادلها

ISBN 978-9953-82-599-1



9 789953 825991

مكتبة
الفكر
الجديد